جامعة قطر

كليّة الشريعة والدراسات الإسلامية

البعد الدعوي في تفسير معارج التفكر ودقائق التدبر للميداني

(دراسة في المجلد الأول)

إعداد

نبيلة محمد زهير أبو زناد

قُدّمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلّبات

كليّة الشريعة والدراسات الإسلامية

للحصول على درجة الماجستيرفي

التفسير وعلوم القرآن

يونيو ٢٠٢٠م/١٤٤١هـ

© ٢٠٢٠م. نبيلة محمد زهير أبو زناد. جميع الحقوق محفوظة

لجنة المناقشة

استُعرضت الرسالة المقدّمة من الطالبة نبيلة محمد زهير أبو زناد بتاريخ ٢٢/ ٣/٢٠٢٠م، وَوُوفِق عليها كما هو آتٍ:

نحن أعضاء اللجنة المذكورة أدناه، وافقنا على قبول رسالة الطالبة المذكور اسمها أعلاه . وحسب معلومات اللجنة فإن هذه الرسالة تتوافق مع متطلبات جامعة قطر، ونحن نوافق على أن تكون جزءًا من امتحان الطالبة.

الأستاذ الدكتور: أحمد خالد شكري

المشرف على الرسالة

الأستاذ الدكتور: محمد المجالي

مناقش

الدكتور: محمد إقبال

مناقش

تمّت الموافقة:

الدكتور إبراهيم عبد الله الأنصاري، عميد كلّيّة الشريعة والدراسات الإسلامية

المُلخَّص

نبيلة محمد زهير أبو زناد، ماجستير في التفسير وعلوم القرآن :

يونيو ٢٠٢٠م.

العنوان: البعد الدعوي في تفسير معارج التفكر ودقائق التدبر للميداني (دراسة في المجلد الأول).

المشرف على الرسالة: الأستاذ الدكتور/ أحمد خالد يوسف شكري

عُني هذا البحث بإبراز ما كشفه الميداني من أمور تتعلق بحركة البناء المعرفي والدعوي لهذا الدين، والمعالجات الربانية الشاملة، وإبراز ما عُنيت به الشريعة في بدايات التنزيل.

وجاء في مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة؛ بدءاً بالتعريف بالميداني وتفسيره، والتعريف باسم الرب وسمة الرسالة وسمات حاملَيها عليهما السلام، مُعرجًا على دراسة التعليمات والوصايا الربانية التي تضبط سلوك حامل الرسالة، ثم ارتقى بتسليط الضوء على الآيات التي تتضمن الدفاع والوعود والمنن الربانية لحامل رسالته، وكان ذلك من قبيل الإعداد النفسي له، ثم انتقل الحديث إلى الصفات الأولى التي وُصِف بها الإنسان في أوائل التنزيل وما ينجم عن تكذيبه من ظواهر أخلاقية وسلوكية اجتماعية، سالكًا في عرض مباحثه المنهج الاستقرائي، والتحليلي، والوصفي، ثم طوى تجواله وتطوافه ببيان جملة من النتائج التي أجابت عن إشكالية البحث وأسئلته.

وقد تبين للباحثة مدى العناية الرَّبانيّة بحامل الرسالة فكان الإعداد شمولياً يتناسب مع شمولية الرسالة، وتبين أيضاً الجوانب التي اعتنى القرآن بها في المراحل المبكرة من تنزيله، من بيان منهاج الدعوة وكيفية التعامل مع المكذبين، وأظهرت الدراسة العلل الأم لإعراض الإنسان عن الرسالة الرَّبانيّةِ.

ABSATRCT

The da’wa (missionary activity) dimension in explaining the meanings of reflection and find cogitation for Almaidany (a study in the first volume).

This research highlights what Alhmaidany has revealed about matters related to the knowledge gathering and the missionary activities for this religion, and the comprehensive solutions, and highlights the matters which the Sharia has dealt with in the beginning of the revelations.

It came in an introduction, preamble, and four chapters, and a conclusion, starting from introducing Almaidany and his interpretation, and the definition of the name of the Lord and the character of the message and the characteristics of messengers, peace be upon them, then referring to the study of instructions and divine commandments that control the conduct of the message holder, then he rose by highlighting the verses that include defense and promises and grants from God for the bearer of his message, and that was like a psychological preparation for him, then the narration moved to the first qualities in which the human being was described in the early revelation and what will happen as a result of disbelieving in the message, as a moral and social behavioral phenomena, following in presenting his research the inductive, analytical, and descriptive approach. And concluded by showing a set of results that answered the problem of the research and its questions.

شكر وتقدير

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ فياربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك أن وفقتني لإنجاز هذا البحث بفضلك ومنِّك وكرمك، فلك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد بعد الرضا، ولك الحمد إذا رضيت، ثم أُثني بالشكر الجزيل وصادق الدعاء للأستاذ الدكتور/ أحمد خالد شكري؛ لتكرمه بالإشراف على هذه الرسالة، وما قدّمه من نصح وتوجيه، بحلم ورفق ولين، حتى اكتملت الرسالة بهذه الصورة، فأسأل الله العظيم أن يعظم له الأجر والمثوبة، والشكر موصول لكل من ساعدني ووقف بجانبي برأي، أو تشجيع، أو دعاء، وأخص أستاذَي الكريمَيْن عضوَي لجنة المناقشة على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة، الأستاذ الدكتور/ محمد المجالي، والدكتور/ محمد إقبال، كما أشكر عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية: الدكتور/ إبراهيم الأنصاري، والعميد المساعد لشؤون البحث والدراسات العليا: الدكتور/ محمد المجالي، لعنايتهما بالبحث العلمي.

فهرس المحتويات

المقدمة..... ١

تمهيد: التعريف بالميداني وتفسيره..... ٨

المبحث الأول: التعريف بالميداني.....٩

المبحث الثاني: التعريف بتفسيره..... ٢٢

الفصل الأول: الرُّبوبيَّة وسِمة الرِّسالة الرَّبانِيَّة وسمات حاملها ٢٧

المبحث الأول: الرُّبوبيَّة وسِمة الرسالة الرَّبانِيَّة ٢٨

المطلب الأول: اسم الرَّب ودلالته ٢٨

المطلب الثاني: سِمةُ الرِّسالة الرَّبانيّة ٣٧

المبحث الثَّاني: سِمةُ حامل الرِّسالة الرَّبانيَّة..... ٤٦

المطلب الأول: سِمةُ محمد صلى الله عليه وسلم..... ٤٦

المطلب الثاني: سِمةُ جبريل عليه السلام ٥٠

الفصل الثاني: الإعداد السلوكي لحامل الرسالة..... ٥٤

المبحث الأول: علاقة حامل الرسالة بربه ٥٥

المطلب الأول: الدعوة إلى اكتساب العلم وتدوينه ٥٥

المطلب الثاني: الأمر للقيام بمهام الدعوة..... ٦٣

المطلب الثالث: الأوامر والوصايا السلوكية للرسول ﷺ وللذين آمنوا معه ٧٣

المطلب الرابع: التسبيح وأثره على انضباط السلوك..... ٨٢

المطلب الخامس: الدعوة إلى شكر النِّعم..... ٨٥

المبحث الثاني: علاقة حامل الرسالة بالمكذبين..... ٩١

المطلب الأول: الصبر ٩١

المطلب الثاني: الهجر الجميل..... ٩٦

المطلب الثالث: ترك المقاومة..... ٩٧

المطلب الرابع: الإمهال..... ٩٩

المطلب الخامس: عدم الطاعة وترك المداهنة..... ١٠٢

الفصل الثالث: الإعداد النفسي لحامل الرسالة..... ١٠٧

المبحث الأول: الدفاع عن حامل الرسالة..... ١٠٨

المطلب الأول: السفع بالنّاصية ودعوة الزّبانية..... ١١٠

المطلب الثاني: الصّعود على عقبة كؤود..... ١١٤

المطلب الثالث: نفي الجنون عن النبي ﷺ..... ١١٧

المطلب الرابع: الوسم على الخرطوم..... ١٢١

المطلب الخامس: الهلاك والخسران والقلادة من مسد..... ١٢٣

المطلب السادس: القسم أن الله ما ودع النبي ﷺ وما قلاه..... ١٢٧

المطلب السابع: شانئ النبي ﷺ هو الأبتر من كل خير..... ١٢٨

المبحث الثاني: الوعود الرّبانية لحامل الرسالة ١٣٣

المطلب الأول: وعود تتعلق بحامل الرسالة النبي ﷺ ١٣٣

المطلب الثاني: وعود تتعلق بمهام الدعوة..... ١٤٠

المبحث الثالث: المِنَن الرّبانية لحامل الرسالة..... ١٤٥

المطلب الأول: أوجه المِنَّة الرَّبانيَّة في سورة الضحى..... ١٤٥

المطلب الثاني: أوجه المِنَّة الربانية في سورة الشرح ١٤٩

المطلب الثالث: أوجه المِنَّة الربانية في سورة الكوثر..... ١٥٧

الفصل الرابع: وصف الإنسان في بدايات التنزيل والظواهر الأخلاقية، والسلوكية الاجتماعية للمكذّبين..... ١٦٠

المبحث الأول: وصف الإنسان في بدايات التنزيل..... ١٦١

المطلب الثاني: الإنسان والمال حقائق قرآنية..... ١٧٦

المطلب الثالث: رأس مال الإنسان المكلف ١٨٥

المطلب الرابع: الإنسان وجحود النِّعم..... ١٩٠

المبحث الثاني: الظواهر الأخلاقية والسلوكية الاجتماعية للمكذبين والعلاج القرآني ١٩٢

المطلب الأول: الظواهر الأخلاقية للمكذبين..... ١٩٢

المطلب الثاني: الظواهر السلوكية الاجتماعية للمكذبين..... ١٩٩

المطلب الثالث: العلاج القرآني للمكذبين..... ٢٠٧

الخاتمة..... ٢١٥

قائمة المصادر والمراجع ٢١٨

مراجع شبكة الإنترنت:..... ٢٣٠

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد؛

فقد نهج الميداني منهجًا متميزًا عن السابقين لم يسلكه سوى عدد قليل من المتأخرين وهو تفسير السور بحسب ترتيب النزول، قاصدًا الكشف عن أمور جليلة تتعلق بحركة البناء المعرفي لأمور الدين، وحركة المعالجات التربوية الربانية الشاملة لحامل الرسالة، وللمناوئين لدعوته سواء كانوا متريثين أو مكذبين.

لذا عمدت الباحثة إلى (معارج التفكر ودقائق التدبر) في محاولة لتتبع ما أراد الميداني إرساءه وبيانه، إضافة إلى دراسة التوجيهات والوصايا الربانية التي اعتنى بها القرآن في المراحل المبكرة من تنزيله، فكانت الآيات في أوائل التنزيل تحمل توجيهات ووصايا مقترنة في معظمها باسم الرب، وما فيه من دلالات عميقة، وتحمل التنويه بالقرآن وعظيم شأنه، بذكر سمته وسمات حاملَيه، وكشفت الآيات عن عظيم عناية الله بإعداد حامل الرسالة، من حيث ضبط سلوكه – سواء في علاقته مع ربه، أو في علاقته مع المكذبين– أو من حيث إعداده النفسي الذي تجلى في الدفاع عنه ضد أعداء دعوته، دفاعًا محفوفًا في معظمه بوعود أو مِنن ربانيّة.

وأردفت ذلك بذكر البعد الدعوي أو أثر هذه التوجيهات على الدعوة والدعاة، استنباطًا من كلام الميداني، ومن سبقه من المفسرين.

كذلك كشفت الآيات عن الصفات الأولى التي تصف الإنسان في معظم أفراد نوعه، وما تنضوي تحت كل صفة من بيان حقائق تتعلق إما بأسباب الإعراض عن الدعوة الربانية، وما ينتج عن ذلك من ظواهر أخلاقية، وسلوكية اجتماعية.

أو تتعلق بالمال وقضية التوجيه للعطاء المالي، ضمن إطار سنة البناء المتدرج في التعليم والتوجيه، أو تتعلق ببيان رأس مال الإنسان المكلف، أو ببيان جحوده وإنفاقه النِّعم في معاصي الله.

وأردفت ذلك أيضًا بذكر المعالجات القرآنية.

إشكالية البحث وأسئلته:

تتجلى إشكالية البحث في السؤال المركزي الآتي: ما مدى اشتمال تفسير الميداني على معالم دعوية يمكن اغتنامها في ضبط العمل الدعوي وتوجيهه في ضوء الاسترشاد بالنصوص القرآنية والواقع الذي تنزلت فيه، ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة الآتية:

١- ما عمق دلالة اسم الرب في بدايات التنزيل؟

٢- ما سمة الرسالة الربانية وسمات حامِلَيها؟

٣- كيف كان الإعداد السلوكي والنفسي لحامل الرسالة؟

٤- ما الصفات الأولى التي وصف بها الإنسان؟

٥- ما أقبح المثالب الأخلاقية، والظواهر السلوكية الاجتماعية للمكذبين؟

أهداف البحث:

١- الوقوف على دلالة اسم الرب في بدايات التنزيل، والبعد الدعوي في اختيار هذا اللفظ.

٢- التنويه بالقرآن وعظيم شأنه، ببيان سمته وسمات حامِلَيه.

٣- دراسة التوجيهات والوصايا الربانية التي تختص بإعداد حامل الرسالة، مع ذكر البعد الدعوي فيها.

٤- توضيح أبرز ما وصف به الإنسان في بدايات التنزيل.

٥- معرفة أهم الظواهر الأخلاقية والسلوكية الاجتماعية للمكذبين.

٦- الوقوف على الخطوط البارزة التي ركز عليها القرآن في بدايات التنزيل.

٧- الاستفادة من معطيات التفسير في علاج المشكلات الدعوية في الواقع المعاصر.

أهمية البحث:

١- حاجة الأمة الإسلامية إلى معرفة التوجيهات والوصايا الرّبانية في أوائل أيام التنزيل، ومعرفة البعد الدعوي فيها.

٢- الإفادة من معرفة مراحل التنزيل في بيان تسلسل البناء المعرفي لأمور الدين، وحركة المعالجات التربوية الربانية.

٣- إظهار مدى العناية الربانية بحامل الرسالة.

٤- الإرشاد والتوجيه إلى كيفية التعامل مع المكذبين إن كان حامل الرسالة في مرحلة مماثلة للعهد المكي.

٥- بث الأمل ببيان أن ما وعد به النبي ﷺ هو وعد لأمته ما لم يكن من خصائصه ﷺ.

٦- الوقوف على الصفات الأولى التي وُصِف بها الإنسان في بدايات التنزيل، وكيف عالجها القرآن الكريم.

حدود البحث:

تفسير الميداني "معارج التفكر ودقائق التدبر" المجلد الأول من خلال السور الآتية: [العلق، المدثر، المزمل، القلم، الفاتحة، المسد، التكوير، الأعلى، الليل، الفجر، الضحى، الشرح، العصر، العاديات، الكوثر، التكاثر، الماعون، الكافرون].

يجدر التنويه أن البحث لا يتطرق لمناقشة الميداني في منهجه الذي بنى عليه تفسيره، إنما يتطرق لبيان حركة البناء المعرفي لأمور الدين، وبيان البعد الدعوي من التوجيهات الرَّبانيّة في أوائل التنزيل، وأثرها في الإعداد السلوكي والنفسي لحامل الرِّسالة.

منهج البحث:

لقد اقتضت الدراسة اتباع التالي:

- اتباع المنهج الاستقرائي وذلك من خلال استقراء آيات السور حسب ترتيب نزولها، على نحو ما التزم به الميداني.
- اتباع المنهج التحليلي القائم على تحليل كلام الميداني، والبحث في بيان تسلسل البناء المعرفي.
- اتباع المنهج الوصفي القائم على وصف الظاهرة وتبيين معالمها.
- النظر في كلام الميداني، وكلام من سبقه من المفسرين، لبيان ما تطرق إليه، وما لم يتطرق إليه، في مواضع تخدم بعض معاني البحث.
- أتبعت كلام الميداني في البعد الدعوي بكلام أهل التفسير من المفسرين بالمأثور أو المفسرين بالرأي، مع عزو الأقوال إلى قائليها.
- إيضاح المفردات القرآنية التي تحتاج إلى إيضاح، مع ذكر أوجه الاختلاف في القراءات القرآنية لإظهار التكامل البياني في المعنى على نحو ما التزم به الميداني.

الدراسات السابقة:

١- **عبد الرحمن حبنكة الميداني ودوره في التوجيه الإسلامي للفكر والتربية**، بحث محكم، إعداد: نسرين عطية الزهراني، مجلة البحث العلمي في التربية، العدد الثامن عشر، سنة ٢٠١٧ م، ج٣، ص٣١٥-٣٣٦.

اشتمل البحث على خمسة مطالب، جاء المطلب الأول لعرض السيرة الذاتية للميداني والتعليق عليها، وتلتقي هذه الرسالة مع البحث السابق بالتعريف بالميداني، وتختلف عنها في دراسة

بيان تسلسل البناء المعرفي لأمور الدين وحركة المعالجات الربانية الشاملة، وبيان الخطوط البارزة في بدايات التنزيل.

وهناك دراسات أخرى لم تتوصل الباحثة إليها- على حسب بحثها.

٢- **المناسبات عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه معارج التفكر ودقائق التدبر**، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية، إعداد الباحثة آلاء إسماعيل إبراهيم عبد الرحمن، إشراف أستاذ دكتور بشير محمد محمود، جامعة أسيوط، (ت١٤٢٥هـ) الموافق (٢٠٠٤).

٣- **منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير**، إعداد: نادي حسن علي صبرا، إشراف الدكتور المجالي، محمد خازر، بحث مقدم لنيل رسالة الماجستير، الجامعة الأردنية (ت ٢٠٠٦).

٤- آراء **الشيخ عبد الرحمن الميداني العقدية (عرض ونقد)**، رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى إعداد: آمنة بنت عامر البشري، إشراف الدكتور محمد عبد الحافظ عبده، جامعة أم القرى، تاريخ التسجيل (١٤٣١/٣/٩هـ) الموافق (٢٠١٠/٣/٣م).

٥- **عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني وجهوده في الدفاع عن الإسلام**، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، للباحثة: أمل العتيبي تحت إشراف الدكتورة أحلام محمد سعيد باحمدان، جامعة أم القرى، مسجلة بتاريخ (١٤٢٩/٨/١٢هـ) الموافق (٢٠٠٨/٨/١٨م).

٦- **الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وآراؤه في العقيدة الإسلامية عرض ونقد**، إعداد مازن عطية إبراهيم مسالمة، إشراف الأستاذ الدكتور حافظ محمد حيدر

الجعبري، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، جامعة الخليل [فلسطين] كلية الدراسات الإسلامية، (٢٠١٣م).

٧- **الجوانب التربوية في تفسير الشيخ الميداني**، رسالة ماجستير تقدم بها الطالب علي محمود عبد علي السعدي، لنيل درجة الماجستير، تحت إشراف أ.د محمد طالب مدلول الحسيني، جامعة بابل، العراق، (٢٠١٣م)، رقم التسجيل (٥٨٨٣٧٧).

هيكل البحث:

يشتمل البحث على مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول تحت كل فصل عدة مباحث يتفرع عنها عدد من المطالب، ثم خاتمة فيها أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد: التعريف بالميداني وتفسيره.

المبحث الأول: التعريف بالميداني.

المبحث الثاني: التعريف بتفسيره.

الفصل الأول: الرُّبوبيَّة وسِمة الرِّسالة الرَّبانِيَّة وسمات حاملها

المبحث الأول: الرُّبوبيَّة وسِمة الرسالة الرَّبانِيَّة.

المبحث الثاني: سِمات حامل الرسالة الرَّبانِيَّة.

الفصل الثاني: الإعداد السلوكي لحامل الرسالة.

المبحث الأول: علاقة حامل الرسالة بربه.

المبحث الثاني: علاقة حامل الرسالة بالمكذبين.

الفصل الثالث: الإعداد النفسي لحامل الرسالة.

المبحث الأول: الدِّفاع الرّباني عن حامل الرسالة.

المبحث الثاني: الوعود الرّبانية لحامل الرسالة.

المبحث الثالث: الامتنان الرّباني على حامل الرسالة.

الفصل الرابع: وصف الإنسان في بدايات التنزيل والظواهر الأخلاقية، والسلوكية الاجتماعية للمكذبين.

المبحث الأول: وصف الإنسان في بدايات التنزيل.

المبحث الثاني: الظواهر الأخلاقية والسلوكية الاجتماعية للمكذبين.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

قائمة المصادر والمراجع.

تمهيد: التعريف بالميداني وتفسيره

يتناول هذا التمهيد التعريف بالميداني بدأً من مولده ونسبه ونشأته، ثم حياته العلمية والتعليمية وذلك في المبحث الأول، ويتناول التعريف بتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر) من خلال المبحث الثاني.

المبحث الأول: التعريف بالميداني.

المبحث الثاني: التعريف بتفسيره.

المبحث الأول: التعريف بالميداني

اسمه: عبد الرحمن بن حسن بن مرزوق بن عرابي بن غُنَيم[١].

ولادته: ولد في عام ١٣٤٥هـ الموافق لعام (١٩٢٧م)[٢]، في أثناء غياب والده الذي لجأ إلى الأردن بعد خروجه مع الثائرين ضد الفرنسه[٣].

لقب عائلته: (حبنَّكة)، وهي ترجع في نسبها إلى عرب بني خالد، وهي قبيلة معروفة من قبائل العرب، ولها منازل في بادية (حماة) من أرض الشام.

ولعل لفظ (حبنَّكة) تحريف من تحريفات عرب البادية للفظ (حبَكَهُ) أو (حَبَّكَه) بمعنى (وثَّقَهُ) يقال لغة: (حبَّكَ العُقدةَ تحبيكاً) أي: وثَّقها، وقيل إن أصل العبارة هو: (حبُّ اللُّقا) أي: حبُّ اللقاء في الحرب[٤].

لقب الميداني: بدأت شهرة هذا اللقب منذ التحق والده بمدرسة ابتدائية، إذ سأله شيخها عن اسمه؟ فقال له: حسن حبنَّكة، فصعُب عليه أن ينطق بلفظ (حبنَّكة) فسأله أين تسكن؟ قال: في حي الميدان. فقال له: أنت حسن الميداني؛ فعرف منذ ذلك الحين بهذه الشهرة، ولصقت به لقبًا، ثم دوّنت رسميًا في دائرة النفوس، فصار لقب العائلة (حبنَّكة الشهير بالميداني)[٥].

---

[١] الجراح: عائدة راغب، **عبد الرحمن حبنَّكة الميداني العالم المفكر المفسر زوجي كما عرفته**، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ١١.

[٢] يُنظر: المرجع السابق.

[٣] يُنظر: الميداني: **عبدالرحمن حبنّكة، الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع**، (د.م: مؤلف الكتاب، د.ط، د.ت)، ص ٥٠.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٣٥.

[٥] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٣٥-٣٦.

وحي الميدان من أحياء دمشق الشام العريقة، المعروف ببطولات رجاله واحتفائهم بالضيف، ومحافظتهم على المواريث الدينية والخلقية الكريمة[١].

التعريف بالنسب الطيب:

- **جده لأبيه**

الحاج مرزوق بن عرابي بن غنيم نشأ نشأة استقامة وصلاح وتقوى وبرٍّ بوالديه، خاصة أمه التي أدركت عنده الكبر فكان خادمها البار من بين سائر أبنائها، وكان رقيق القلب –كلما مرَّ موقف يثير عاطفة دينية فاضت دموعه بغزارة–، محبًا للعلماء، صاحب فطنة فطرية، وهمة عليّة في عبادته لربه، وكان يقرأ ويكتب مع ندرة المتعلمين في زمانه[٢]، وكان ذا رغبة صادقة أن يكون ولده (حسن) عالمًا، فكان معينًا له على ذلك، إذ تكفل به وبأسرته[٣]، وهو من ساهم بفكره وجسده وكل ما يستطيع من حول وقوة لإقامة الغرف اللازمة في جامع منجك لطلبة ولده حسن – الذي غدا عالمًا ربانيًا جليلًا يفد عليه ويأتيه طلاب من أنحاء شتى حتى غدا طلابه علماء كبار– حتى اكتمل بناء سطح الرواقين الغربي والشمالي في الجامع[٤].

- **والده**

حسن حبنَّكة الشهير بالميداني، نشأ محبًا للعلم؛ فتعلم في الكُتَّاب القراءة والكتابة والقرآن، ثم أرسله والده إلى مدرسة تقع ضمن حدود أسوار مدينة دمشق القديمة وأنهى المرحلة الابتدائية

---

[١] يُنظر: الميداني، **الوالد الداعية**، ص ٣١.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٠.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٨.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٩٢– ٩٣– ٩٤.

فيها[١]، ولم يكتف بهذا القدر من العلم كما قنع سائر أقرانه، بل لازم كبار العلماء القاطنين في قلب دمشق الشام وأطرافها وأخذ عنهم النحو والصرف وسائر علوم اللغة، والفقه وأصوله، وتجويد القرآن وضبطه، والمنطق والفلسفة، وغيرها من العلوم[٢]، واتجهت همته للأخذ والعطاء في آن واحد، فكان معلمًا ومتعلمًا[٣].

لم يهتم بتأليف الكتب؛ لأن همه الأكبر كان في تأليف الرجال[٤]، فهو يرى أن تربية طالب علم حتى يكون عالمًا فقيهًا في الدين، أنفع للإسلام والمسلمين من تجميع عشرات الآلاف على التحمس للإسلام، دون أن يكون لديهم علم يصونهم عن التحول في أفكارهم ونفوسهم وعواطفهم[٥]، نجم عن حلقاته العلمية في (جامع منجك) أفواج متلاحقة، "ولما كثر المنقطعون للعلم، الملازمون للجامع نهارًا وليلًا، ألحت الضرورة على الوالد الإمام أن يتخذ أسبابًا كافية لسكناهم وكفالتهم طعامًا وشرابًا وملبسًا."[٦] فتطوع عدد من التجار وأهل اليسار وكونوا من أنفسهم لجنة لجمع أموال الزكاة والصدقات للإنفاق على طلاب الشيخ الذين تفرغوا لطلب العلم[٧]، وتم بناء المدرسة الداخلية (معهد التوجيه الإسلامي) في أروقة جامع منجك، ومع تزايد عدد الطلاب رأى أن الحاجة ماسة لإنشاء مدرسة كبيرة تتوافر فيها صفات الأبنية المدرسية بكل مرافقها فاتُخذت التدبيرات اللازمة لذلك، وتم البناء واكتمل[٨]، وجعل الإمام حسن المبنى القديم الذي في أروقة

---

[١] يُنظر: الميداني، **الوالد الداعية**، ص ٤٥.
[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٧- ٥١- ٥٢- ٥٣- ٥٤.
[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٩.
[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٧٠.
[٥] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٨٦.
[٦] المرجع السابق، ص ٩٢.
[٧] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٩٣.
[٨] يُنظر: الميداني، **الوالد الداعية**، ص ١٠٦- ١٠٧.

جامع منجك دارًا لتحفيظ القرآن وتجويده، وتفسيره، وتعليم علومه، مع بعض العلوم العربية اللازمة لذلك[١].

بلغ عدد طلاب المعهد القادرين على الأخذ والعطاء العلمي في آن واحد قبل مصادرته من قبل حكومة البعث قرابة خمس مئة طالب[٢]، وقد تخرّج من هذا المعهد نخبة من العلماء على سبيل المثال الشيخ (صادق حبنكة) شقيق (الشيخ حسن) والحامل للواء دعوته في دمشق بعد وفاته، والشيخ (حسين خطاب) شيخ قراء دمشق، والدكتور (محمد سعيد رمضان البوطي) العالم والكاتب والأديب، والدكتور (مصطفى البُغا) الأستاذ في كلية الشريعة في جامعة دمشق والعامل في ميدان التحقيق والتأليف[٣].

وفي عام ١٩٧٤ أصبح عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي[٤].

وقد عُرف بكفاحه الإسلامي، ومواقفه الشجاعة الحكيمة ومناصحته للحكام وأصحاب السلطان وعزته بالله عز وجل[٥]، وقد ترجم له ابنه عبد الرحمن في كتاب من ٤٠٠ صفحة سماه "الوالد الدَّاعية المُربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مُجاهد حكيم شجاع"، وهو بحق جدير بالقراءة.

---

[١] يُنظر: الميداني، **الوالد الداعية**، ص ١٠٦– ١٠٨.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٠٤.

[٣] يُنظر: الجراح، **زوجي كما عرفته**، ص ١٧. وقد ذكر الميداني في كتاب **الوالد الداعية** أعيان الذين ثبتوا مع الشيخ حتى آخر الطريق وهم خمس دفعات وكان ذلك من ص١٠٩ إلى ص ١٣٦.

[٤] يُنظر: الميداني، **الوالد الداعية**، ص ٢٠٦.

[٥] يُنظر: **المرجع السابق**، من ص ٢١١ إلى ص ٣١٠.

والدته

السيدة (نظمية ابنة إبراهيم) تعلمت من زوجها مبادئ القراءة والكتابة، وكانت لا تمل من تقديم الخدمات لكل من يتلقى العلم على يد زوجها، ولم يقتصر الأمر على الطعام والشراب، بل تعداهما إلى الكسوة فكانت تخيط الجبب في ليالي رمضان الأخيرة، والشيخ عبد الرحمن يساعد أمه – باعتباره أكبر أولادها– ليلبسها الطلاب صبيحة العيد.

لُقبت بـ(ست الشام وأم طلبة العلم) ويكفيها فضلًا أن أنجبت وربّت وقدّمت للعالم الإسلامي أمثال ولدها عبد الرحمن[١].

نشأته

نشأ عبد الرحمن الميداني في بيت محب للعلم والدعوة وكان لوالده فضل في تربيته وتعليمه، وانتظامه في المدرسة الشرعية الداخلية التي أسسها وربى طلابها على التدرج في الطلب من أصول العلوم وجذورها وصولًا إلى أعلى مستوياتها، إضافة إلى إسناد مهام التعلم والتعليم[٢].

قال الميداني: "ولما صار الرعيل الأول مستعدين لأن يتولوا تعليم الوافدين الجدد مسائل العلم الأولى، ويشرحوا لهم بعض الرسائل الصغرى، جعلهم الوالد الإمام أساتذة لطلاب الحلقات الجديدة"[٣]. وقال: "أذكر أني تتلمذت بهذه الطريقة على الشيخ حسين خطاب، فقرأت عليه في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، في وقت حر غير مشغول ببرنامج درس نظامي مقرر، وتتلمذت أيضًا على عمي الشيخ صادق حبنكة الميداني فقرأت أنا وبعض أقراني عليه في شرح

---

[١] يُنظر: الجراح، **زوجي كما عرفته**، ص ١٢-١٣.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٥- ١٦.

[٣] الميداني، **الوالد الداعية**، ص ٩٥.

الأشموني على ألفية ابن مالك تنكيسًا من آخر الكتاب، لأن أواخر أبواب الكتب قلما يصل إليها الدارسون"[١].

تعلَّم الخطابة أمام الجماهير، فكان الإمام حسن في بداية الأمر يكتب الخطب لطلابه أو يمليها عليهم ثم يوجههم لإلقائها في المساجد، إلى أن أصبح لديهم القدرة على الخطب الارتجالية دون سابق تحضير، الأمر الذي جعل منهم رجال دعوة متمكنين، وأصحاب خلفية علمية تربوية رفيعة المستوى، وقد ذكر الميداني أن والده كتب له خطبة محبَّرة وهو في الرابعة عشرة من عمره وكلفه أن يخطب بها في الناس ويصلي بهم صلاة العيد في مكانه بجامع منجك، وكانت هذه الخطبة من أوائل الخطب المنبرية ولا سيما في عيد الأضحى[٢].

مسيرته التعليمية[٣]:

تخرج من معهد التوجيه الإسلامي عام (١٣٦٧هـ)، وأُسند إليه تدريس مواد مختلفة في الفقه والتوحيد والأصول والمنطق والبلاغة، وغيرها من العلوم الشرعية والعربية والعقلية التي كان قد تمرس بها في معهد والده طالبًا وأستاذًا حتى انتسب في عام (١٣٧٠هـ) إلى كلية الشريعة في الأزهر الشريف، وحاز على الشهادة العالية (ليسانس في الشريعة)، ثم حاز على الشهادة العالمية مع إجازة في التدريس، وهي تعادل (ماجستير في التربية وعلم النفس)، وبعد تخرُّجه من الأزهر الشريف صار أستاذًا في ثانويات دمشق الشرعية والعامَّة، مع قيامه بالعمل الإداري في (مديرية التعليم الشرعي) التابعة لوزارة الأوقاف وكان في إدارته حكيمًا رشيدًا، يعمل بهمة وصمت، ومن

---

[١] الميداني، **الوالد الداعية**، ص ٩٨. الشيخ صادق وحسين خطاب من أعيان الدفعة الأولى.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٤٢- ١٤٣.

[٣] يُنظر: الجراح، **زوجي كما عرفته**، ص ١٨- ١٩- ٢٠.

أهم ما أنجزه في إبَّان إدارته: تأسيس عدد من المدارس الشرعية في بعض المحافظات السورية، مع تأسيس ثانويتين شرعيتين للإناث في دمشق وحلب لأول مرة.

وفي عام (١٣٨٧هـ) انتقل إلى الرياض وعمل أستاذًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمدة سنتين، ثم انتقل عمله إلى مكة المكرمة، فعمل أستاذًا في جامعة أم القرى زهاء ثلاثين عامًا.

ولما بلغ عمره سبعين عامًا، قضى نظام السن إعفاءه من العمل الأكاديمي في الجامعة، فاتجه بما يملك من صحة ووقت وجهد لتدبر كتاب الله، وفق المنهج الذي هداه الله إليه في كتابه (قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عز وجل).

العلم والدعوة جنبًا إلى جنب:

يعد العلم غذاء روحه فهو لا يُرى إلا قارئاً أو كاتبًا، متعلمًا أو معلمًا، متحدثًا أو مناقشًا. الأمر الذي دفعه نحو مطالعات كثيرة ومتنوعة، زوّدته بثروة علمية غزيرة، فهو مدرسة خاصة قائمة بذاتها في علمه ومنهاجه تأليفًا ومنحى، ابتكارًا واستنباطًا، وتحليلًا وربطًا[١].

وساعدته خلفيَّته الشرعية بالإضافة إلى تمكنه من العلوم العقلية والفقهية واللغوية والإنسانية على جدال الملحدين وكشف أباطيلهم والتصدي لهم[٢]، قال الميداني: "وقد وُفِّقت للمطاردة في مضمار العلم والفكر بعد أن وجدت نفسي مُبَطِّئاً في مضمار الفروسية، إنها هباتٌ ربَّانية، ولكل إنسان ما يصلح له"[٣].

---

[١] يُنظر: الجراح، **زوجي كما عرفته**، ص ٢١.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢٢.

[٣] الميداني، **الوالد الداعية**، ص ١٥٠.

أما الدعوة فكانت حياته كلها تدور في فلك خدمة الدين والدعوة إليه، فهو لا يفتر عن الكتابة، يبذُلُ من كُتُبِه وماله قدر استطاعته لطلاب العلم، ويرى أنَّ على العلماء والدعاة أن يكثفوا الجهود لتأسيس مبادئ الإسلام وتعميق جذورها في نفوس الأجيال الإسلامية، وحماية الأمة من وافدات الغزو الفكري، وأن يضعوا خطة مضادة لخطة الأعداء، قائمة على غزوهم بالأفكار والمبادئ الإسلامية[١].

مشاركاته الدعوية:

١. المشاركة في الكثير من المؤتمرات مثل [مؤتمر التعليم الإسلامي]، و[مؤتمر الاقتصاد الإسلامي]، وكانا قد عُقدا في مكة المكرمة، و[مؤتمر الأدب الإسلامي] الذي عقد في لكنهؤ الهند، و[مؤتمر الدعوة والدعاة] الذي عقد في المدينة المنورة.

٢. إلقاء المحاضرات العامة، والأمسيات، والندوات العلمية، ضمن الأنشطة الثقافية داخل جامعة أم القرى وخارجها.

٣. إسهامات تلفازيه وأحاديث إذاعية يومية أو أسبوعية لما يزيد على ٣٠عاماً[٢]، ومن البرامج الأسبوعية برنامج حول تدبر كتاب الله عز وجل وفق ترتيب نزول السور استمر أكثر من خمسة عشر عاماً[٣].

٤. لما بلغ من عمره المبارك سبعين عامًا اختير عضوًا في [المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي] في مكة المكرمة، وعضوًا في [مجلس هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية][٤].

---

[١] يُنظر: الجراح، **زوجي كما عرفته**، ص ٢٣.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢٢- ٢٣.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٦.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٩.

أهم مبادئه:

مبدأ التعامل مع الله: كان الاهتمام الأول المسيطر على حياة الميداني هو العقيدة، وذلك لقناعته التَّامَّة بأن أي خلل أو انحراف في سلوك الناس مرجعه إلى تعطيل الدافع الإيماني تعطيلًا تامًّا، أو ضعفه في جُذُور نفوسهم؛ لذا كان عميق الصلة بالله، شديد الافتقار والإخلاص إليه، هذا ما جعله يُسيِّر حياته كلها وفق قنوات إيمانيَّة إسلاميَّة، وينسب الفضل في كل إبداع أو عمل صالح أو توفيق لفتح الله ومدده، مقرًا أنَّ الله لو أراد أن يمنع عنه مدده وفتحه وتوفيقه لما تمكن من تقديم أيّ جزء يسير مما فتح الله به عليه، ويعد نفسه كمثل حفرة في الأرض ينزل عليها غيث السماء، فما تجمع فيها من صفاء فهو من عطاء الله، وما فيها من كدر فهو من حُفرته لذلك فهو يشعر بحاجته الدائمة، وافتقاره المستمر إلى عطاء الله وعونه، ويُلحُّ في الطلب بألا يقطع الله عنه الفتح والمدد[1].

مبدأ التعامل مع النفس: المبدأ الذي يمارسه بنفسه على نفسه يتمثل في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ(٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨)﴾ [الشرح] بدا ذلك واضحًا جليًا حتى في أيام ضعفه ومرضه، قال الميداني: "بمعونةٍ من ربي الجليل الوهّاب،... أتمَّ ربي لي بأسبابه وألطافه الخفيّة هذا المجلد السابع، وأنا على سرير المرض، أُعاني من آثار عملية جراحية كبيرة وخطيرة ومُوجعة مع شيخوختي، وكبر سني، وضعف جسمي، لقد كنت ألتقط الساعات التي أستطيع أن أعمل فيها التقاطًا من الزمن الذي أكون فيه طريحًا على فراشي أو على البساط، في توجُّع أو

---

[1] يُنظر: الجراح، **زوجي كما عرفته**، ص ٣٠- ٣١.

سُبات، وكنت ألجأ إلى الله بالدعاء أن يعينني ويمدّني بمدده، فأجد نفسي معانًا إعانةً عجيبة، أعمل في الساعة ما يعمل الصحيح السليم في الساعات ذوات العدد"[١].

وبهذا المبدأ دفع من حوله إلى حسن الاستفادة من أوقاتهم وعدم الاستهانة بأي فرصة زمنية مارّة إلا بصيدها واستثمارها بعلم أو عمل نافع لما فيه خير لهم ولأمتهم[٢].

مبدأ التعامل مع الناس: كان يتعامل مع الناس من خلال مبدأين:

المبدأ الأول: "أن يتعامل مع الله من خلال البشر" وهذا المبدأ جعله يُوحِّد جهة الطلب والهدف، وكله قناعة بأن من عمل لوجه الله كفاه الله الوجوه كُلها، وجعله يأخذ بمفهوم الإياس مما في أيدي الناس، بل جعله يتحمل أذاهم بحلمه ورشده، إذ يتاجر مع ربه، ويشكر الله أنه ليس على شاكلة المسيء منهم مُردّدًا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٨٤][٣].

المبدأ الثاني: "التغاضي والتسامح" عملًا بقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢][٤] ولا يخفى ما لهذين المبدئين من أمن نفسي، وراحة فكر، وطمأنينة قلب.

---

[١] الميداني: عبد الرحمن حسن حبنّكة، معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل"، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م) ج٧، ص ٦٩١.

[٢] يُنظر: الجراح، **زوجي كما عرفته**، ص ٣٩.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٣٢.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٣٨.

مبدأ التعامل مع كل من هم تحت دائرته:

كان يطبق مبدأ الرفق واللين في تربيته، ويأخذ بالأيسر ما لم يكن إثمًا[١]، طمعًا في مضمون الدعاء الذي روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «اللهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ»[٢] ويردد دائمًا "كن حازما ولا تكن صارما، فالحزم بمثابة شد الحزام على بطن الفرس حتى لا يسقط السرج، ولا يسقط ممتطيه. أما الصرم ففيه قطع ما بين المربي وبين من يقوم بتربيته، والقطع أمر لا يليق بالمربي الرشيد أن يصل إليه. وشعرة معاوية ينبغي أن تبقى بينهما مهما حدث"[٣].

ومن صور الرفق في التعليم طرح الأسئلة لتحريك الأذهان وإيقاظ الذاكرة، وقد تكون الإجابة الصحيحة عبارة عن جزئيات إجابات من يعلمهم، فيلملم مفرداتها ليصوغها صياغة تامة، وهو يشعرهم بأنهم قد اكتشفوها[٤].

زهده في الدنيا: يقول تلميذه مجد مكي: "وكان من أشد الناس زُهدًا في المناصب، وقد عرض عليه أن يكون مفتيًا للجمهورية السورية، وأغري بهذا المنصب، ففرَّ منه واضطر أن يقيم بعيدًا عن موطنه خمسة وعشرين عامًا، لم يزره خلال هذه المدة الطويلة إلا في الأشهر القليلة التي عاد فيها إلى دمشق قبيل وفاته. وسمعته يقول: لقد حاول بعضهم إلزامي باستلام منصب المفتي العام، لكنني فررت منه، وأكرمني الله بالإقامة بمكة المكرمة، والتفرغ لكتابة التفسير، وهذا

---

[١] يُنظر: الجراح، **زوجي عما عرفته**، ص ٣٤.

[٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ج٣، ص ١٤٥٨، رقم الحديث (١٨٢٨).

[٣] الجراح، **زوجي عما عرفته**، ص ٣٥.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٣٨.

من فضل الله عليَّ، ولو قبلت ذلك المنصب لكنت مطية ذلولًا، وعبدًا مطواعًا ولركبت سيارة فخمة سوداء تنتهي بي إلى غضب الله تعالى، فآثرت الباقي على الفاني، والعلم النافع على الزغل والزيف.

كما كان يبتعد عن الشهرة والأضواء، ويكره النفاق والتملق، وهو خبير بدخائل المنافقين، ومسالك أعداء الإسلام ومن مظاهر نفرته عن الشهرة وحب العاجلة، أنه لم يتطلع إلى جائزة تقديرية من أي جهة علمية، وهو جدير بها وأهل لها، بما قدم من دراسات قرآنية مبتكرة، وكتب فكرية عميقة... ولا يرضى أن ترشحه بعض الجهات لهذه الجوائز، ويعد ذلك منقصًا للأمر الذي ادخره الله سبحانه لعباده الصادقين المخلصين"[١].

وأشارت زوجته إلى ابتعاده قدر المستطاع عن الشهرة والأضواء، وهو يردد دائما ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، وبأنه لولا أسرته لكفته غرفة إلى جانب مسجد فيها مكتبته وأدوات كتابته، فحسبه ذلك من متاع الحياة الدنيا[٢].

إنتاجه الفكري والعلمي[٣]:

أولاً: سلسلة في طريق الإسلام، منها:

١- العقيدةُ الإسلاميَّة وأُسُسُها.

٢- الأخلاقُ الإسلاميَّة وأُسُسُها.

---

[١] مكي، مقال بعنوان: "**الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني – من أعلام المفسرين في العصر الحاضر**"، (رابطة العلماء السُوريين، ٢٠١٣/٥/٥)، https://islamsyria.com/site/show_cvs/14.

[٢] يُنظر: الجراح، **زوجي كما عرفته**، ص ٤٠.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٣- ٥٤- ٥٥- ٥٦، استعرضت الجراح مؤلفات الميداني، ثم عرفت بكل مؤلف تعريفًا موجزًا.

٣- فقهُ الدَّعوة إلى الله، وفقهُ النُّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانيًا: دراساتٌ قرآنيَّة، منها:

١- قواعدُ التدبُّر الأمثَل لكتاب الله عزَّ وجلَّ.

٢- مَعارجُ التفكُّر ودقائقُ التدبُّر.

٣- أمثالُ القرآن وصُوَرٌ من أدبه الرَّفيع.

ثالثاً: سلسلةُ أعداء الإسلام، منها:

١- مَكايدُ يهوديَّةٌ عبرَ التاريخ.

٢- صراعٌ مع الملاحِدَة حتى العَظْم.

٣- أجنحَةُ المكر الثلاثةُ وخَوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار).

رابعًا: سلسلةُ من أدب الدَّعوة الإسلاميَّة، منها:

١- مبادئُ في الأدب والدَّعوة.

٢- ديوان (أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة)، شعر.

٣- ديوانُ (آمَنتُ بالله) شعر.

خامسًا: كتبٌ متنوِّعَة، منها:

١- ضَوابطُ المعرفة وأصولُ الاستدلال والمناظَرة.

٢- بَصائرُ للمسلم المعاصِر.

وفاته:

فاضت روحه إلى مولاها في أولى ساعات صباح الأربعاء ٢٥ من جُمادى الآخرة ١٤٢٥هـ الموافق ٨/١١/ ٢٠٠٤م[١]، وصُلِّي عليه في جامع الأمير مَنجَك، ثم دُفن بمقبرة الجورة في حي الميدان[٢].

المبحث الثاني: التعريف بتفسيره

أطلق الميداني على كتابه اسم **معارج التفكر ودقائق التدبر** وهو تفسير تدبُّري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتابه **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل**، وقد اعتمد في ترتيب نزول السور على ما ذكره المختصون بعلوم القرآن الكريم، وقال: "هو في معظمه حق، أخذًا من تسلسل البناء المعرفي التكاملي، وتسلسل التكامل التربوي"[٣]، وهو يقع في خمسة عشر مجلدًا.

أنهى الميداني تفسير السور المكية، وأدركته المنية بعد بدايته في تفسير سورة البقرة.

دوافع الميداني لانتهاج هذه الطريقة:

١- التدبر الطويل لكتاب الله، الذي كان نتاجه استنباط أربعين قاعدة دونها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل).

قال الميداني: "قد فتح الله عز وجل علي خلال تدبري الطويل لكتابه المجيد، باستخراج أربعين قاعدة من قواعد التدبر الأمثل لكتابه، قابلة للزيادة عليها، وهذه القواعد تقدم للمتدبرين أصول

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ج١٥، ص ٤٢٤.

[٢] يُنظر: مكي: مقال بعنوان: "الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني – من أعلام المفسرين في العصر الحاضر".

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦.

التفسير الأقوم للقرآن،... مع الاعتراف بأن التزامها التزامًا دقيقًا وشاملًا عسيرٌ جدًا، بل قد يكون بالنسبة إلى متدبر واحد متعذرًا"[١].

٢- يرى أنَّ هذا المنهج يحقق تسلسل البناء المعرفي، ويكشف عن أمور جليلة تتعلق بحركة البناء المعرفي لأمور الدين وحركة المعالجات التربوية الربانية الشاملة للرسول ﷺ وللذين آمنوا به، والذين لم يستجيبوا للدعوة[٢].

وقد قال في القاعدة التاسعة من كتابه قواعد التدبر حول تتبع مراحل التنزيل: "على متدبر كتاب الله أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيل القرآن، فيما يتعلق بنصوص التكاليف والأحكام، ووسائل التربية، وطرائق الإصلاح، وأساليب الدعوة، وألوان الجهاد. أما النصوص الخبرية المبينة للعقائد وأصول الدين الكبرى فتُفهم متكاملة الدلالة كأنها أنزلت في وقت واحد؛ لأن مضامينها حقائق لا تكاليف ولا مراحل تربوية"[٣].

"والبناء التربوي المتدرج ملاحظ فيه بالدرجة الاولى قمة البشر جميعًا وهو رسول الله ﷺ ثم على وفقه يكون تدرج البناء التربوي بالنسبة إلى غيره، مع مراعاة حالة استعداد كل منهم للمدة التي يحتاجها حتى ينتقل من مرحلة إلى التي تليها"[٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦.

[٣] الميداني: عبد الرحمن حبنكة، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل تأمّلات**، (دمشق، دار القلم، ط٥، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م)، ص ١٥١.

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٤٠.

٣- يرى الميداني أنَّ مراعاة مراحل التنزيل تحمي من أخطاء تفسيرية قد يقع بها بعض المفسرين، وتجلب نفعًا كبيرًا للمتدبرين، فهو يهديهم إلى مفاهيم جليلة تتصل بحكمة التدرج، ومعرفة الغاية من التكرير الذي اقتضاه غرض التكامل[١].

ورغم هذه الدوافع إلا أن الميداني يؤكِّد على ضرورة المحافظة على ترتيب سور القرآن، الذي أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، ويرى أن الخروج عن هذا المنهج بدعة في الدين، لكن الترتيب الذي أجمع عليه المسلمون، والذي يجب المحافظة عليه في طباعة المصحف وتلاوته التعبديَّة، لا يمنع من تدبُّر القرآن بتتبّع مراحل نزوله[٢].

طريقة الميداني في تفسيره من خلال المجلد الأول:

أولًا: يذكر بحثًا حول نزول السورة، وكل السور التي تدبرها هي السور المكية، فيذكر مكيتها، ويذكر إن كان فيها آيات مدنية.

ثانيًا: يكتب السورة كاملة، مبيناً ما فيها من فرش القراءات.

ثالثًا: يذكر ما جاء في السنة الشريفة حول السورة الكريمة.

رابعًا: يقسم السورة إلى دروس متماسكة الوحدات ضمن وحدة موضوع السورة العام، ثم يُتبع أغلب دروسها بنظرة إجمالية عامة.

---

[١] يُنظر: الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص ١٥٢-١٥٣.

[٢] يُنظر: مكي، **لمحات من كتاب معارج التفكّر ودقائق التدبُّر للعلامة عبد الرحمن حبنكة الميداني، رابطة العلماء السُّوريين**، (مركز المقاصد للدراسات والبحوث، ١٣/٨/ ٢٠١٨م)، http://maqassed.ma/article/detail/353.

خامسًا: في نهاية معظم السور يوضح ما فيها من جوانب بلاغية، فضلًا عن إدراج ملحقات تدبرية[١]، قال مجد مكي: "وبلغ مجموع هذه الملحقات التدبرية أكثر من خمسين ملحقًا، وكثير منها يمكن إفراده في كتاب مستقل"[٢].

مميزات تفسيره:

١- يجد القارئ فيه والمتدبر له سهولة الأسلوب، ووضوح العبارة، والميداني يوجه في تفسيره رسائل بشكل مباشر يخاطب فيها النفس الإنسانية، وهي أشبه ما تكون بإشارات تحذيرية لتوقظ الضمير والفكر، وتنبه النفس إن استمرت في غيّها وإعراضها، وفي أسلوبه ذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد.

٢- عنايته البالغة في إيضاح المفردات القرآنية، فهو يذكر ما ورد في أمهات المعاجم العربية بأسلوب سهل فريد ولا يورد من المعاني إلا ما هو ملائم للسياق، وملائم لقواعد الشريعة الكبرى.

٣- اهتمامه الكبير بالقراءات القرآنية، فيذكر في كل موضع ما فيه من اختلاف في القراءات، وما يترتب على هذا الاختلاف من تكامل في الأداء البياني والمعرفي.

٤- حرصه على إبراز تسلسل البناء الفكري للموضوعات، لمعرفة حركة البناء المعرفي، وحركة المعالجات التربوية الربانية الشاملة للمكلفين، وقد تتبع عدة موضوعات سيأتي ذكرها في طيات البحث.

---

[١] المقصود بالملحق قيام الميداني بجمع الآيات التي تدور في فلك موضوع واحد من القرآن، ومن ثم دراستها دراسة تكاملية.

[٢] مكي، مقال بعنوان: "لمحات من كتاب معارج التفكر ودقائق التدبر للعلامة عبد الرحمن حبنكة الميداني".

٥- يقسم السورة إلى دروس ويُظهر الترابط الشديد، والتتابع المحكم فيما بين حلقاتها من خلال طرح الأسئلة التي تجيب دروس السورة عليها إما ضمنًا أو صراحةً، قاصدًا إظهار الوحدة الموضوعية للسورة، والتسلسل الفكري لوحداتها.

٦- في ختام كل سورة يُرجع الحمد والفضل والمنَّة لله على ما منَّ عليه من فتح ومدد وتوفيق وإعانة، بلهجةٍ فيها إخبات العابد العالم الخاشع لله رب العالمين.

الفصل الأول: الرُّبوبيَّة وسِمة الرِّسالة الرَّبانِيَّة وسمات حاملها

المبحث الأول: الرُّبوبيَّة وسِمة الرسالة الرَّبانِيَّة.

المطلب الأول: اسم الرَّب ودلالته.

المطلب الثاني: سِمة الرسالة الرَّبانِيَّة.

المبحث الثاني: سِمات حامل الرسالة الرَّبانِيَّة.

المطلب الأول: سِمة محمد صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني: سِمة جبريل عليه السلام.

المبحث الأول: الرُّبوبيَّة وسِمة الرسالة الرَّبانِيَّة

من تأمَّل التوجيهات ووسائل الإعداد الربانيَّة لحامل الرسالة في أوائل التنزيل، يلمح أنها قد جاءت في معظمها مقترنة باسم (الرب) كقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣] ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر:٣] ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧] ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨] ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٨]، ويلمح أيضًا أنَّ وحي السماء الذي حمل هذه التوجيهات الربانيَّة كان أول ما تسمى به هو (الذكر).

المطلب الأول: اسم الرَّب ودلالته

الاسم: هو ما يعرف به ذات الشيء، وأصله مشتق من السُّمو بمعنى الارتفاع، وهو الذي رُفع به ذكر الْمُسَمَّى ليُعرف به، وقيل: هو مشتق من السِّمة بمعنى العلامة، فالاسم علامةٌ دالةٌ على المُسمى[1].

فأسماء الله هي الألفاظ الدَّالة على ذاته جلَّ جلاله، أو على صفاته الحسنى.

---

[1] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٩-٤٢. والماوردي، علي بن محمد، **النكت والعيون=تفسير الماوردي**، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت)، ج١، ص ٤٨. والواحدي: علي بن أحمد، **التفسير البسيط**، تحقيق: محمد الفوزان، أشرف على طباعته وإخراجه عبد العزيز آل سعود، وتركي العتيبي، (المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤٣٠ هـ)، ج١، ص ٤٣٩.

أما الرَّب فيُقال لغة: " ربَّ فلان الولد أو الصبي أو المهر يَرُبُّهُ رَبّا، كما يقال: ربَّاه يُرَبِّيه تربيةً، ورَبَّبَهُ يُرَبِّبُهُ ترببياً"[١].

وأصل الكلمة: "مصدر فعل ربَّ يرُبُّ، و(الرَّبُّ، والتربية، والترببب) مصادر لأفعال مختلفة في صيغها ومعناها واحد، وهو الإنشاء المتدرج للشيء مع تعهده حالًا فحالًا، وطورًا فطورًا، حتى إبلاغه درجه كماله[٢]، أو حتى انتهاء مدّه وجوده"[٣].

"ثم استعيرت كلمة (الرّب) من المصدرية إلى اسم الفاعل، فصارت تُطلق بمعنى (المُرَبِّي)"[٤].

فالرَّبُ: هو" المالك، الأمير، السيد المطاع، مالك الشيء أو مستحقه، المدبر، القيم، المنعم، المصلح للشيء، المنمي للشيء"[٥]، وإذا أُطلق اللفظ دون إضافة فالمقصود به الله جل جلاله[٦].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٣- ٢٩٠. ويُنظر: الجوهري: إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م)، ج١، ص١٣٠.

[٢] يُنظر: الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي (دمشق- بيروت: دار القلم- الدار الشامية، ط١، ١٤١٢هـ)، ج١، ص ٣٣٦.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٤٤، ويُنظر: ص ٤٣- ٢٩٠.

[٤] **المرجع السابق**، ص ٤٣- ٢٩٠.

[٥] **المرجع السابق**، ص ٤٣- ٢٩١. ويُنظر: ابن الأثير: المبارك بن محمد، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، (بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م)، ج٢، ص١٧٩.

[٦] يُنظر: الميداني، **المرجع السابق**، ص ٤٥. ويُنظر: ابن الأثير، **المرجع السابق**.

وجاء اللفظ القرآني في أول آية نزولًا – كما هي عند الميداني[١] – ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ للدلالة على أنه تنضوي تحته كل الأسماء والصفات الحسنى التي هي لله تبارك وتعالى، دلَّ على ذلك النكرة المضافة إلى معرفة[٢].

وبالإفادة من منهج الميداني يتبين أن أول صفة ربانية خُصت بالذكر هي صفة (الْأَكْرَمُ)، قال تعالى: في(سورة العلق/١نزول) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، ثم الرحمن الرحيم، قال تعالى: في (سورة الفاتحة/٥ نزول) ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(٣)﴾، ثم في السورة نفسها صفة الملك المالك، قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)﴾، ثم صفة الأعلى، قال تعالى في (سورة الأعلى/٨ نزول) ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ولا شك أن لهذه الأسماء والصفات (الأكرم، الرحمن الرحيم، الملك المالك، الأعلى) دلالات معينة تشير إليها، وأخرى تُبنى عليها.

معنى الرَّب في الشرع:

الرّب في دلالة ألفاظ القرآن هو المذكور في كتب اللغة، ومن أبرز دلالاته ما يدل على معنى التربية والتعهد والإصلاح، فقد شاءت حكمة الله أن يكون الخلق وفق " نظام التربية...، لا على نظام الخلق دفعة واحدة ثم تَركِ المخلوقِ يسير وفق البرنامج الموضوع له، دون إمداد ورعاية وتعهد من خالقه، بل خلق الخلق وفق نظام لا يستغني المخلوق عن خالقه طرفة عين، ولا أقل من ذلك... فلو رفع إمداده عن كونه، وإمساكه له في الوجود خلال أقصر زمن؛ لعادت الموجودات إلى أصلها وهو العدم"[٣].

---

[١] نقل ابن عطية قول الجمهور في أن أول ما نزل من الوحي هو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقال: "هذا هو الأصح". يُنظر: ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢ هـ)، ج٥، ص ٣٩٢.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٤-٤٢- ٤٤٤.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٤، ويُنظر: ص ٢٩٢- ٤٤٥.

"ولما كانت التربية الحقيقية لكل شيء في الوجود سوى الله عز وجل صفة من صفات الله عز وجل، كان سبحانه هو رب العالمين، وربَّ كل شيء"[١].

البعد الدعوي في اختيار لفظ الرّب:

أ- الاعتراف بحق الرّب الخالق على عبده المخلوق[٢]، والإذعان والإقرار بحاجته الدائمة إلى ربه في بدئه وبقائه، في دنياه وآخرته، فربوبيّته سبحانه محيطةٌ له بكل ذرة من ذراته فما دونها، ومصاحبةٌ لكل دقيقة من دقائق عمره فما دونها[٣] قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ب-تنبيه الإنسان على ما أولاه الله من التربية والإمداد والإصلاح، والذي بلغ ذروة كماله في إرسال الوحي بتوجيهات تربوية ووصايا ربانية، من شأنها أن ترقى بفكره، وتزكو بروحه، وتسمو بنفسه، شيئًا فشيئًا.

قال أبو السعود في تفسيره: "والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره ﷺ للإشعار بتبليغه عليه الصلاة والسلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحي المتواتر"[٤]. والأمة تبعٌ له في ذلك ما لم يكن الأمر من خصوصياته ﷺ.

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٤-٢٩١.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٣.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٤٤.

[٤] أبو السعود، محمد بن محمد، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت)، ج٩، ص ١٧٧. والقاسمي: محمد جمال الدين، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨ هـ)، ج٩، ص ٥٠٧.

ج- الميداني يذكر تتابع التوجيه التربوي لذكر الرب حتى نزول سورة الأعلى، فقال:

١- "في سورة العلق: بدأ التوجيه لذكر اسم الرب مقترنًا بالأمر بالقراءة فقال الله عز وجل فيها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)﴾.

٢- ثم في سورة المدثر: أنزل الله قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣)﴾ وفي هذا توجيه لتعظيم الرب وتكبيره، وذكره بعبارة: الله أكبر.

٣- ثم في سورة المزمل: أنزل الله قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(٨)﴾ وتبتل إليه: أي أخلص له العبادة والطاعة، وانقطع عن غيره، فلا تعلق قلبك ونفسك بغيره في عبادتك.

٤- ثم في سورة الفاتحة: أنزل الله قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(٣)﴾.

٥- ثم في سورة الأعلى: أنزل الله قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾؛ فجاء التوجيه هنا لذكر الله بالتسبيح، الذي يدل على تنزيه الله عما لا يليق بجلاله"[1].

ثم يُطبق الميداني منهجه في معرفة حركة التدرج والبناء المعرفي لأمور الدين، ويستدل بالترتيب السابق على ما يلي:

أولاً: "العلم هو الخطوة الأولى، والعلم عن الرب الخالق وسيلته قراءة الكتاب المنزل من لدنه، وتدوين العلم بالقلم، مع الاستعانة باسم الرب الذي خلق، إذ لا يكون العلم مصونًا عن الزلل ما لم يقترن بالاستعانة باسمه، والتبرك بالابتداء به، والرغبة بالتعرف على كمال صفاته، استدلالًا بظواهر خلقه.

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٣٧- ٤٣٨.

ثانيًا: العلم بالله يهدي إلى تعظيم الله وتكبيره، وأنه أكبر من كل كبير يمكن أن تتخيله الأفكار، ومن كل كبير في الوجود؛ لأنه هو الخالق لكل ما سواه جل جلاله.

ثالثًا: طريق الوصول إلى حقيقة العبودية لله عز وجل مداومة ذكر اسم الرب، والتبتل إليه عن كل شرك، حتى التعلق القلبي، بالأسباب التي جعلها هو سبحانه أسبابًا، وهي لا تعمل إلا بخلقه.

رابعًا: حين يصل الفكر في تصوراته لصفات الرب إلى مستوى يدرك فيه أن كل مظهر من مظاهر الكائنات يدل على صفة من صفات الرب تستحق أكبر الحمد وأعظم الثناء، وأن كل صفة يحمد بها كائن في هذا الوجود فإنما هي من خلق الله، وأثر من آثار صفاته، فلا بد أن يكون على يقين تام بأن كل الحمد وأكمل الحمد هو لله رب العالمين الرحمن الرحيم. في هذه المرحلة التربوية نزل قول الله عز وجل في سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

خامسًا: بعد التحقق بالمراحل السابقة، صار الإنسان المتدرج على وفق بنائها التربوي مستعدًا لأن تكون نفسه، ويكون قلبه، وفكره في حالة سبح ضمن آفاق تصورات صفات الرب الأعلى، وتذوق المشاعر النفسية والقلبية التي تستثيرها، أو تحدثها، أو تغذيها هذه التصورات.

وهذا السبح الفكري والنفسي والقلبي الذي لا تعترضه عقبات الكثافات المادية.. يساعد على تحققه مداومة التسبيح المشتمل على ذكر اسم الرب الأعلى"[1].

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٣٨- ٤٣٩.

و"... هذا البناء التربوي المتدرج ملاحظ فيه بالدرجة الأولى قمة البشر جميعًا وهو رسول الله ﷺ، ثم على وفقه يكون تدرج البناء التربوي بالنسبة إلى غيره، مع مراعاة حالة استعداد كل منهم للمدة التي يحتاجها؛ حتى ينتقل من مرحلة إلى التي تليها"[1].

يلمح المتأمل بالتوجيهات الرَّبانيّة في أوائل التنزيل أنها جاءت مقترنة بذكر أبرز صفات الرّب[2]

الآيات في بدايات التنزيل تشير إلى أبرز صفة في الربوبية وهي صفة الخلق وهي على النحو التالي:

- في (سورة العلق/١ نزول) جاءت التوجيهات الربانية مقترنة بدليل الخلق المطلق، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)﴾.
- وفي (سورة المدثر/٢ نزول) جاءت التوجيهات الربانية مصحوبة بتكرار لفظ الرب، قال تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣)﴾ وقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(٧)﴾ والرب: هو الخالق، المالك، المتصرف في ملك السماوات والأرض.
- وفي (سورة المزمل/٣ نزول): جاءت التوجيهات مقترنة بإعلان ربوبيته سبحانه للمشرق والمغرب، فقال عز من قائل: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(٩)﴾.
- وفي (سورة الفاتحة/٥ نزول): جاء التوجيه الرباني بإفراد الله بالعبودية والاستعانة مسبوقًا بإعلان ربوبيته للعالمين، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)﴾.

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٤٠.

[2] بالتأمل ومحاكاة منهج الميداني تبين هذا الأمر.

- وفي (سورة الأعلى/٨ نزول): جاء الأمر الرباني بالتسبيح مقرونًا بظواهر تدل الإنسان أن له ربًا خالقًا مسوّيًا مقدرًا هاديًا، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣)﴾.
- وفي (سورة الليل/٩ نزول): جاء الترغيب في بذل المال، والترهيب من إمساكه والبخل به، مقرونًا بالقسم ببعض ظواهر خلقه، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(٤)﴾.

قال الميداني: "... وأنَّ لفت النظر إلى ربوبية الرب الخالق هو المفتاح الأول الذي يفتح به باب الدين"[١].

البعد الدعوي في الدليل البارز مع أوائل التنزيل:

أ- العلم بالله والإيمان به، "ولما كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه وتعالى نزَّل أولًا ما يدل على وجوده وفرط قدرته وكمال حكمته"[٢]، وفيه دلالة على أن "حظ عقولنا وأفكارنا من الله أن نتفكر في أسمائه وصفاته، لا أن نتفكر في ذاته، ... فبيننا وبين إدراك ذاته تعالى أو شيءٍ منها حاجز العجز الكامل"[٣].

ب-الخلق يدل على التفرد بالربوبية، ومن تفرد بالربوبية تفرد بالألوهية؛ فالله هو" المالك والملك، والسيد الذي يجب أن يطاع والإله المستحق لأن يعبد دون سواه"[٤]، ومن له الخلق

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٧١.

[٢] البيضاوي: عبد الله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ)، ج٥، ص ٣٢٥.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٧، ويُنظر: ص ٤٤٤.

[٤] **المرجع السابق**، ص ٤٥.

وحده له الأمر وحده[1]، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

ج- إعلان وحدانية الله، وجاء بصفة الخلق " ليزول عنه الالتباس"[2] فهذا الوصف أدل وصف على نفي الشركاء عنه من الأرباب والصاحبة والولد، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١].

د- الخلق من أجل النعم وأعظمها، وعليه تترتب سائر النعم، وعلى رأسها نعمة إنزال الوحي. قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ(٣)﴾ [الرحمن].

تبين أن أول ما تسمى به مُنزِّل الرسالة جل جلاله هو (اسم الرب)، وتبين عمق دلالة هذا الاسم في نفوس المؤمنين به، وجاء مقترنا بأعظم صفات الربوبية، وما يتبع ذلك من إفراده سبحانه بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

---

[1] يُنظر: الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م)، ج١، ص ١٤٢.

[2] الماوردي، **النكت والعيون**، ج٦، ص ٣٠٤.

المطلب الثاني: سِمةُ الرِّسالة الرَّبانيّة

قال الطبري في مقدمة تفسيره: "إنَّ الله عز وجل سمى تنزيله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ أسماء أربعة هي: القرآن، والفرقان، والكتاب، والذكر"[١] ونحا نحوَه الماوردي[٢]، وابن عطية[٣]، والثعالبي[٤].

إلا أن الميداني لفت الأنظار إلى أنَّ أول ما تسمى به الوحي الرَّباني قبل غيره من الأسماء، هو لفظ (الذِّكْر) و(التَّذْكِرَةِ)، مستدلًا بالآيات التالية:[٥]

- في (سورة المدثر/٢ نزول): قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ **تَذْكِرَةٌ** (٥٤) **فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ**(٥٥)﴾.
- في (سورة المزمل/٣ نزول): قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ **تَذْكِرَةٌ** فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا(١٩)﴾.
- في (سورة القلم/٤ نزول): ختم الله السورة بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا **ذِكْرٌ** لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾.
- وفي (سورة التكوير/٧ نزول): قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا **ذِكْرٌ** لِلْعَالَمِينَ(٢٧)﴾.

---

[١] الطبري، **جامع البيان**، ج١، ص ٩٤.

[٢] يُنظر: الماوردي، **النكت والعيون** ج١، ص ٢٣.

[٣] يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج١، ص ٥٦.

[٤] يُنظر: الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، تحقيق: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨ هـ)، ج١، ص ١٥٠.

[٥] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٠، وقد أضفت موضع سورة التكوير، فقد أشار إليه في السورة نفسها. يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٢٩- ٤٣٢.

قال الميداني: الذكر: هو" حفظ الشيء في الذاكرة، وإجراؤه على اللسان[١]، وتذكر المحفوظ عند استدعائه، والتذكير بما كان معلومًا ثم نُسي"[٢]، وقال في موضع آخر: هو" ما يُستذكر به الشيء المطلوب تَذَكُرُه، كالرتيمة[٣]، والبطاقة التي تذكر بموعد اللقاء أو الاجتماع"[٤].

ربط الميداني بين اللفظ في أصل وضعه اللغوي وما ينبغي أن يكون عليه الأمر مع القرآن، ذلك أنه يجب أن يُحفظ فلا يُنسى، وبهذا يكون واعظًا دائمًا لحافظه في ذاكرته ينصحه ويُرشده بعد أن يتبلغه ويتفهم دلالاته[٥]، وأن يُتلى وتجري على ألسنة المؤمنين آياته؛ ليكون لهم ذكرى متجددة مع كل تلاوة،[٦] وأن يُدَون في الصحف؛ ليكون لهم بمثابة التذكرة[٧].

وقد أبان الميداني سبب وصف القرآن بأنَّه ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ ذلك؛ لأنَّ القرآن يُذكر الناس ".. بما هم مفطورون عليه، وغافلون عنه"[٨]، من الحقائق العقدية والأخلاقية والشرعية والكونية، "فحين يفهمون ما جاء به القرآن يجدونه مطابقًا لما في عقولهم من موازين، ولما في قلوبهم وضمائرهم

---

[١] يُنظر: الفراهيدي: الخليل بن أحمد، **العين**، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، (د.م، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت)، ج٥، ص ٣٤٦.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٣٠.

[٣] وجدت الباحثة هذا الكلام عند الزمخشري حيث قال: " عَقَدَ رتيمةً ليستذكر بها الحاجة. واستذكر بدراسته، طلب بها الحفظ"، الزمخشري: محمود بن عمرو بن أحمد، **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، ج١، ص ٣١٤.
والرَتيمَةُ: "خيطٌ يُشدُّ في الإصبع لتستذكر به الحاجة". الجوهري، **الصحاح**، ج٥، ص ١٩٢٧.

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٣٩.

[٥] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٣٠- ٤٣١.

[٦] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٤٦- ٤٣١.

[٧] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٣٩.

[٨] **المرجع السابق**، ص ١٤٦.

من مشاعر حق وخير وجمال؛ فيكون بالنّسبة إليهم بمثابة مذكر يذكرهم بشيءٍ غير جديد عليهم، فكأنَّهُم كانوا يعلمونه ثم نَسُوه"[١].

البعد الدعوي في لفظ (الذِّكْرِ) و (التَّذْكِرَةِ):

أ- معرفة عقدة الامتحان في دار البلاء، قال الميداني: "حقائق الدين الكبرى أمور فطر الله أفكار الناس وعقولهم وأعماق نفوسهم ووجداناتهم عليها، أما أهواؤهم وشهواتهم ورغباتهم من دنياهم فهي نزاعة إلى مخالفة مقتضياتها، وهنا تظهر عقدة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا"[٢].

ب-معرفة المطلوب من العباد تجاه بيانات القرآن من "العناية بحفظ ألفاظه، وتذكر مضامينه عند مناسباتها، للعمل به والاهتداء بما يهدي إليه"[٣].

ج- هذا اللفظ يُعد قاعدة أساسية لفهم ما سيأتي من نجوم التنزيل اللاحقة كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا(١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ(١٢٦) ﴾ [طه].

تتبع حقيقة أنَّ القرآن تذكرة كما جاءت في مراحل التنزيل[٤]:

المرحلة الأولى: (في سورة المدثر/٢ نزول) قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ(٥١)﴾ هذه المرحلة تتحدث عن المعرضين بأسلوب التعجب من إعراضهم ونفورهم؛ لأن دعوة القرآن دعوة فكرية بيانية للإقناع

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٣١.

[٢] **المرجع السابق**، ص ١٤٥- ١٤٦.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٤٣١.

[٤] لم يعرضها الميداني بهذا الشكل، نهجت طريقته، واقتبست كلامه.

بمضمونها، فهو يعرض هداياته أمام من منحهم الله المشيئة الحرّة فمن شاء أن يتفهمه ويتبع منهجه فهو مُمكن من ذلك، ومن شاء الضلالة والإعراض فله ما شاء، فلا يليق بذي فكر ورأي وعقل أن تعرض عليه تذكرة من هذا القبيل، ثم ينفر منها هذا النفور[١].

وتشبيههم بحمر الوحش ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ فيه دلالة على ضعف عقولهم وقلة إدراكهم، وسخف تصرفاتهم تجاه بيانات القرآن الذي هو بمثابة تذكرة، كذلك لتشبيه حالة نفورهم النفسي عن القرآن وعن الرسول ﷺ، بحالة النفور الحسي الذي يكون من حمر الوحش[٢]، والتي تنفر نفارًا شديدًا من ﴿قَسْوَرَةٍ﴾.

و"القسورة اسم من أسماء الأسد، وأنّه يُطلق على الرُّماة[٣]، والصَّيادين. والكلمة مأخوذة من القسر، وهو القهر على الكره بالغلبة[٤]، والمعنيان صالحان هنا معًا"[٥].

وفي اختيار لفظ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾، "إيماء إلى أن أذكياءهم يشعرون بأنّ سلطان البراهين والحجج والإقناعات والترغيبات القرآنية قادرة على قسر عقولهم ونفوسهم وقلوبهم ومحاصرتهم من كل جانب، فتوقعهم في أسر الإيمان وهو أمر لا يريدونه، إذ لا يريدون مخالفة أهوائهم وشهواتهم ونوازغ كبرهم، ورغباتهم في الفجور، فهم ينفرون منه فارين"[٦].

المرحلة الثانية: (في سورة المزمل/٣ نزول) قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا(١٩)﴾.

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٣- ١٤٦.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٤١.

[٣] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٤٣. والزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤٠٧ هـ)، ج٤، ص ٦٥٦. وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٩٨.

[٤] يُنظر: الزمخشري، **المرجع السابق**، وابن عطية، **المرجع السابق**.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٤١.

[٦] **المرجع السابق**.

تأكيد ما جاء في سورة المدثر من أن هذه الرسالة التي حملها القرآن للناس، ليست رسالة قهر ولا قسر، بل الاستجابة لها لا بد أن تكون مبنية على إرادة حرَّة واختيار تام[1].

المرحلة الثالثة: (في سورة القلم/٤نزول) قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٥٢)﴾.

نلمح أن الحديث عن المعرضين جاء بعنوان الذين كفروا " للدلالة على أنَّ تكذيبهم مقرونٌ بسترهم الأدلة البرهانية القائمة في عقولهم على أن محمدًا ﷺ رسول الله حقًا، وعلى أن القرآن كلام منزل من رب العالمين، إذ أصل الكفر في اللغة الستر"[2] ويلاحظ هنا أيضًا إضافة فكرة عموم رسالة القرآن للعالمين.

المرحلة الرابعة: (في سورة التكوير/٧نزول): قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ(٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٩)﴾ التأكيد على فكرة مشيئة الاستقامة، وفكرة عموم رسالة القرآن للعالمين.

ومما سبق تخلص الباحثة إلى أن سورة المدثر تُعلن أن القرآن تذكرة وفيه من الحجج والدلائل والبراهين ما يقسر عقولهم، ويأخذ بلباب قلوبهم، فوقع منهم ما يقع من حمر الوحش، ثم جاءت سورة المزمل تُؤكد أن القرآن مجرد تذكرة وبيان للإقناع بمضمونها لا يستدعي ما وقع منهم من نفار شديد، ومهما وقع منهم من نفار في الظاهر، فالأدلة على صدق القرآن وأنه رسالة رب العالمين تكمن في أعماق نفوسهم، وتحاصرهم من الداخل وهذا ما دلت عليه سورة القلم، فبادروا بتدنيس باطنهم بستر الأدلة والبراهين وتغطيتها بكفرهم، فأعرض القرآن عنهم وذكر إن كفر به

---

[1] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٨٦.

[2] **المرجع السابق**، ص ٢٧٢.

هؤلاء؛ فسيؤمن به قوم آخرون، فالرسالة الرَّبانية رسالة عالمية، لا تقتصر على كفر كبراء مكة ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾، وهذا المعنى الأخير جاءت سورة التكوير بتأكيده ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ مع التأكيد على فكرة المشيئة ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾، والتي ترمي بظلالها على تأكيد أول معنى في سورة المدثر، وهو أنه تذكرة لا قسر، ولا قهر، ولا إجبار، بل إيمان وإذعان لمن شاء أن يستقيم بمحض إرادته، وما وهبه الله من حرية الإرادة والاختيار.

من التأمل في كلام الميداني نخلص إلى تأكيد الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: حرية الاعتقاد

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ **تَذْكِرَةٌ**﴾ وقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ **تَذْكِرَةٌ**﴾ إنَّ "دعوة القرآن والرسول ﷺ لهم دعوة تذكرة، أي: دعوة بيان كلامي ينبغي أن يعوه ويفهموه ويضعوه في ذاكرتهم دوامًا، وليست قضية إكراه ولا جبر ولا قسر من قبل قوة متسلطة قاسرة تسوق بالقهر"[1].

قال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]. ذلك المعنى الذي خطته الشريعة السمحة في أوائل نجوم التنزيل المكي، هو نفس المعنى في نجوم التنزيل المدني، والذي يتلخص فيما أعلنه القرآن صريحًا بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

"فالإجبار والقسر لا يُدخل في الدين ولا يُخرِج منه"[2]. وهذا فيه تبرئةٌ للإسلام، ودحض لافتراء المفترين من أن الإسلام العظيم بلغ مشارق الأرض ومغاربها بحد السيف.

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٣٧.

[2] **المرجع السابق**، ص ١٨٦.

الحقيقة الثانية: عموم الرسالة المحمدية

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وقال سبحانه: ﴿وما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

أنزل الله القرآن الكريم بخصائص تجعل له تأثيرًا على كافة الناس، ولا يقتصر تأثيره على العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان طائفة من أهل مكة أو من بعدهم كفروا به، فسيؤمن به كل العقلاء المنصفين متى أدركوا إعجازه وشعروا بعظمته[1]. قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وفي اقتران الذكر بلفظ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ ما يبعث السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين، فما صنع الأعداء من مكائد، وما أثاروا من شكوك وشبهات لإطفاء نور الله، إلا عاد عليهم بالوبال والخسران، قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

الحقيقة الثالثة: أصل الإيمان بالقضاء والقدر

الآيات تدل على أصل من أصول الإيمان وهو الإيمان بالقضاء والقدر، وحرية المكلفين ذوي الإرادات الحرة[2]، فمن تكريم رسالة الإسلام للناس أنها تجعلهم أمام دعوتها لهم مُخيرين بين مشيئتين، إما التذكر والاستجابة للدعوة، أو الرفض والإعراض عنها، ولكل مشيئة نتيجة حتمية[3].

---

[1] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٧٣.

[2] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٣٨.

[3] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٤٦.

وهذه المشيئة لم تكن إلا بعد أن شاء الله أن يمنحهم إياها، "فجهاز المشيئة الحرة خلق من خلقه، والقدرات التي بها يشاؤون ويذكرون ويعملون أعمالهم كلها لا توجد إلا بخلقه، والتمكين من استعمالها يكون منه، وبإذنه"[1].

واقتران الذكر بالمشيئة فيه دليل على كمال عدل الله تعالى، فقد خلق الله عز وجل كل نفس وأودع في فطرتها بذرة التوحيد، ثم أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأقام الدلائل والبراهين، وزودهم بالمشيئة الحرة ووسائل الإدراك، قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

يبقى أن نشير إلى أن الميداني لم يتطرق إلى المعنى الآخر الذي تضمنه معنى ﴿الذِّكْرَ﴾: وهو الصيت، والرفعة، والشرف، وقصره، أو حصره على المعنى الأول، وهو التذكرة فقط أو الشيء المطلوب تذكره.

مع أنَّه عند أهل التفسير، يحتمل معنيين:

"أحدهما: أنه ذكرٌ من الله جل ذكره، ذكَّر به عباده، فعرَّفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائرَ ما أودعه من حُكمه.

والآخر: أنه ذكرٌ وشرف وفخرٌ لمن آمن به وصدَّق بما فيه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، يعني به أنه شرفٌ له ولقومه"[2].

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٤٤، وقد ورد الحديث عن المشيئة في ص ٨٣- ١٣٨- ١٤٤-١٤٦-٤٢٩-٤٣٠- ٤٣١- ٤٣٢.

[2] الطبري، **جامع البيان**، ج١، ص ٩٤. ويُنظر الماوردي، **النكت والعيون**، ج١، ص ٢٣. والثعالبي، **الجواهر الحسان**، ج١، ص ١٥٠.

ولم يتطرق الميداني إلى لفظ آخر سُمي به الوحي في أوائل التنزيل، وهو "الحديث"، قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم:٤٤] وكل ما أشار إليه أن الحديث: هو "الكلام الذي يُقال ويُتحدث به، والقرآن: كلام منزل من رب العالمين، يُحدِّث الرسول ﷺ به، فيُبلغهُ عن ربه"[١].

ترى الباحثة: أن الذكر على المعنى الذي فسّر به الميداني هو من أعظم مقاصد إنزال القرآن، والذي قد وُصِف في نجوم التنزيل اللاحقة بالإحكام، قال تعالى: ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

و﴿الحكيم﴾ هو "الذي قد كمَلَ في حكمته"[٢]، أي "المحكم"[٣]، و "... الممنوعِ من تطرُّق الخللِ إليه"[٤].

"... فإن ذكر فيه الأخبار، كانت أصدق الأخبار وأحقها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعد والوعيد، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل"[٥].

لذا دلالات وهدايات وآيات القرآن ينبغي أن تحفظ بالقلب، وتُنطق بالألسنة، وتترجم بالأفعال والأقوال.

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٥٧. يُعذر الميداني فهو يقصد جمع الآيات ذات الموضوع الواحد وملاحظة البناء أو التدرج المعرفي فيها.

[٢] الطبري، **جامع البيان**، ج٦، ص ٤٦٧.

[٣] الأصفهاني، **المفردات**، ج٢، ص ٥٩٨.

[٤] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٢، ص ٤٥.

[٥] السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، (د.م، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠ م)، ج١، ص ٤٩٤.

المبحث الثَّاني: سِمةُ حامل الرِّسالة الرَّبانيَّة

اختار الله جل في علاه لحمل رسالته وتبليغها لرسوله ﷺ أعظم الملائكة فكان جبريل عليه السلام، واختار لتبليغها لعباده المكلفين أعظم البشر فكان محمداً ﷺ، وقد جاءت الآيات في بدايات التنزيل بذكر سِمات فيها أعظم الثناء والتزكية لهما عليهما السلام.

المطلب الأول: سِمةُ محمد صلى الله عليه وسلم

أولًا: الشهادة الربَّانيّة للرسول ﷺ بكمال الخلق

الآيات في بدايات التنزيل تصف خلق الرسول ﷺ بالوصف الجامع، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والخلق، "بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبع والسَّجِيَّةُ "[1].

هذه الشهادة تدُلّ على أن النبي ﷺ مفطور على خلق عظيم، وهو متمكن منه تمكن القادر على الشيء باستعلاء، وجاءت مؤكدة بهذه المؤكدات (حرف على _ إنَّ_ والجملة الاسمية _ واللام المزحلقة)[2].

ووقع هذا الثناء بعد اتهام قومه له ﷺ بالجنون فاقتضى التوجيه الرباني ألا "يأمر رسوله ﷺ صراحة بالصبر والحلم وسعة الصدر والصفح، وسائر الصفات الحميدة، وتحمل الأذى من قومه، ومتابعة القيام بوظائف رسالته، وإنَّما ألمح له إلى ذلك إلماحًا عجيبًا، فكان هذا الإلماح ثناءً فاخرًا نفيسًا بأنَّه لعلى خلق عظيم"[3].

---

[1] ابن منظور: محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ)، ج١٠، ص ٨٦.

[2] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢١٣- ٢١٤.

[3] **المرجع السابق**، ص ٢١٤.

وهذه الشهادة تطوي في داخلها كل "أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه"[١]، وذلك لا محالة رأس الخلق وذروة كماله في كل شيء، وقد "سمّي خلقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه"[٢].

البعد الدعوي في هذا الثناء النفيس الفاخر:

أ- الحرص على الاقتداء بخلق النبي ﷺ "فقد كانت شمائله ﷺ وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى أن العربي القح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب، فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله"[٣]، لذا حقق النبي ﷺ من نشر التوحيد، ودحض الباطل، ما عجز عنه غيره من البشر، وما كتب الله التمكين لمن بعده ﷺ إلا حين تحلى الأتباع بخلق الإسلام، وإن شئت فقل بخلق النبي ﷺ.

ومن عظمة الإسلام أنَّ أخلاقه في وُسعِ كل نفس مؤمنة، "... فكما جعل الله رسوله ﷺ على خلق عظيم جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخلق العظيم بمنتهى الاستطاعة"[٤].

ب- تمجيد الأخلاق في ميزان الله فهي ربَّانيَّة المصدر، وقد جاءت أركان الإسلام لتعزيز كل عناصرها، فالصلاة تنهى عن الموبقات، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

---

[١] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٥٣٢.

[٢] الثعلبي: أحمد بن محمد، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م)، ج١٠، ص ١١.

[٣] الغزالي: محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت)، ج٢، ص ٣٨٣.

[٤] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**، (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط، ١٩٨٤م)، ج٢٩، ص ٦٤.

والصيام يُلبس صاحبه لباس التقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

والزكاة تزكي النفس وتطهرها، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

والحج يُلجم صاحبه عن الفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، لذا قال ابن القيم: " الدين كله خلق؛ فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الدين"[١].

ولا يخفى على ذي لُبٍ أنَّ أزمة المسلمين في هذا العصر أزمة أخلاق، أمة تملك قيمًا وأخلاقًا ربانيَّة المصدر، إذ بها تتهاوى في وحل الظلم، وسفك الدماء، وأكل أموال الناس بالباطل، وما ذاك إلا لبعدها عن المصدر الذي يُشكِّل الأخلاق، ويجعل جذورها عميقة متغلغلة في النفوس. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة:٥].

ثانيًا: الشهادة الربَّانيّة للرسول ﷺ بكمال البلاغ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤].

والمقصود بالغيب هنا هو القرآن، قال قتادة: "كان هذا القرآن غيبا أعطاه الله تعالى محمدًا..."[٢].

---

[١] ابن القيم: محمد بن أبي بكر الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م)، ج٢، ص ٢٩٤.

[٢] السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت)، ج٨، ص ٤٣٥.

وكانت شهادة الله عزّ وجل لرسوله ﷺ فيما ينزل عليه من وحي السماء بأنَّه ليس بخيلًا كاتمًا، وليس مُتَّهماً بالتحريف من زيادة أو نقصان[١]، بل هو صادق أمين لا يألو جهدًا في تعليم الناس كل ما فيه خير لهم في أولاهم وأخراهم[٢]، وأما ما يجهله فيقول بشأنه: "إنَّني بشر لا أعلم إلا ما يُعلمني ربي"[٣].

البعد الدعوي في هذه الشهادة الربَّانيّة:

أ- تبرئة النبي ﷺ من النقائص، قال الميداني: "وفي هذا بيان لبراءة الرسول محمد ﷺ من أخلاق الناس التي فيها البُخل والاتهام، فمن ظفر منهم بعلم من علوم غيبيّةٍ عن الناس، احتفظ به لنفسه، وضن به عن الآخرين، ليستثمره لدنياه"[٤].

ب-إعداد العلماء الرَّبانيين، فمن اقتدى بخلق النبي ﷺ في التبليغ والتعليم، ظهر أثر ذلك جليًا على طلابه، فما يزال يرقى بهم حتى يشكل منهم طائفة قادرة على نشر الدين، فالله عز وجل بعث نبيه ﷺ "في أُمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحبارا متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى

---

[١] قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ورُويس: ﴿بظنين﴾ بالظاء، وقرأ الباقون: ﴿بضنين﴾ بالضاد.
يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٩٦، وابن مجاهد: أحمد بن موسى، **السبعة في القراءات**، تحقيق: شوقي ضيف، (مصر: دار المعارف، ط٢، ١٤٠٠هـ)، ج١، ص ٦٧٣، وابن الجزري: محمد بن محمد، **النشر في القراءات العشر**، تحقيق: علي محمد الضباع، (د.م: المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، د.ط، د.ت)، ج٢، ص ٣٩٨- ٣٩٩.
الضَّنين: البخيل، يقال لغة: " ضنَّ بالشيء يَضِنُّ وَيَضَنُّ ضِنّاً وضنانةً إذا بخل، فهو ضنين، أي: بخيل. والظَّنين: "المتَّهم الذي لا يُوثَقُ به في الأخبار أو في غيرها". الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٢٧، ويُنظر: الفراهيدي، **العين**، ج٧، ص ١٠.

[٢] يُنظر: الميداني، **المرجع السابق**.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٤٢٨.

[٤] **المرجع السابق**.

في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم"[1].

المطلب الثاني: سِمةُ جبريل عليه السلام

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ(٢١)﴾ [التكوير].

قال الميداني: "لم يُذكر هنا اسم الملك جبريل أمين الوحي عليه السلام، إنما ذُكر بصفات تُعيّنه وتُميزه:

١- فهو رسول من الملائكة: يرسله الله لتبليغ ما يُريد أن يُوحي إلى رسله من البشر، فوظيفته القيام بتأدية الرسالة التي يكلفه الله عز وجل أن يؤديها، دون أن يتصرف بشيء من عنده.

٢- وهو كريم: والكريم هو الذي يترفع عن النقائص والدنايا، وهو المحمود بالصفات الرفيعة النفسية، والجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والمكرَّم في جنسه، أو نوعه، أو بين نظرائه أو قومه.

٣- وهو ذو قوة: أي ذو قوة عظيمة دلَّ على عظمتها التنكير، فلو أمره الله بأن ينسف الجبال والبحار ويرفع المدن ويقلبها، ويزلزل الأرض وما عليها لقدر على ذلك، فقد أعطاه الله عز وجل قوّةً عظيمة.

---

[1] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٩١٢.

٤- وهو عند ذي العرش مكين: **أي:** وهو عند الله الذي هو ذو العرش المجيد مكين. المكين: هو ذو المكانة الرفيعة، والمنزلة العالية الثابتة الراسخة، المتمكن في الموقع الذي هو فيه. فجبريل عليه السلام "له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم"[١].

٥- وهو مُطاع بين الملائكة العالين: قال تعالى: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ كلمة ثم بفتح الثاء اسم يشار به إلى المكان البعيد، وهو بمعنى هنالك، فهو مطاع هنالك، أي بين الملائكة العالين، فله عليهم رياسة، يأمرهم بإذن الله فيُطيعُونه.

٦- وهو أمين: أي وهو أمين على وحي الله، وأمين على رسالاته، فلا ينقص منها شيئًا، ولا يزيد فيها شيئًا، بل يبلغها أو يؤديها كما أوحى الله إليه بدِّقة تامة"[٢].

هذه الصفات تُعين وتُميز في قول جمهور المفسرين جبريل عليه السلام[٣] وهذا ما ذهب إليه الميداني، وهناك قول آخر وهو جواز انطباق الصفات على الرسولين وهو ما أشار إليه ابن عاشور[٤].

البعد الدعوي في ذكر سمات جبريل عليه السلام

في ذكر هذه السمات إيماء ودلالة على عدة أمور:

أ- دليل على سلامة القرآن من أي تغير أو تحريف أو تبديل، فإنَّ أمين الأرض تلقاه من الرسول الكريم الأمين ﷺ تلقيًا مباشرًا حرفًا فحرفًا وكلمةً فكلمةً، لا كما يتوهم

---

[١] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٩١٢.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٢٤.

[٣] يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٤٤.

[٤] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ١٥٢.

البعض أنّ الله أوحى به إلى رسوله ﷺ معاني، وهو ﷺ عبر عن هذه المعاني بألفاظ من عنده[١].

ب-التنويه بالقرآن وعظيم شأنه حيث انتدب الله عز وجل لإبلاغه جبريل عليه السلام، "الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل"[٢].

ج- التنويه بهذه الصفات، ولا سيما صفة الأمانة، قال الزمخشري: "وقرئ ﴿ثُمَّ﴾، تعظيمًا للأمانة، وبيانًا؛ لأنها أفضل صفاته المعدودة"[٣].

ترى الباحثة: ضرورة التحلي بأخلاق حاملَي الرسالة عليهما السلام، فيوصف الداعي إلى الله بأنَّه على خلق عظيم، ويُوصف بأنَّه كريم أي كريم في علمه فلا يبخل منه في شيء، وكريم في ماله فلا يضنُّ منه في شيء، وكريم في وقته فلا يدخر منه شيئًا إلا لخدمة دينه والنصح لأمّته. ويُوصف بأنَّه قوي والمراد القوة الفكرية، والجسدية، والعلمية والعملية، والمادية على قدر استطاعته عملًا بما رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ»[٤].

ويحرص على أن يكون ذا مكانة رفيعة في الملأ الأعلى والأدنى، وهذه يُحصِّلُها باستقامته وطاعته لله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٩٧- ٤٢٥.

[٢] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٩١٢.

[٣] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧١٢، قراءة ﴿ثُمَّ﴾ بضم الثاء قراءة شاذة.

[٤] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ج٤، ص ٢٠٥٢، رقم الحديث (٢٦٦٤).

ويُوصف بأنَّه أمين فيبلغ شرع الله ويُبينهُ للناس دون أهواء أو شهوات أو طمع في تحقيق عرض من أعراض الدنيا، وإلا كان مذمومًا عند خالقه وفي ميزان شرعه قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف:١٦٩] ومن توافرت فيه هذه الصفات أطاعه الناس وقادهم إلى رضوان الله وجنات النعيم.

الفصل الثاني: الإعداد السلوكي لحامل الرسالة

المبحث الأول: علاقة حامل الرسالة بربه.

المطلب الأول: الدعوة إلى اكتساب العلم وتدوينه.

المطلب الثاني: الأمر للقيام بمهام الدعوة.

المطلب الثالث: الأوامر والوصايا السلوكية للرسول ﷺ وللذين آمنوا معه.

المطلب الرابع: التسبيح وأثره على انضباط السلوك.

المطلب الخامس: الدعوة إلى شكر النِّعم.

المبحث الثاني: علاقة حامل الرسالة بالمكذبين.

المطلب الأول: الصبر.

المطلب الثاني: الهجر الجميل.

المطلب الثالث: ترك المقاومة.

المطلب الرابع: الإمهال.

المطلب الخامس: عدم الطاعة وترك المداهنة.

المبحث الأول: علاقة حامل الرسالة بربه

يسلط هذا المبحث الضوء على أول طريق ينبغي لحامل الرسالة سلوكه، وهو طريق اكتساب العلم، الذي جاء بيانه في صدر سورة العلق، وما يعقبه من واجب وهو طريق الإبلاغ مقرونًا بتوجيهات ربانية كفيلة بإنجاح هذه المهمة العظمى، وجاء بيانه في صدر سورة المدثر ، ثم إيضاح الزاد الحقيقي الرَّباني الذي يزيد سالكه قوةً ونقاءً فكريًا وجسديًا ونفسيًا، وجاء بيان ذلك في صدر سورة المزمل، ثم تزويد حامل الرسالة بجرعة زائدة لعلاج ما ينتابه من ضيق في الصدر وألم في النفس، وجاء بيان ذلك في صدر سورة الأعلى، ويبقى بعد هذا الإعداد، وهذا الاصطفاء واجب شكر المُنعم والذي يترجم بالتحديث بنعمة الدين إلى حدٍ يصل فيه إلى التعب والنصب، وجاء بيان ذلك في سورتي الضحى والشرح. وتفصيل ذلك كله في المطالب التالية:

المطلب الأول: الدعوة إلى اكتساب العلم وتدوينه

نزل صدر سورة العلق مع بدء الوحي إلى الرسول ﷺ حينما كان يتعبد ربه في غار حراء، كما ورد عن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– أنها قالت: «... حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: "فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣)﴾»[1].

---

[1] أخرجه البخاري في **صحيحه:** كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج١، ص ٧، رقم الحديث (٣).

آخر الرسائل الربَّانيّة تبدأ بإعداد حامل الرسالة بدعوته إلى القراءة، مع بيان ما يُعين عليها، ويُعين على التزامها، وما يصحبها من إكرام ربَّانيّ، وبدأت كذلك بالدعوة إلى التدوين.

وقد عرضتها الباحثة على هيئة قواعد تم اقتباسها والهداية إليها من كلام الميداني وهي على النحو التالي:

القاعدة الأولى: الدعوة إلى القراءة.

القاعدة الثانية: الدعوة إلى الاستعانة بالله.

القاعدة الثالثة: نعمة الإمداد والإكرام.

القاعدة الرابعة: الدعوة إلى التدوين.

القاعدة الأولى: الدّعوة إلى القراءة

لا ريب أن القراءة هي مفتاح الوصول إلى معرفة الله، ومعرفة مراده من خلقه، قال الميداني: "الدعوة إلى القراءة هي المفتاح الأول الذي يُفتح به باب العلم"[١]. والمراد من قوله: ﴿اقْرَأْ﴾ هو القرآن وكل ما يصلح قراءته.

وفعل الأمر: ﴿اقْرَأْ﴾ يدل على أصل القراءة، وهي:" متابعة النطق بكلام مكتوب على وفق الخط الذي رسم به هذا الكلام"[٢].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٧١.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٣٥.

فتحصيل المعارف الدينية هي المطلوب الأول من العباد[١]، فعلى القارئ أن يقرأ ولو لم يفهم كل ما دلَّ عليه النص، "فما يفهمه مما يقرؤه يهديه وينفعه، ومن جهل كثير يرفعه"[٢].

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرّباني:

أ- بيان فضل القراءة ومكانتها في الإسلام، فهي أول أمر رباني موجه للعباد، وهذا يؤكد على مبدأ العلم قبل القول والعمل. قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد:١٩][٣].

ب-رفع شأن الأمة الإسلامية، فلم يقصر الميداني الأمر بالقراءة على تحصيل العلوم الدينية، بل أوضح أن القرآن يدعو إلى تحصيل العلوم والمعارف الدنيوية، "بشرط اقترانها بإدراك دلائل الإيمان فيها، وابتغاء الدار الآخرة فيما آتاه الله من آثارها وثمراتها، مع الأخذ بنصيبه النافع منها لمتاع الحياة الدنيا"[٤]. فقال: "الأُمَّةَ مطالبة بأن تتعلم الكتابة والقراءة، وتتخلص من الأُميَّة، وتبدأ مسيرتها العلمية مترقيَّة في كل مجالات العلوم، فالكتابة والقراءة من أعظم وسائل الترقي العلمي، في قضايا الدين والدنيا. وإذا كانت الأُميَّةُ فضيلة خاصة بالرسول محمد ﷺ، لأنها إحدى عناصر معجزات نبوَّته، فليست فضيلةً لأحد من أمته من بعده، بل هي نقيصة"[٥]. و"هذا

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٧.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٥٣.

[٣] كما بوَّب البخاري في **صحيحه**: كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ج١، ص ٢٤.

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٨.

[٥] **المرجع السابق**، ص ٣٦.

التوجيه لا يُستثنى منهُ أحدٌ من بعده، إلا العاجزون من أمَّته عن تعلم القراءة والكتابة"[١].

وقد مهد الله عز وجل سبل العلم، فجعل أول سبيل لتحصيله هو (الاستعانة بالله)، وهو ما يجر الحديث عن القاعدة الثانية.

القاعدة الثانية: الدّعوة إلى الاستعانة

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ الباء حرف جر، ومن معانيه الاستعانة والإلصاق، فإذا كانت الباء للاستعانة فإنَّ المؤمن لا يستعين إلا بالله وصفاته ولا يلجأ إلا إليه، وإذا كانت للإلصاق فإن المؤمن لا يلتصق التصاق التجاء وتبرك إلا بالله وصفاته[٢].

وقد جاء التصريح بالاستعانة في (سورة الفاتحة/٥ نزول) بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥)﴾ فكل عبادة تحتاج إلى استعانة، وأول عبادة تعبدَّ الله بها عباده هي القراءة.

والمعنى "اقرأ أيها الموضوع في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، لاكتساب المعارف والعلوم الدينية والدنيوية، قراءة مقترنة وملتبسة بالتفكر في صفات ربك الذي خلق، ... واقرأ مستعينًا بالله الذي يُمِدُّ بعطاءات ربوبيته"[٣].

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرباني:

أ- تأصيل مبدأ الاستعانة بالله، فالعبد لا يستطيع القيام بأي عمل ظاهر أو باطن إلا إذا أمدَّهُ الرَّب عز وجل بطاقة العمل وأعانه على القيام به، وهذا الإمداد كالطاقة الكهربائية

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٦.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٨- ١٩.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٤٦- ٤٧.

التي تتوقف آثارها متى انقطع الإمداد بها، فكان لزامًا عليه أن يُعلن لربه حاجته الدائمة إلى معونته وحده، وأن يُعلن أنه لا يستعين في أي أمر من أموره استعانة حقيقية إلا به، وأن يُعلن تبرئه من الحول والقوة إلا من حول الله وقوته[١]، فمن قرأ مستعينًا به نال من فيوضات وعطاءات ربه ما ينفعه في دنياه وأخراه[٢].

ب-الحث على القراءة المقترنة بالتفكر في صفات الرب "فما من موضوع فكري إلا له صلة باسم أو أكثر من أسماء الله الحسنى"[٣]، ولا يُكتفى بالقراءة الواحدة بل كرر الأمر مقترنًا بصفة الرَّب الأكرم.

القاعدة الثالثة: نعمة الإمداد والإكرام

قال تعالى: ﴿اقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فمن أسماء الله الحسنى (الكريم): وهو "الجواد المعطى الذي لا ينفذ عطاؤه"[٤] وجاء في بدايات التنزيل بصيغة أفعل تفضيل وهو ﴿الأكرم﴾، وإذا أُطلق اللفظ دون إضافة فلا يراد به إلا الله عزّ وجل[٥].

قال الخطابي: "هو أكرم الأكرمين لا يوازيه كريم، ولا يعادله فيه نظير"[٦]، وهذا الإنعام والإكرام يَعُمُّ الدنيا والآخرة "فما لكرمه غاية ولا أمد"[٧].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٩٩.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٣.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٥١.

[٤] ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**، ج٤، ص ١٦٦.

[٥] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٨.

[٦] الخطابي: حمد بن محمد، **شأن الدعاء**، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، (د.م، دار الثقافة العربية، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ط٣، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢م)، ج١، ص ١٠٣.

[٧] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٧٦.

ومجيء صفة الأكرم في هذا السياق للدلالة على أنَّ "العلم أشرف الصفات الإنسانية، كأنه تعالى يقول: الإيجاد والإحياء والإقدار والرزق كرم وربوبية، أما الأكرم: هو الذي أعطاك العلم لأن العلم هو النهاية في الشرف"[١].

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرّباني:

أ- الإشعار بحاجة الإنسان لمتابعة القراءة في حياته لتغذية فكره وقلبه ونفسه، فهي الزاد لتبقى له حياة معنوية متنامية[٢]، و"بمتابعة القراءة والتدبر مع الاستعانة بربه يُنوِّر الله بصيرته، فيفتح له أبوابا من الفهم، تشرق له منها معارف ربانية، اشتمل عليها النص القرآني الموحى به"[٣].

ب-الإشعار أن "الله سبحانه هو الأكرم من كل كريم، فلا يقتصر عطاؤه على حدود ما يطلب القارئ الوصول إليه من المعاني التي تدل عليها الألفاظ المكتوبة، بل يزيده من كرمه العظيم فيوضأ من المعارف فوقها، على مقدار ما تستوعب آنيته الفكرية"[٤].

---

[١] الرازي: محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠ هـ)، ج٣٢، ص ٢١٨.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٨.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٥٤.

[٤] **المرجع السابق**، ص ٤٩.

القاعدة الرابعة: الدعوة إلى التدوين

قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤)﴾ امتن الله عز وجل على عباده بنعمة القلم، وأشار إلى أهميته في أوائل التنزيل، وما كان للنبي ﷺ "أن يبرز هذه الحقيقة لو كان هو الذي يقول هذا القرآن لولا أنه الوحي، لولا أنها الرسالة"[١].

ومن صور الإكرام الرباني أن جعل من القلم، أداة للتدوين سواء بالصورة القديمة كالقطعة الجامدة من الحطب، أو الخشب، أو الحديثة كالكمبيوتر.

وقد أوضح الميداني أن الله عز وجل هيأ للإنسان الوسائل لاكتساب العلم، عن طريق الإدراك الحسي –بحواسه الظاهرة والباطنة–، والإدراك العقلي القائم على استخدام الأصول الفكرية والتي بها يدرك البواطن غير المدركة بالحس، وأمره بتدوين المكتسبات التي توصل إليها، أو سبق أن تنزل بها وحي الله على رسوله الكريم ﷺ[٢].

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرَّبانيّ:

أ- الإيمان بأنَّ واردات المعارف غيث، وأن القلم ميزاب هذا الغيث، والقرطاس هو الوعاء الذي يُجمع به غيث الكريم الأكرم، فإذا لم تُدون بالقلم ضاعت، وقد يصعب أن تعودَ مرة أخرى[٣].

---

[١] قطب: سيد إبراهيم، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ط٢٤ ،١٤١٥هـ)، ج٦، ص ٣٩٣٩.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٠-٥١.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٤.

فما "دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط لكفى"[١].

ب-حفظ العلم ونماء جبال المعرفة، "إذ الكتابة المحفوظة من فساد خطوطها أو صحفها لا تتعرض للنسيان، لكن الأذهان والذاكرات الإنسانية تنسى ما سبق أن تعلمته، فهي بحاجة إلى مكتوب محفوظ لا يتعرض للنسيان"[٢]. وبهذا "تتراكم المدونات من مسائل العلوم مصنفة مُبوَّبة مفصلة مفهرسة"[٣] تتناقلها الأجيال وتنميها. وقد أشار الثعلبي إلى هذا المعنى فقال: "البيان اثنان: بيان لسان وبيان بنان، وفضل بيان البنان أنّ ما تثبته الأقلام باق على الأيام، وبيان اللسان تدرسه الأعوام"[٤].

الواقع يشهد أن الأمة في معظم أفرادها تخلت عن أمر ربها فكان عاقبه أمرها خسرًا، من خلل في العقيدة، وسطحية في التفكير، وتحريف في القول الرباني، وقد ذم الله طائفة من أهل الكتاب بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] "أي: غير عارفين بمعاني الكتاب يعلمونها حفظًا وقراءةً بلا فهم ولا يدرون ما فيه"[٥]. فما الظن ببعض أفراد الأُمة الذين لا يحسنون قراءة وحي السماء، فضلًا عن تدبره والعمل بهديه.

---

[١] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٧٧. ويُنظر القرطبي: محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ج٢٠، ص ١٢٠.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٩.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٣٧.

[٤] الثعلبي، **الكشف والبيان**، ج١٠، ص ١١.

[٥] ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (المدينة النبوية: مجمع الملك فهد، د.ط، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ج١٧، ص ٤٣٤.

المطلب الثاني: الأمر للقيام بمهام الدعوة

نزل صدر سورة المدثر بعد انقطاع الوحي وكان هذا الانقطاع لاستثارة أشواق النبي ﷺ، ومن صور التربية الرّبّانيّة له، والإعداد لتلقي مهمات رسالته ﷺ[١]، دلَّ على ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الوَحْيُ فَتْرَةً، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي، سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ[٢]، حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنْذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥)﴾»[٣].

هذا النجم القرآني تضمن تكليفه أن يحمل رسالة ربه، وتضمَّن تعليمات أوَّلية ينبغي أن يتحلى بها ﷺ هو وكل من يؤمن به[٤].

الوصيَّة الأولى: العزيمة والنشاط حتى آخر مراحل البلاغ

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١)[٥] قُمْ فَأَنْذِرْ(٢)﴾.

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٩١.

[٢] فَجُئِثْتُ مِنْهُ: أي: ففزعت منه. **المرجع السابق**، ص ٨٠.

[٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين، ج٤، ص١١٦، رقم الحديث (٣٢٣٨).

[٤] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨١.

[٥] ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ أصلها المتدثر أدغمت التاء بالدال فشددت. يقال لغة: تدثَّر يتدثر تدثراً إذا لبس الدثار، والدِّثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشعار، ويطلق أيضاً على الغطاء، أما الشعار فهو الثوب الذي يلي جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب. الميداني، **المرجع السابق**، ص ٨٤، ويُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص ٢٧٦.

الإنذار: هو "الإعلام والإخبار بعواقب غير سارة، كشر قادم، أو عقوبة على مكتسب إرادي من قول أو عمل أو اعتقاد، وكذلك التحذير من مخوف منه مادي أو معنوي"[١].

والإنذار بعقاب الله يوم القيامة يكون بعد توضيح مسائل الإيمان وأركان الإسلام وحقائق الدين، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، "لهذا كان علينا أن نفهم باللزوم العقلي أنّ جملة ﴿فَأَنْذِرْ﴾ تطوي في داخلها جملًا كثيرةً تدل على الوظائف التي يجب على الرسول ﷺ أن يقوم بها قبل الإنذار، ولما كان الإنذار يأتي في آخرها بمقتضى التسلسل الفكري والتربوي، كان الاقتصار على ذكر عبارة (فأنذر) دليلًا عليها"[٢].

أثر هذا التوجيه الرّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- بيان وظيفة حامل الرسالة والتي تكمُنُ في "التبليغ المقرون بالبيان الكافي الذي ينقطع به العذر، فمن أبى أن يستجيب بعد ذلك وجه له الإنذار بعقاب الله وعذابه"[٣].

فالبلاغ يكون بجهد صادق، وعمل دؤوب، واستمرار لا انقطاع ولا يأس معه حتى الوصول إلى آخر حلقة في سلسلة الدعوة إلى الله، وهي حلقة الإنذار، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٥.

[٢] **المرجع السابق**.

[٣] الميداني، **فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٤١٧/١٩٩٦م)، ج١، ص ٣٣٧.

ب–قد يتعرض الداعية إلى نوع من الخوف والرهبة أو الفزع في بداية الدعوة كما وقع من النبي ﷺ حين رأى جبريل على هيئته العظيمة المالئة للأفق، لكنَّ هذا الأمر لا بُدَّ أن يزول ويعقبه القيام والعزم للعمل الجاد بتبليغ الشرع وأداء الأمانة[١].

ج– بيان سعة رحمة الله، الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه، "...غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا، وأن يدعوهم ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله"[٢].

د– الإنذار له أثر عميق في إصلاح النفس، وضبط السلوك، وهذا ما أشارت إليه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت: «نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ:﴿بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[القمر:٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ»[٣].

الوصيَّة الثانية: تعظيم الرب

قال تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)﴾ الكبر: "العظمة،... ويقال: أكبرت الشيء: استعظمته"[٤].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٦.

[٢] قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٧٥٤.

[٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ج٦، ص ١٨٥، رقم الحديث (٤٩٩٣).

[٤] ابن فارس: أحمد بن زكريا، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (د.م، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج٥، ص ١٥٣.

والمعنى أي: "خص ربك وحده بالتكبير والتعظيم، فَأَبِن أنه هو الأكبر من كل كبير، والأعظم من كل عظيم، إذ هو خالق كل شيء فلا بد أن يكون أكبر وأعظم من كل شيء"[١].

وقد عدَّ الميداني هذه الآية عنوانًا لكل مسائل الربوبية وقضاياها، ذلك أن تكبير الرَّبِّ يتضمن بيان توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ويتضمن بيان كل ما يدخل في إثبات ذلك من أدلة وحجج وبراهين، ويتضمن ذكره في القلب واللسان بالإجلال والتعظيم، ومن تكبيره إعلان عبارة (الله أكبر) التي شُرعت فيما بعد لافتتاح الصلاة بها، وشُرع إعلانها في الأذان والإقامة وفي صلاتي العيدين وغير ذلك[٢].

وقد تعددت أقوال المفسرين في هذه الآية العظيمة وكلها تدور حول تعظيم الرب سواء كان هذا التكبير والتعظيم في العقيدة، أو العبادة، أو الدعوة.

فمعنى كَبِّر عند ابن عطية أي: "عظِّمه بالعبادة وبثّ شرعه"[٣] وهي عند النسفي: أي "لا يكبر في عينك غيره"[٤]، وعند الألوسي: "هو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة اعتقادًا وقولًا"[٥]، وأوَّلها ابن عاشور بقوله: "كبره في اعتقادك –إجلالًا وتنزيهًا– وكبره بقولك تسبيحًا وتعليمًا"[٦].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٦.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٨٧.

[٣] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٩٢.

[٤] النسفي: عبد الله بن أحمد، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، (بيروت: دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م)، ج٣، ص ٥٦٢.

[٥] الألوسي: محمود بن عبد الله، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ)، ج١٥، ص ١٣٠.

[٦] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٢٩٥.

أثر هذا التوجيه الرّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- قال الميداني: "وبملاحظة أن الله جل جلاله أكبر من كل شيء تتصاغر في نفوس المؤمنين به السموات والأرض وسائر مخلوقات الله، ويتصاغر الطغاة والجبابرة والعظماء من الإنس والجن، وتتضاءل المرعبات والمخيفات والأهوال العظمى إذ هي خلق من خلقه، وبالانتماء إليه والالتجاء إليه، والاستعاذة به، يحصل الأمن في القلوب والسكينة في النفوس، والاعتزاز بسلطانه وهيمنته على كل شيء، فمهما يكن شيء في الوجود كبيرًا فالله أكبر"[1].

ب-يدل هذا التوجيه على: "أن نواصي الخلائق بيده تعالى وكل ما سواه مقهور تحت كبريائه وعظمته، فلا ينبغي أن يرهب إلّا منه ولا يرغب إلّا فيه"[2]. لذا فحامل الرسالة لا يعبأ بما يُمكر به، وربه الكبير، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

ج- مجيء هذا التوجيه الرباني في سياق التكليف بقوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ للإشعار "بأنه بدون تعظيم كامل لله في القلب لا تتأتى عملية الإنذار"[3].

الوصيَّة الثالثة: الطهارة العامة

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤)﴾ اعتبر الميداني هذه الآية عنوانًا للطهارة المادية من كل النجاسات، والأمر بطهارة الثياب يتضمن الأمر بطهارة لابسيها، إذ طهارة أبدانهم أولى من طهارة

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٧-٨٨.

[2] الألوسي، **روح المعاني**، ج١٥، ص ١٣٠.

[3] حوّى: سعيد، **الأساس في التفسير**، (القاهرة: دار السلام، ط٦، ١٤٢٤هـ)، ج١١، ص ٦٢٢٩.

ثيابهم، وتقديم ثيابك على فعل (فطَهِّرْ) حتى يخصها بالاهتمام أي: "ومهما استطعت في كل أحوالك فطهر ثيابك، وخُصَّها بالعناية بالطهارة، لأنها مصاحبة لك[١].

لم يتطرق الميداني إلى استعمال العرب في طهارة الثياب "وكانت العرب تقول للرجل إذا أذنب أنه دنس الثياب، وإذا توقى قالوا: إنه لطاهر الثياب"[٢]، وقد نقل ابن عطية قول الجمهور بقولهم: "هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس والعرض"[٣].

أما ابن عاشور فقد أشار إلى أن للثياب إطلاقًا صريحًا وهو ما يلبسه اللابس، وإطلاق كنائي فيكنى بالثياب عن ذات صاحبها، وبالتالي للتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات وإطلاق مجازي وهو التزكية قال تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) [الأحزاب:٣٣]. والمعنيان صالحان في الآية فتحمل عليهما معا[٤].

أثر هذا التوجيه الرّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- قال الميداني: "الطهارة من العناصر الأولى في السُّلوك الديني للإنسان المسلم"[٥].

ب-قال سيد قطب: "الطهارة هي الحالة المناسبة للتلقي من الملأ الأعلى، كما أنها ألصق شيء بطبيعة هذه الرسالة، وهي بعد هذا وذلك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ، ومزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء..، وما يصاحب هذا ويلابسه من

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**: ص ٨٨.

[٢] مقاتل بن سليمان، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، (بيروت: دار إحياء التراث، ط١، ١٤٢٣هـ)، ج٤، ص ٤٩٠.

[٣] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٩٢.

[٤] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٢٩٥.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٨.

أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث، وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس"[١].

ج- بيان أثر الطهارة في عملية الإنذار"...فما لم يكن الداعية نقي الظاهر والباطن، دقيق الأخذ والعطاء، سلوكه فوق النقد في كل الأمور، فإن إنذاره لا يكون مجديًا كل الجدوى"[٢]، وهذا يستوجب على حامل الرسالة: "الطهارة مع البعد عن كل فحش وإثم وبذاءة ومظهر مستنكر"[٣].

الوصيَّة الرابعة: هجر العذاب وموجباته

قال تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ[٤] فَاهْجُرْ(٥)﴾ الهجر: "ضد الوصل، هجره يهجره هجرًا وهجرانًا: صرمه"[٥] أي قطعه، والهجر "يكون بالبدن وباللسان وبالقلب، ... وقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ حث على المفارقة بالوجوه كلها"[٦].

قال الميداني: "والهجر أبلغ من الترك، إذ فيه معنى الابتعاد عن مواطن المهجور"[٧].

يرى الميداني أنَّ خطاب الرسول ﷺ بهذه الآية هو خطاب لأمته، فإن كان المراد هجر عبادة الأوثان، فهو ﷺ لم يسبق له أن عبدها أو عبد شيئا منها، وإن كان المراد هجر العذاب

---

[١] قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٧٥٥.

[٢] حوّى، **الأساس في التفسير**، ج١١، ص ٦٢٢٩.

[٣] دروزة: محمد عزت، **التفسير الحديث**، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية – د.ط، ١٣٨٣هـ)، ج١، ص ٤٤٣.

[٤] ﴿الرُّجزَ﴾ بضم الرّاء وهي قراءة حفص عن عاصم، وأبي جعفر، ويعقوب، والمراد هجر عبادة الأوثان. أما ﴿الرِّجزِ﴾ بكسر الرّاء قراءة باقي القراء العشرة، والمراد هجر العذاب والأسباب الموجبة له يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٧٨- ٨٨، ويُنظر: ابن الجزري، **النشر في القراءات العشر**، ج٢، ص ٣٩٣.

[٥] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٥، ص ٢٥٠.

[٦] الزَّبيدي: محمد بن محمد، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، (د.م: دار الهداية، د.ط، د.ت)، ج١٤، ص ٣٩٨.

[٧] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٩.

وأسبابه، فهو ﷺ معصوم عن المعاصي، إلا أن له نصيبًا من هذا التكليف في حدود مرتبتي البر والإحسان، وكل ما لا يتعارض مع العصمة[١].

أثر هذا التوجيه الرّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- هجر المعاصي ما ظهر منها وما بطن، أي هجر كل اعتقاد أو قول أو عمل من شأنه أن يفضي إلى سخط الله وعذابه[٢]، وهجر مواطنها وأسبابها، فالتعبير بالهجر يدل على "وجوب قوة المباعدة وإصحابها نفورا"[٣].

ب-"مجيء هذا الأمر في سياق الأمر بالإنذار يشعر أن الداعية المتلبس بالمعاصي لا تنجح دعوته"[٤].

ج- هذا التوجيه في أوائل التنزيل: "يعني المفاصلة وإعلان التميز الذي لا صلح فيه ولا هوادة، فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان"[٥]، وفيه توطئة لما سيأتي من مداهنة من قِبَلِ المشركين، فيمكن اعتبار هذه الآية النواة أو البذرة الأولى التي غرست في قلبه ﷺ.

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٩.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**.

[٣] جبل: محمد حسن، **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط١، ٢٠١٠ م)، ج٤، ص ٢٢٨٩.

[٤] حوّى، **الأساس في التفسير**، ج١١، ص ٦٢٢٩.

[٥] قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٧٥٥.

الوصيَّة الخامسة: الإحسان إلى العباد

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ(٦)﴾ المنُّ: "الإنعام والإحسان[١]، يقال لغة: منَّ فلان على فلان إذا أنعم عليه نعمة طيبة، تَسْتَكْثِرُ: أي تطلب لنفسك الكثرة. والمعنى عند جمهور أهل التفسير من السلف: لا تُعط العطية ملتمسًا ممَّن أعطيته أن يعوضك أكثر منها وأفضل"[٢].

وقد ورد في معنى ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ عدة معانٍ أوصلها القرطبي إلى "أحد عشر تأويلا"[٣]، أما الماوردي فحصر معناها في أربعة تأويلات[٤]:

أحدها: لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها. وهذا ما اختاره الميداني ورجحه.

الثاني: لا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح. هذا ما اختاره الطبري ورجحه[٥].

الثالث: معناه لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس تأخذ عليها منهم أجرًا، أو عوضًا من الدنيا.

الرابع: معناه لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه. أخذاً من قول العرب، "حبل منين: إذا كان ضعيفا"[٦].

---

[١] يُنظر: الفراهيدي، **العين**، ج٨، ص ٣٧٤.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٨٩-٩٠.

[٣] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٩، ص ٦٧.

[٤] يُنظر: الماوردي، **النكت والعيون**، ج٦، ص ١٣٧.

[٥] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ١٣.

[٦] **المرجع السابق**، ص ١٥.

وقد عدَّ الميداني هذه الآية "أصلاً عظيمًا من أصول الأخلاق الاجتماعية، التي جاء بها الإسلام، إذ المطلوب من المسلم أن يُعامل ربَّه من خلال معاملة عباده، لا أن يُعامل العباد بالمعروف طالبًا منهم المكافأة، فذلك يحبط عند الله عمله، ويُخيبُ أمله"[١].

أثر هذا التوجيه الرّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- هذا التوجيه "يُشعر ضمنًا بالترغيب في المنِّ على عباد الله، ولكن دون طلب الكثرة من جهتهم؛ لأن طلب الكثرة من جهتهم تحبط فضيلة المن فيُحرَم المُنعِم من ثواب الله على العمل الذي قام به، والترغيب في المحافظة على ثواب الله على عملٍ ما، يتضمن الترغيب في أصل العمل الذي يثيب الله عليه"[٢].

ب-الدعوة إلى الله تحتاج الكثير من الجهد والوقت والتضحية وهي "لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه. بل حين لا تستشعره من الأصل؛ لأنها مستغرقة في الشعور بالله، بل شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله، لا المن والاستكثار"[٣].

ج- مجيء هذا التوجيه الرباني في سياق التكليف بقوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ للدلالة على أن "الاستشراف للمكافأة والزيادة، والاستشراف لما في أيدي الناس، واستكثار العمل لله

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٩٠.

[٢] **المرجع السابق**.

[٣] قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٧٥٥.

والمنة على الله به والمنة على الناس بسبب النبوة لمعنى دنيوي، كل هذه المعاني مما ينبغي أن يلاحظها الداعية وهو يقوم بعملية الإنذار"[١].

الوصيَّة السادسة: الصبر

قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ عدَّ الميداني هذه الآية أصلًا عظيمًا من أصول الأخلاق في الإسلام وهو الصبر؛ ابتغاء مرضاة الله عز وجل[٢]، والعدول عن اسم الله إلى لفظ ﴿وَلِرَبِّكَ﴾: فيه "إيماء إلى أن هذا الصبر بر بالمولى وطاعة له"[٣].

أثر هذا التوجيه الرّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- الصبر هو الزاد الحقيقي الذي يُعين على تحمل مشاق الدعوة بمفهومها العميق.

ب-مجيء هذا التوجيه الرباني في سياق التكليف بقوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ للإشعار بأنَّ شأن أكثر الناس أن يقابلوا حامل الرسالة بالتكذيب والإعراض، وأن يوجهوا له الاتهامات والشتائم وأنواع الأذى في حروب دعائية، ثم في حروب عسكرية، فالصبر ابتغاء مرضاة الله يُخفف عنه ما يناله من جهتهم من أذى مادي أو معنوي[٤].

المطلب الثالث: الأوامر والوصايا السلوكية للرسول ﷺ وللذين آمنوا معه

---

[١] حوّى، **الأساس في التفسير**، ج١١، ص ٦٢٢٩.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٩٠.

[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٣٠٠.

[٤] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٩١.

صدر سورة المزمل يحمل "توجيه بعض أوامر ووصايا سلوكية للرسول ﷺ وللذين آمنوا معه، تتعلق ببعض التكاليف، والأعمال الحياتية، والسلوك الدعوي"[١]، سيقتصر عمل الباحثة على ملاحظة "مبلغ الاهتمام بأعمال العبادة التي تصل المؤمن بربه، وتُعِدُّه للقيام بواجب جهاد الدعوة وأعمال الجهاد الأخرى، فمجاهدة النفس عمل سابق ومتقدم على القيام بواجبات جهاد الآخرين"[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ[٣]﴾ الأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم، فلا يُعدل إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض إما التعظيم والتكريم نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٥]، أو التلطف: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان:١٣]، أو التهكم نحو: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦][٤].

"ويلمح الأديب في النداء بـ ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١)﴾، وبـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١)﴾ معنى الملاطفة[٥] الرّفيقة الجادّة، التي تضمنت الإشارة إلى مهمات الرسالة التي لا يتفق معها الإخلاد إلى السكون والرَّاحة"[٦].

وبيَّن الميداني ذلك حين ربط بين سورتي المدثر والمزمل فقال: "وقد جاء بعد ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١)﴾ قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ(٢)﴾. وجاء بعد ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١)﴾ قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٥٥.

[٢] **المرجع السابق**، ص ١٧١.

[٣] ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ أصله المتزمل أدغمت التاء في الزاي فشددت، والمتزمل: المتلفِّف المتغطي بثيابه، يقال تَزَمَّل فلان إذا تَلَفَّف بِثِيَابِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ لُفِّف فَقَدْ زُمِّلَ، وزمله في ثوبه أي لفه. الميداني، **المرجع السابق**، ص ١٥٧، ويُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص ٣١١.

[٤] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٢٥٥.

[٥] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٣٨٣. والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٩، ص ٦١، وابن جزي، محمد بن أحمد، **التسهيل لعلوم التنزيل**، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، ١٤١٦ هـ)، ج٢، ص ٤٢٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٢٥٥.

[٦] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٥٧.

إِلَّا قَلِيلًا(٢)﴾ إشعارًا بأن هذه الرسالة الرّبَّانيَة رسالة جد واجتهاد ونهوض إلى العمل في الدعوة وفي العبادات الخاصة، ... فلا يليق بمن يُصطفى لها التَّدثر والتزمل بالثياب، والراحة والنوم إلا بمقدار الحاجة الشديدة، أما القعود والإخلاد إلى الراحة والتَّدثر والتزمل بثياب الاضطجاع والنوم فهو شأن أهل الكسل، لا شأن من يُجتبون للعمل الجاد والكدح المتواصل، وحمل المهمات الجسام"[١].

الوصيَّةُ الأولى: قيام الليل

قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا(٢)﴾ يأمر الله عز وجل رسوله ﷺ بقيام الليل كله بدليل أداة التعريف(ال) في (الليل) التي تفيد الاستغراق، وأداة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢].

"وقد بدأ الأمر الرباني بالأفضل من المقادير الموضوعة للتخيير، وهو قيام نحو ثلثي الليل. وبعد هذا أذن النص بالاكتفاء بقيام واحد من أزمنة ثلاثة من الليل:

الأول: الاكتفاء بنصف الليل، وجاء بيان هذا بعبارة ﴿نِصْفَهُ﴾ بدلًا من الليل.

الثاني: الاكتفاء بأنقص من نصف الليل، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ويصدق هذا بالثلث أو بما هو أكثر من الثلث وأقل من النصف.

الثالث: الاكتفاء بما زاد على النصف ولو كان أقلَّ من الثلثين، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾"[٣].

"وتبعه فيه طائفة من أصحابه رضي الله عنهم دون أن يكون واجبًا عليهم"[٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٥٨.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٥٩.

[٤] **المرجع السابق**، ص ١٦٠.

أثر هذا التوجيه الرَّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- القلب موضع تلقي الوحي، والله وحده "يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحًا واستعدادًا وتهيؤًا، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيرًا فيه"[١].

ب-القيام يزيد سريرة الرسول ﷺ ذكاءً يقوي استعداده لتلقي الوحي، ويدل لهذه الحكمة قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥][٢]، والأمة تبعٌ له في ذلك فتكون نفس القائم فيه أقوى استعدادًا لتلقي الفيض والعطاء الرباني.

ج- الليل توجد فيه خصيصة لا توجد في غيره، أبانها الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ[٣] اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ **وَطْئًا**(٦)﴾ وقُرئت ﴿**وِطاء**﴾[٤] "وكلاهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى"[٥].

---

[١] قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٧٤٦.

[٢] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٢٥٥.

[٣] الناشئُ: هو ما يوجد متزايدًا شيئًا فشيئًا، كالنبات يربو، والكائن الحي ينمو ومنه يقال فتى ناشئٌ، وكأوقات الليل أو النهار تتراكم وتنشأ نشوءًا متزايدًا، والمراد أعمال العبادة التي تنشأ فيه، من صلاة وذكر وتلاوة قرآن، يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٦٤.

[٤] ﴿وَطْئًا﴾ هذه القراءة هي لجمهور القراء العشرة، أما ﴿وِطاء﴾ فهي قراءة أبي عمرو، وابن عامر، يُنظر: الميداني، **المرجع السابق**، ص ١٥٣، ويُنظر: ابن الجزري، **النشر في القراءات العشر**، ج٢، ص ٣٩٣.

[٥] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٦٨٤.

والمقصود على قراءة ﴿وَطْئًا﴾[١] أي: أنَّ أعمال العبادة في الليل أشد ثباتًا وتمكنًا في عمق النفس، وأكثر غلبة لعوارضها وشهواتها، وأكثر قهرًا لها وتذليلًا، أخذًا من قول العرب وطِئنا العدو وَطأً شديدًا[٢].

أما المقصود على قراءة ﴿وِطاء﴾[٣]: أنَّ أعمال العبادة في الليل "أشد مواطأة وموافقة بين أعمال الجوارح وحالة النفس والفكر والقلب"[٤]. أي "أشدّ موافقة بين السر والعلانية، لانقطاع رؤية الخلائق"[٥].

أما الأقوال الناشئة في الليل من إنشاء مقالات، وتأليف مؤلفات، وابتكار تصنيفات، فيُوفق صاحبها إلى المعاني الجليلة الموافقة للشرع، إن كان "بحضور صحيح ثابت راسخ مع الله، فكرًا ونفسًا وقلبًا حتى عمق الفؤاد"[٦]. وهذا ما دفع الميداني إلى القول بأنه: "ينبغي تخصيص الليل لأعمال العبادة على اختلاف أنواعها، وترك أعمال كسب الأرزاق للنهار، إلا عند الحاجة أو الضرورة"[٧].

---

[١] "الوَطءُ وضع القدم على الشيء مع ثقل الجسم من فوقه، يقال لغة: وَطِئَ الشيء يطؤه إذا داسه، وتكون شدة الوطء ببذل ثقل زائد أو قوة ما على الموطوء، وبها يكون الواطئ أكثر ثباتا وتمكنا". الميداني، **معارج التفكر**، ص١٦٤.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٦٤– ١٦٥.

[٣] الوطاء: الموافقة، يقال لغة: أَوطأَ فلانٌ فلاناً على الأمر، إذا وافقه، والتواطؤ هو التوافق. الميداني، **المرجع السابق**، ص ١٦٥.

[٤] **المرجع السابق**.

[٥] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٦٣٦.

[٦] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٦٥.

[٧] **المرجع السابق**، ص ١٦٦.

الوصيَّةُ الثانية: ترتيل القرآن

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا(٤)﴾ قال أهل اللغة: "رتَّل الكلام: أي أحسن تأليفه وأبانه وتمهل فيه، والترتيل في القراءة الترسُّل فيها والتبين من غير بغي"[١].

وقد أكد الله عز وجل هذا الأمر بالمفعول المطلق لإفادة تحقيق صفة الترتيل، ولا سيما أنَّ الله عزَّ وجل وصف كتابه المجيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا(٥)﴾[٢] "والقول الثقيل هو من خصوصيات إعجاز القرآن البياني، إذ هو ثقيل المعاني، حمَّال دلالات على مضامين فكرية ذات وزن عظيم في موازين العقول والأفكار"[٣].

أثر هذا التوجيه الرباني في إعداد حامل الرسالة

أ- معرفة أنَّ القراءة سنة متبعة، يأخذها القارئ بسلسلة صحيحة السند إلى رسول الله ﷺ، فمن أخذ بطريقة النبي ﷺ في تلاوته لكتاب الله عزَّ وجل، فكأنما أخذ القرآن غضًا طريًا كما أنزل على قلبه ﷺ، وهذه الطريقة في الأداء "أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرا في القلب من الهذرمة والاستعجال"[٤].

---

[١] **الميداني، معارج التفكر**، ص ١٦٠، ويُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص ٢٦٥.

[٢] استبعد الميداني ما ذهب إليه بعض أهل التفسير من حمل ثقله على ثقل حفظه وتذكره، لأن الله وعد بقوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].
واستبعد حمل ثقله على ثقل العمل به وثقل التزام أحكامه وتكاليفه من أوامر ونواهٍ، لأن الله ما جعل على المسلمين في هذا الدين من حرج ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].
واستبعد حمل ثقله على ثقل تنزيله على جسد الرسول ﷺ فهذا الثقل هو من أثر الوحي، لا من أثر ثقل آيات القرآن.
يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٦٢.

[٣] **المرجع السابق**.

[٤] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص ٢٧٧.

ب–الترتيل يُعين حامل الرسالة على فهم القرآن وتدبر معانيه، فألفاظ القرآن "ثَرَّةُ المعاني، ثقيلة الوزن في الأفهام، لا يستطيع تاليها أن يدرك بسرعة ما فيها من كنوز معان ثقيلة، لما فيها من الإيجاز وجوامع الكلم، وما فيها من القواعد الكلية، والمطويَّات في المثاني"[١] وبالترتيل "يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة"[٢].

ج–قال سيد قطب: "وإن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها، والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى، وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة، واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ﷺ وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير"[٣].

الوصيَّةُ الثالثة: ذكر الله

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ "لفظ (اسم): هو نكرة تَصدُقُ بأي اسم من أسماء الله الحسنى، ولما كان استغراقها متعذرًا أو شاقًا كان المطلوب ذكر الاسم الملائم لحركة حياة

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٦١.

[٢] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٨٦.

[٣] قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٧٤٥.

السابح"[١]، فمن كان يعمل في كسب الرزق فليذكر اسم الله الرزاق، المعطي، الكريم. ومن هَمَّ بارتكاب سيئة، فليذكر اسم الله المنتقم، الجبار، العدل ونحوها، ومن كسب إثمًا أو خطيئة فليذكر اسم الله التواب، الغفور، العفو، الرحيم، ومن عزم على عمل فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله[٢]، وهكذا يبقى السابح في حال ذكر دائم وحضور خاشع لله رب العالمين.

أثر هذا التوجيه الرَّباني في إعداد حامل الرسالة[٣]:

أ- توجيه النفس للعمل بمراضي الله والإخلاص له، والابتعاد عن معصيته.

ب-تجعل الذاكر في حالة مراقبة لله عز وجل عند كل عمل يعمله، أو يخطر له أن يعمله.

الوصيَّةُ الرابعة: التبتل أو الانقطاع إلى الله

قال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا(٨)﴾ أصل البتل"القطع"[٤] و"التَبَتُّل الانقطاع إلى اللهِ تعالى"[٥]

أوضح الميداني أن التَبَتُّل: هو الانقطاع عن كل ما يصرف عن الله عز وجل من الآثام ومحبطات الأعمال، والانشغال بمغانم الدنيا ومتاعها عن الأجر العظيم في الآخرة، والتوجه الكلي لما حصل التبتل إليه، من العمل بما يرضي الله ويقرب إليه زلفى[٦].

---

[١] يطلق السبح على تقلب الإنسان وتصرفه في معايشه، الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٦٦.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٦٩.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**.

[٤] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص ٤٣.

[٥] الفراهيدي، **العين**، ج٨، ص ١٢٤.

[٦] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٧٠.

أثر هذا التوجيه الرَّباني في إعداد حامل الرسالة:

- تربية حامل الرسالة على التَبَتُّلُ إلى الله في كل شيء، ففي النية يكون بالإخلاص إليه، وفي العبادة يكون بإخلاص العبادة والدعوة إليه، وفي القصد والتوجه يكون بقطع الحوائج إليه وحده دون سائر الأشياء غيره[١]، وفي العواطف والمشاعر يكون بانفصال القلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه[٢].

الوصيَّةُ الخامسة: التوكل على الله

قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(٩)﴾ وكَلْته إليك أَكِلُه كِلَةً، أي: فوضته، والوَكيلُ فعله التَّوَكُّل، ومصدره الوِكالة[٣].

قال ابن منظور: "وكلت أمري إلى فلان أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكل فلان فلانًا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه، ووكل إليه الأمر: سلمه"[٤].

وقد أشار الجرجاني إلى معنى جميل في التوكل فقال: "هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس، والتوكيل: إقامة الغير مقام نفسه بالتصرف ممن يملكه"[٥].

---

[١] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٦٨٧- ٦٨٨.

[٢] يُنظر: السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٨٩٢.

[٣] يُنظر: الفراهيدي، **العين**، ج٥، ص ٤٠٥.

[٤] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص ٧٣٤.

[٥] الجرجاني: علي بن محمد، **التعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ج١، ص ٧٠.

يمكن إجمال حقيقة التوكل وهو: إظهار العجز والاعتماد على الله والثقة بما عنده، وتفويض الأمر إليه سبحانه في كل صغيرة وكبيرة. فهو سبحانه القادر على كل شيء، وقد أقام الله عز وجل ما يدعو إلى التوكل عليه، وهو أنه سبحانه وتعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أثر هذا التوجيه الرَّباني في إعداد حامل الرسالة:

- قال الميداني: "لما كانت الربوبية لله وحده، إذ هو وحده المتصرف بكل شيء في الكون، ولما كان هو وحده المستحق لأن يعبد، ولما كان التوكل على شيء غيبي عنصرًا من عناصر العبادة، ولما كان الإنسان بحاجة ماسَّة دوامًا لأن يتوكل في أموره على غيبي قدير عليم رحيم، قال الله عز وجل ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي فاجعله وكيلًا، وقم بأعمالك متوكلًا عليه، حتى ييسر لك الأمور، ويسهل لك الأسباب، ويمدك بالحول والقوة والمعونة، ويصرف عنك الموانع، ويذلل لك العقبات، سواء أكانت أعمال عبادة أم أعمال تحقيق لمطالب الحياة ومعايشها"[1].

في هذه التوجيهات: "تحديد لسلوك الطريق إلى الله عزّ وجل، فمن ليس له قيام ليل، وترتيل قرآن، وذكر وانقطاع إلى الله عزّ وجل، وتوكل عليه، فإنه لا حظ له من السلوك الكامل إلى الله عزّ وجل، وإنما يتفاوت السالكون بقدر حظوظهم من هذه المعاني"[2].

المطلب الرابع: التسبيح وأثره على انضباط السلوك

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٧١.

[2] حوّى، **الأساس في التفسير**، ج١١، ص ٦٢٠٥.

أصل السبح في اللغة "الحركة السهلة التي يحصل بها الانتقال في الماء أو الهواء برفق ولين، ... والعرب تقول (سبحان من كذا) إذا تعجبت منه تعجب إكبار"[١].

وعبارة (سبحان الله) معناها: "أُنزّه الله عن كل ما لا يليق بذاته وبصفاته الجليلة تنزيهًا كتنزيه الله نفسه"[٢].

والتسبيح في دلالات النصوص الشرعية:

يُحمل على تعظيم الله، "فالعظيم الذي تحار الأفكار في عظمته هو المستحق لأعظم التسبيح"[٣].

ويُحمل على سبح اللسان والنفس والفكر والقلب بذكر الله، فسبح اللسان يكون بحمده والثناء عليه، وسبح النفس والفكر يكون بتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله، وسبح القلب يكون بتعظيمه وتكبيره[٤].

وهذا يتحقق حين "يستطيع الذاكر صرف كل العوائق والشواغل والصوارف عنه، فلا تجذبه أو تدفعه من نفسه مطالب خاصة بها، ولا تجذبه أو تدفعه من قلبه عواطف أو انفعالات تعكر عليه صفو سبحه، ولا تجذبه أو تدفعه أفكار خارجة عما هو فيه من سبحٍ بذكر الله جل جلاله"[٥].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٦٨.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٤٤٣.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٤٦٨.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٤٣.

[٥] **المرجع السابق**، ص ٤٦٩- ٤٧٠.

أثر هذا التوجيه الرَّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- البيان بأنَّ "حظ العباد من معرفة الله تتعلق بأسمائه الدّالة على أوصافه، أمّا ذاته جل وعلا فليس لهم حظٌّ من معرفة شيء منها غير أن له ذاتًا موجودة وموصوفة بكل صفات الكمال ومنزهة عن كل صفات النقصان"[١].

ب-تحقيق "جوهر العبادة وروحها، لما فيه من الحضور الكامل مع الله، الخالي من الصوارف والعوائق والمنغصات"[٢].

ج- التسبيح "أنفع دواء للنفس وللجملة العصبية في الإنسان، إذ يمنحه الهدوء والسكينة والطمأنينة، فبالتسبيح يُفرغ المسبح كل الشحنات الضاغطة على فكره وقلبه ونفسه، وبتفريغها يعود إلى سوائه فتعمل قواه الداخلية أعمالها الطبيعية النافعة ضمن أنظمتها الربانية"[٣].

وقد ذكر الميداني وصايا الله عز وجل لرسوله ﷺ بالتسبيح، في ستة مواضع من القرآن الكريم، في ست مناسبات[٤] باعتباره من أنفع الأدوية لعلاج ما ينتاب حامل الرسالة من آلام في النفس، وضيق في الصدر.

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٤٤.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٤٧٠.

[٣] **المرجع السابق**.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٧١-٤٧٢- ٤٧٣- ٤٧٤.

المطلب الخامس: الدعوة إلى شكر النِّعم

أولًا: التحدث بالنِّعمة

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] تعددت أقوال أهل التفسير في النعمة التي ينبغي أن يُتحدث بها، فمنهم من فسرها بالعمل الصالح الذي يعمله العامل ثم يُحدث به ليستن به[١]، ومنهم من فسرها بالنبوّة[٢]. ومنهم من فسرها بـ"القرآن وشرائع الإسلام"[٣]، ومنهم من قال: بل هي عموم النِّعم[٤]، أي ما يشمل عموم "النّعم الدينية والدنيوية"[٥].

إلا أنَّ الميداني يرجح أنَّها نعمة آيات القرآن، وما تحمله من تعاليم وأحكام وشرائع، واستدل بدلالة نصوص قرآنية، وبالسياق الذي وردت فيه الآية.

أولاً: دلالة النصوص فقد عرضها الميداني على النحو التالي[٦]:

١. قول الله عز وجل في سورة القلم خطابًا لرسوله ﷺ وردًا على متهميه بالجنون من قومه: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢)﴾ أي: بنعمة الهداية والإسلام وما يتنزل عليك من القرآن.

---

[١] يُنظر: مجاهد بن جبر، **تفسير مجاهد**، تحقيق: محمد عبد السلام، (مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، ج١، ص ٧٣٥.

[٢] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٤٨٩.

[٣] الزجاج: إبراهيم بن السري، **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ج٥، ص ٣٤٠.

[٤] يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٩٥، وابن جزي، **التسهيل في علوم التنزيل**، ج٢، ص ٤٩١.

[٥] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٩٢٨.

[٦] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧٣- ٥٧٤.

٢. وقول الله عز وجل في سورة الطور خطابًا لرسوله ﷺ أيضًا: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(٢٩)﴾ فما أنت بما ينزل الله عليك من نعمة القرآن وشرائع الإسلام بكاهن ولا مجنون، وفي هذا رد على ما اتهمه به بعض مشركي قومه.

٣. وقول الله عز وجل في سورة العنكبوت: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ(٦٧)﴾ أي: أفبالباطل الذي هو الشرك ولوازمه الجاهلية يؤمنون، وبنعمة الله التي هي شرائع دين الإسلام وآيات القرآن يكفرون؟

٤. وقول الله عز وجل في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا(١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا(٢)﴾ أي ويتم عليك إنزال القرآن وبيان شرائع الإسلام وأحكامه، وكان هذا تمهيدًا وتوطئة لما أنزل الله عليه في سورة المائدة.

٥. وقول الله عز وجل في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. هذه الآية كانت آخر آيات الأحكام الدينية نزولا.....، فالنعمة المرادة هنا هي نعمة إتمام شرائع الإسلام وأحكام الدين، ونعمة الهداية إلى صراط الله المستقيم.

ثانياً: دلالة السياق ذكر الميداني أن نعمة الهداية للصراط المستقيم، هي التي تلائم امتنان الله عز وجل عليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٦][1].

---

[1] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧٥.

أما النعم الدنيوية فيرى الميداني، أنه ينبغي على الناس أن يحمدوا الله عز وجل ويشكروه على ما أولاهم من النعم، وشكرها يكون بالطاعة وحسن العبادة في النيات والأقوال والأفعال، ولا يشترط التحدث عنها بالتفصيل للناس، فهذا قد يثير حسد الحاسدين، ومطامع الباغين[١].

أثر هذا التوجيه الرَّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- يحمل تكليفًا من الله عزَّ وجل لمن مَنَّ عليه بالهداية إلى صراطه المستقيم أن يقابل هذه النعمة العظيمة بالشكر، والذي يُترجم بالدعوة إلى دينه العظيم[٢].

ب-استنبط الميداني من قول الله عز وجل لرسوله ﷺ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أن أسلوب الدعوة إلى دين الله هو أسلوب التحديث، لا أسلوب الخطبة والموعظة العامة ونحوهما إذا كانت الأُمَّة بنفس المرحلة التي نزلت فيها سورة الضحى[٣].

ج- التحدث بالنِّعم "موجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن"[٤].

ثانيًا: مواصلة المجاهدة والرغبة إلى الله

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب(٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨)﴾ [الشرح].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧٥.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٥٩- ٥٧٥.

[٤] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٩٢٨.

يقال لغة: "نَصِب يَنصَبُ نَصَبًا إذا تعب وأعيا"[١]، والنَّصَبُ يكون عادةً من أثر عملٍ فيه جد واجتهاد. وفراغ الإنسان يكون عادة إذا انتهى من عمل كان يعمله، ويقال: فَرَغَ من الشيء إذا أتمَّه"[٢].

ويقال: "رغب العبد إلى ربه إذا سأله طالبًا مبتهلًا متضرعًا"[٣].

والمراد مواصلة المجاهدة في أداء وظائف الرسالة، فما أن يفرغ من عمل إلا اتجه لعمل آخر ينصب فيه ويتعب[٤] آخذا بالدواء الذي يُمد بالعون والقوة والنشاط، ويدفع العسر، ويأتي باليسر، وهو دواء الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى حتى يُقضي له بالتوفيق والتسديد والتأييد والنصر[٥].

أثر هذا التوجيه الرَّباني في إعداد حامل الرسالة:

أ- تربية حامل الرسالة على التضحية والكفاح والجهاد في سبيل الدين الحق حتى حدّ النّصب والتعب، بلا فتور ولا ضعف " وهذا نظير قول الله عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام كما جاء في سورة طه: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢] أي لا تفتُرا ولا تضعُفا عاملين كادحين في القيام بأعباء رسالتكما المشتملة

---

[١] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١، ص ٧٥٨.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٦.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٥٩٧.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٨٤، ويُنظر: الزمخشري حيث قال: "الاجتهاد في العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض، ويتابع ويحرص على أن لا يخلى وقتا من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى" الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٧٢.

[٥] يُنظر: الميداني، **المرجع السابق**، ص ٥٩٦.

على ذكري، فذكر الله بالنسبة إلى حامل الرسالة يكون بالدعوة إلى الإيمان به، والاستمساك بالدين الذي اصطفاه الله لعباده"[١].

ب-عمارة الأوقات وتعاقب الأعمال، فقوله تعالى: ﴿فإذا فرغت﴾ فيه "...تمهيد وإفادة لإيلاء العمل بعمل آخر في تقرير الدين ونفع الأمة، ... وتقديم ﴿فإذا فرغت﴾ على ﴿فانصب﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره لتتعاقب الأعمال"[٢].

أما "قعود الرجل فارغًا من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعينه في دينه أو دنياه من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة"[٣].

ج- النصب والتعب في مغارس الحق والخير، فإن أُريد به وجه الله فهذا يزكو نباته، ويطيب ثمره، ويكثر خيره، وإن كان في غير ذلك، فذلك ما لا ينبت- إن كان له نبات- إلا الشوك والحسك[٤].

د- وفيه "أمر بالتوكل على الله تعالى وصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه"[٥] لذا ينبغي على حامل الرسالة أن يرغب إلى ربه مع كل نفس من أنفاسه، فهو يقصد الله داعيًا راغبًا طالبًا أن يجعل نيته ابتغاء مرضاته ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص:٦٠]، ثم يرغب إلى الله بأن يمده بجند من جنده من البركة والنشاط والقوة وأن ييسر له الأسباب ويذلل له الصعاب فالأمر بيد الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]،

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٦، رائع جدا معنى ذكر الله بالنسبة لحامل الرسالة الربانية.

[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٤١٦.

[٣] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٧٢.

[٤] يُنظر: الخطيب: عبد الكريم يونس، **التفسير القرآني للقرآن**، (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ط، د.ت)، ج١٦، ص ١٦١١.

[٥] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٩٨.

ثم يتوجه إلى الله راجيًا متضرعًا أن يشرح صدور المدعوين، ويجعل لقوله القبول عندهم وقد امتن الله على نبيه عيسى عليه السلام بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١]، ثم يتضرع سائلًا: أن يؤتيه الله الثمرة المرجوة من النصب والتعب وهو حصول الأجر والثواب ويدعو: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] وهذا النصب في سبيل الله من أسباب انشراح الصدر لذا كان أول السورة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(١)﴾، وآخرها: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب(٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨)﴾.

المبحث الثاني: علاقة حامل الرسالة بالمكذبين

نزلت الآيات في أوائل أيام الدعوة ترسم خطًا واضحًا صريحًا للنبي ﷺ، يقوم على "تربيته أن تكون علاقته بالآخرين الذين يرفضون الاستجابة لدعوته قائمة على الصبر، والهجر الجميل، والإمهال، وترك المقاومة"[١] واتباعًا لمنهج الميداني في تتبع حركة المعالجات التربوية الشاملة للرسول ﷺ نذكر أيضًا التوجيه الرّباني المتمثل في عدم طاعة المكذبين، وعدم المداهنة. وتفصيل ذلك كله في المطالب التالية:

المطلب الأول: الصبر

الصبر في اللغة: هو "الحبس، يقال: صبرت نفسي على ذلك الأمر، أي حبستها"[٢].

وأحسن الميداني في وصفه: بأنّهُ قوة خلُقيةٌ من قوى الإرادة، تُمكن الإنسان من ضبط نفسه وحبسها– تجاه ما يُثيرها من محبوب ترغب في الحصول عليه، أو مكروه ترغب في دفعه والتخلص منه– لتَحَمُّلِ المشقات والآلام، وعدم الاندفاع بعوامل الضجر والغضب، والأهواء والشهوات[٣]، وقد عُني القرآن بترسيخ خلق الصبر في أوائل التنزيل، فجاءت سورة (المدثر/٢ نزول) بعد جملة من الوصايا الرّبانيّة بقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(٧)﴾، وجاءت سورة (المزمل/٣ نزول) بعد جملة من الوصايا الرّبانيّة بقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ(١٠)﴾، وسورة (القلم/٤ نزول) جاء في بدايتها جملة من التعليمات الربانية ، وجاء في ختامها قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ(٤٨)﴾،

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٧٥.

[٢] ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج٣، ص ٣٢٩.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٧٣– ٦١٥.

أما سورة (العصر/١٣ نزول) فبينت: أن الصبر هو من أبرز عناصر المنهج الإسلامي، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣)﴾.

يرى الميداني أن الخطاب في سورة المدثر مكي التنزيل ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ وهو موجهٌ بالدَّرجة الأولى للرسول محمد ﷺ، وقد التزم ﷺ توجيه ربه وحقق مضمون أمره[١].

أما نجم سورة المزمل ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ فهو مدني التنزيل مضاف إلى سورة هي من أوائل التنزيل المكي، مستدلًا بما رُوِيَ عن ابن عباس وقتادة من أن الآيتين قد نزلتا بالمدينة[٢].

وكذلك الآيات الثلاث التي تضمنت هذا التوجيه في سورة القلم، في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٥٠)﴾ هي أيضًا نجم مدني مضاف إلى سورة هي من أوائل التنزيل المكي[٣].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٧٢- ٢٠١- ٢٦٥- ٢٦٦.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٥٢، الميداني يرى على الأرجح أن السورة كلها مكية [إلا الآيات ١٠ و١١ و٢٠ فمدنية]، يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٥١، والزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٦٣٤، وقد نقل ابن عطية قول الجمهور في كون السورة كلها مكية إلا قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ) إلى آخر السورة [المزمل: ٢٠]، فإنها قد نزلت بالمدينة، يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٨٦، وممن صرح بمكيتها الطبري، يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، تحقيق: عبد الله التركي، (د.م، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م)، ج٢٣، ص ٣٥٧، والماتريدي، يُنظر: الماتريدي: محمد بن محمد، **تفسير الماتريدي**، **(تأويلات أهل السنة)**، تحقيق: مجدي باسلوم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ج١٠، ص ٢٦٨.

[٣] يُنظر: الميداني، **المرجع السابق**، ص ٢٠١، يرى الميداني أن سورة القلم مكية [إلا الآيات من آية ١٧ إلى آية ٣٣، وكذلك الآيات ٤٨-٤٩- ٥٠]، ووجدت نفس الرأي في **تفسير مقاتل بن سليمان**، ج٤، ص ٤٠١، وعند الماوردي حيث نقل رواية ابن عباس رضي الله عنهما، والتي تشير إلى ذلك، يُنظر: الماوردي، **النكت والعيون**، ج٦، ص ٥٩، ويُنظر: ابن جزي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج٢، ص ٣٩٨، ويُنظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٩، ص ١١، والظاهر أن سورة القلم كلها مكية، وممن صرح بمكيتها الطبري، يُنظر الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ١٤٠، والثعلبي، يُنظر الثعلبي، **الكشف والبيان**، ج١٠، ص ٥.

يرى الميداني أن النبي ﷺ كان محققًا في نفسه وفي سلوكه الصبر المطلوب منه، فجاء الخطاب في نجم سورتي المزمل والقلم "موجهًا للرسول ﷺ باعتباره قائد أمته، وأوامر الله له هي أوامر لهم، فدلَّ هذا الإجراء على أنَّ الدعاة من أمته هم المقصودون بالتوجيه"[١]، ودلَّ كذلك على أن "خطاب الرسول ﷺ هو خطاب لأمته ما لم يكن الأمر من خصائصه الشخصية"[٢].

أما الخطاب في سورة العصر، فيبين واجب المسلم تجاه أخيه المسلم[٣].

و"التواصي بالصبر[٤] يدل باللزوم الذهني على ما ينبغي أن يكون سابقًا له، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المسبوقَين بالنصح والإرشاد اللذين قد حصل قبلهما البيان والتعليم والتبليغ لأحكام دين الله ...وهذا من أبدع الإيجاز"[٥].

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرَّباني:

أ- توجيه الدعاة للتأسي بالرسول ﷺ، إذا كانوا في مرحلة مماثلة لما تلقاه الرسول ﷺ من قومه أبان نزول النجوم المكية، وواجهوا مزعجات مؤلمات، فالمطلوب منهم أن يصبروا في مجالات الدعوة[٦].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٠٢، ويُنظر: ص ١٧٢ -٢٦٥.

[٢] **المرجع السابق**، ص ١٧٢. ويُنظر: ص ٢٦٦.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦١٤.

[٤] التواصي: تشارك في توجيه الوصية، أي يوصي شخصان فأكثر بعضهم بعضا، يُنظر: **المرجع السابق**، ص٦١٣.

[٥] **المرجع السابق**، ص ٦١٤.

[٦] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٧٢- ٢٠١- ٢٠٣.

ب- "إرادة بيان منهاج الدعوة في أوائل مراحلها، وواجبات الداعي إلى الله تجاه ما يلاقيه من الذين يرفضون دعوته ولا يستجيبون له"[١]، فالمطلوب: "تحقيق مضمون هذا المنهج"[٢] من الصبر عليهم، والصبر لحكم الله حتى يقضي الله بحكمه.

ج- الصبر في الحروب الإعلامية، فالمطلوب من حامل الرسالة: "عدم الدخول معهم في صراعات كلامية من شأنها أن تعوق مسيرة الدعوة، وتوقف انتشارها، وتحول المسيرة من نشر الحق والفضيلة والخير إلى مهاترات وشتائم فارغات تُهدَرُ بها الطاقات، وتُضيع فيها الأوقات، فقال الله لحامل رسالة الدعوة أيًا كان بأسلوب الخطاب الفردي: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وعلمه الله أسلوب الهجر الجميل"[٣].

د- الصبر على كل المكاره التي تمس الداعي إلى الله من التكذيب والتعذيب وغيرهما من أصناف الأذى، والصبر على تمكين الله غير المستجيبين لمواجهة الداعي فهذا التمكين يخضع لقوانين القضاء والقدر، وسنة الله العامة في خلقه[٤].

هـ- الصبر على متابعة التذكير، قال الميداني: "وحين نبحث في أحكام الله الدعوية التكليفية الموجهة للداعي، نجد فيها تكليفه أن يستمر في تذكيره ولا يتركه يائسًا، ما دام احتمال نفع تذكيره موجودًا، ولو بنسبة ضئيلة قليلة، فترك التذكير لا يكون إلا بعد التحقق من كون المدعو حالةً ميؤوسًا منها، دل على هذا الحكم قول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى:٩] إذ جاء في الآية حرف الشرط (إن) الذي يستعمل غالبًا في الأمر المشكوك

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٦٦، ويُنظر: ص ١٧٢.

[٢] **المرجع السابق**، ص ١٧٢.

[٣] **المرجع السابق**، ص ١٧٣.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢٦٧.

فيه"[1]، وربط الميداني بين الأمر بالصبر لحكم الله وما وقع من يونس عليه السلام مع قومه في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ فقال: "وفي عرض هذه القصة تحذير لحملة رسالة الدعوة إلى الله المؤهلين لها، من ترك وظائف رسالتهم إذا وجدوا المدعوين غير مستجيبين لدعوتهم، لكن لم تصل أحوالهم إلى دركه يحسن معها الإعراض أو التولي عنهم"[2].

و- القيام بالتواصي بالصبر "يبرز في المجتمع الإسلامي ظاهرة تعليم أحكام الدين والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[3].

خلصت الباحثة مما سبق وعلى حسب نجوم التنزيل استنباطًا من فكر الميداني أنَّ:

آية سورة المدثر: أول آية نزولًا في الصبر، دلالتها تُبين الباعث على الصبر، والدافع إليه وهو الصبر ابتغاء وجه الله تعالى.

آيتي سورتي المزمل والقلم، دلالتهما واحدة تبيّنان للدعاة إلى الله منهج التعامل مع المكذبين المعرضين.

آية سورة العصر، دلالتها تبين فن تعامل المؤمنين مع بعضهم البعض، وهو قيام الدعاة إلى الله بواجب النصح والإرشاد وتعليم أحكام الله لمن معهم في عقيدة الحق من المؤمنين المصدقين.

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٦٧.

[2] **المرجع السابق**، ص ٢٧٠.

[3] **المرجع السابق**، ص ٦١٤.

المطلب الثاني: الهجر الجميل

قال تعالى: ﴿واهجرهم هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠] بعد أن أمر الله عزَّ وجل بالصبر على ما يقول خصوم الدعوة وخصومهم أمرهم كذلك بالهجر الجميل، والذي يكون بالإعراض والابتعاد وعدم مقابلة السيئة بمثلها، أو مقابلتها بغضب وانفعال وحدَّة، بل ربما يقترن به تكريم عن بعد، فهو هجر الحريص على نجاة المكذبين ودخولهم في الصالحين[١].

وقد جمع الزمخشري خلاصة المعنى فقال: "أن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة"[٢].

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرَّباني:

أ- الهجر الجميل: "من شأنه ولو بعد حين أن يُخرس ألسنة الخصوم، ويجعلهم يسأمون من الإلحاح في متابعة الشتائم والاتهامات، ويملون من إطلاقها إذا لم يجدوا من يرد عليهم"[٣].

ب-الهجر الجميل: "من شأنه أن يهدم ما في نفوسهم ضده، ويُلين من قسوتهم نحوه شيئًا فشيئًا، وربما اجتذب من في قلوبهم بذور خير وانصاف وحق وتأثر بالفضيلة وكمال الخلق"[٤].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٧٣- ١٧٤.

[٢] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٦٤٠.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٧٣.

[٤] **المرجع السابق**، ص ١٧٤.

ج- استمرار الدأب على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فلا يُفهم من الهجر ترك دعوتهم وتبليغهم، بل يَفهم منه الإمساك عن مكافأتهم بمثل ما يقولونه، وهو كما قيل: "إظهار الجفوة من غير ترك الدعوة إلى الحق على المناصحة"[١].

المطلب الثالث: ترك المقاومة

خاطب الله رسوله ﷺ في (سورة المدثر/٢نزول) بقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(١١)﴾، وفي (سورة المزمل/٣نزول) بقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا(١١)﴾ وفي (سورة القلم/٤نزول) بقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُون(٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(٤٥)﴾[٢].

والمتأمل في هذه النصوص يجد أن بينها رابط مشترك من حيث الأسلوب والمضمون:

أما الأسلوب، فهذا الأسلوب من التعبير (ذَرْنِي)، (وَذَرْنِي)، (فَذَرْنِي) "يتضمن تهديدًا ووعيدًا شديدًا لمن يُراد تهديده ووعيده، وهذا التهديد موجه من الرب الخالق جل جلاله، لا من الرسول ﷺ"[٣]، والمعنى: "دعني واتركني"[٤]. أي: "خل بيني وبينه، فأنا أتفرد بهلاكه"[٥] و "لا تشغل قلبك به، كله إليّ فإني أكفيك أمره"[٦]. "وهو هنا مجاز في عدم الاهتمام بهم وقلة الاكتراث باستهزائهم"[٧].

---

[١] ابن فورك: محمد بن الحسن، **تفسير ابن فورك – من أول سورة نوح – إلى آخر سورة الناس**، دراسة وتحقيق: سهيمة بنت محمد، (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩ م)، ج٣، ص ٦٨.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٠١.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٩٩، ويُنظر: ص ١٠١- ١٧٤- ٢٥٧.

[٤] **المرجع السابق**، ص ١٠٠.

[٥] مقاتل بن سليمان، **تفسير مقاتل بن سليمان**، ج٤، ص ٤٩٤.

[٦] الزجاج، **معاني القرآن وإعرابه**، ج٥، ص ٢١١.

[٧] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٧، ص ٢٩٥.

وأما المضمون فقد تضمنت الآيات وصية الرسول ﷺ، ويلحق به كل داعٍ إلى الله، إذا واجه من يقف صادًا مُعارضًا مُقاومًا للدعوة بحرب إعلامية أو حرب جسدية إيذائية، أن يترك المواجهة ولا يدخل معهم في صراع كلامي أو جسدي فهذا من شأنه أن يعوق مسيرة الدعوة، أو أن يؤلب عليه جماهير الناس فتتوقف حركة الداعي ولا يستطيع القيام بوظائف رسالته[١].

ويلمح المتأمل أن آية المدثر كانت في حصر المواجهة بالوليد بن المغيرة، إمام المعاندة في هذه المرحلة، وآية المزمل جاء فيها الأمر بالإمهال، وآية القلم جاء فيها بيان حكمة هذا الإمهال، كما يراه الميداني وكما سيأتي بيانه في هذا المبحث بإذن الله تعالى.

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرَّباني:

أ- أشار قطب -كما فعل الميداني- إلى الحقيقة ذاتها: وهي أن المعركة بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر هي معركة الله سبحانه وتعالى، وهي حربه التي يتولاها بذاته. وهذه الحقيقة من شأنها أن تسكب الطمأنينة في قلوب المؤمنين سواء في حالة قوتهم أو ضعفهم فالنصر من عند الله، ومن شأنها كذلك أن تلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فليس المؤمن هو الذي ينازلهم، إنما هو الله الذي يتولى المعركة بقوته وجبروته[٢].

ب-بيان الموقف الذي يجب أن يتخذه الدعاة تجاه المكذبين إذا كانوا في مرحلة مماثلة للمرحلة المكية، وهو موقف تركهم لله بارئهم وعدم مصارعتهم؛ لئلا ينصرف الجهد عن القيام بواجبات الرسالة إلى أمور معوقة[٣].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٩٩- ١٠٠ -١٠١- ٢٥٧.

[٢] يُنظر: قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٦٦٩-٣٦٧٠.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٥٧- ٢٥٩.

المطلب الرابع: الإمهال

قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ **وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا**﴾ وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(٤٤) **وَأُمْلِي لَهُمْ** إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

يقال لغة أَمْهَلَه أي "أَنظره ورَفَق بِهِ وَلَمْ يَعْجَلْ عَلَيْهِ"[١] و"أطال له مدة التريث والانتظار"[٢].

والإملاء هو: "الإمهال والتأخير وإطالة العمر، يقال لغة: أملى الله له، أي أمهله وطوَّل له"[٣].

عن عائشة رضي الله عنها قالت:" لما نزلت هذه الآية: (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا) ... الآية، قالت: لم يكن إلا يسير حتى كانت وقعة بدر"[٤].

ويُفهم من كلام الميداني أنَّ الصبر على المكذبين ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ مع استمرار الدأب على الدعوة إلى الله ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، وتركهم لله وإمهالهم ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ وعدم الدخول معهم في صراعات مادية أو حروب إعلامية والانشغال بوظائف الدعوة، هذا كله من شأنه أن يؤدي إلى الأثرين اللذين قد دلَّ عليهما قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

قال الميداني: "الأثر الأول: الاستدراج إلى مواقع الاستجابة للدعوة، وقبول منطقها، والاهتداء بهداها، .... وهذا ما حصل فعلا لكثير من الذين كانوا مكذبين، ... لقد استدرجهم الصبر، والدأب والمثابرة على الدعوة، ... إلى مشرق نور الحق، وصدق دعاته،

---

[١] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص ٦٣٣، ويُنظر: الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج٢، ص ٢٣١.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٧٥.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٢٥٨.

[٤] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٦٩٠، ويُنظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٩، ص ٤٦.

فاستجابوا واهتدوا. فصار كثير من قادة جيش الكفر وجنوده بالأمس، قادة وجنودًا في جيش الإسلام بعد ذلك.

الأثر الثاني: اغتنام الوقت وكسبه لبناء الأمة الربانية، وتدعيم أركانها، وشد أواصرها، وإعداد جيشها، لتكون قادرة على مواجهة أعدائها إذا حزب الأمر، ودعت الضرورة للمواجهة المادية المسلحة. فإذا تم الإعداد المُرَشَّحُ للانتصار والظفر، ظهر أن كيد الإمهال كيد متين وإن طال حبله، فالظافر هو الظافر أخيرا"[1].

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرَّباني:

أ- الإمهال كفيل بحل الكثير من الأزمات: قال الميداني: "هذا التوجيه يتضمن أن الزمن يحل كثيرا من العُقد، ويُسهل كثيرًا من الصعاب، وله في النفوس البشرية مع الحلم والصبر والإحسان آثار نافعة جدًا، والإمهال القليل تنصرف القلة فيه إلى الزمن، والسنوات العشر في مكة قبل مواجهة المكذبين بمعارك قتالية في المدينة تعتبر في تاريخ الدعوات مدَّة قليلة، فقد كان إمهالهم طوال المرحلة المكية إمهالًا قليلًا"[2].

ب-حماية الأمة من الخيبة والفشل، فالذين يثيرون الصراعات المادية، قبل استكمال مرحلة البناء، فقد أجهضوا ما بني منها، وهي في المرحلة الجنينية، أو قتلوها، أو عرضوها للاستئثار وهي في مرحلة الطفولة أو المراهقة، أو اليفاع ولم تصل بعد إلى مرحلة الرجولة القادرة على الدفاع أو الغلب[3].

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٦٠- ٢٦١.

[2] **المرجع السابق**، ص ١٧٥، بتصرف يسير.

[3] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٥٩.

قال الميداني عند تدبر قوله تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ [الطارق:١٧] "ثلاث عبارات متتابعات والمعنى واحد، وفي ظني أننا لا نجد في القرآن المجيد تأكيدًا على أمر واحد مثل هذا التأكيد الذي يوحي بالتحذير من المخالفة، والغرض تحذير المؤمنين من التعجل في اتخاذ وسائل انتقامية، توقعهم في ورطات يكونون فيها من الفاشلين أو الخائبين، وإلزامهم بالصبر، انتظارًا لما يقضيه الله من أمر، إذ المسلمون يومئذ لا يملكون من سنن الأسباب القدرات الكافيات لمواجهة قوى مشركي مكة، وخوض المسلمين حينئذ معارك قتالية معهم عملية انتحارية لم يأذن الله بها"[١].

ج- دعوة الأمة إلى الاتخاذ بالأسباب، وقد "قضت حكمة الله بأن لا تكون عُمدة الأمة الإسلامية على الخوارق والمعجزات، وإنما شاءت حكمته أن تكون عمدتهم على الأسباب الكونية الخاضعة لسنن الله الدائمة، المصحوبة بالمعونات المحدودات التي يجعلها الله للمؤمنين بمقتضى هذه السنن"[٢].

د- بيان عناصر المنهج الرباني في المراحل الأولى من الدعوة[٣]:

العنصر الأول: الصبر مع الدأب المستمر في الدعوة إلى الله وعدم إثارة الصراعات، وتجميع المستجيبين، وتربيتهم على أخلاق الإسلام وشرائعه.

العنصر الثاني: محاولة استدراج من تلين عريكته من المكذبين شيئًا فشيئًا، وضمهم إلى بناء الأمة الربانية.

العنصر الثالث: اغتنام الوقت في إعداد الأمة، واتخاذ الأسباب المادية والمعنوية.

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ج٣، ص ٢٨٤- ٢٨٥.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٢٨٥.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ج١، ص ٢٥٩- ٢٦١.

المطلب الخامس: عدم الطاعة وترك المداهنة

الطاعة: "الانقياد[١] والمتابعة والاستجابة للطلب، يقال لغة: طاع فلان فلانًا طوعًا وطاعة وطواعية، وأطاعه إطاعةً إذا انقاد له وتابعه واستجاب لطلبه"[٢]، "وَالطَّاعَة تسْتَعْمل لموافقة أَمر الله وَأمر غَيره"[٣].

المداهنة: يقال لغة: "أدهن الرَّجل، أي أظهر خلاف ما يُبطن[٤]، ... ويقال: داهن فلانٌ فلانًا، إذا داراه ولاينه، وإذا خدعه وغشه"[٥]، ومعنى تُدهن أي: "تلين ولا تتشدد"[٦].

وبناءً على ما درج عليه الميداني نعرض الأمر كالتالي:

- في سورة العلق النهي الصريح من قِبَل الطاغي لترك الصلاة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى(١٠)﴾ فكان القول الفصل في السورة نفسها: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩)﴾.
- في سورة القلم النهي المبطن من قِبَل الطغاة عن اتباع الدين المتمثل في المداهنة، فكان القول الفصل: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) ودُّوا لو تُدهنُ فيُدهنون (٩)﴾.

عند تأمل هذه النصوص الربانية نلحظ أنه يجمعها رابط مشترك يتمثل في التالي:

---

[١] يُنظر: الفراهيدي، **العين**، ج٢، ص ٢٠٩، والزبيدي، **تاج العروس**، ج٢١، ص ٤٦١.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢١٦.

[٣] أبو البقاء: أيوب بن موسى، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت)، ج١، ص ٥٨٣.

[٤] يُنظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج٢، ص ٣٠٨.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢١٦، ويُنظر: مصطفى: إبراهيم وآخرون: **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، (القاهرة: دار الدعوة، د.ط، د.ت)، ج١، ص ٣٠١.

[٦] عبد الباقي: محمد فؤاد، **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، (بيروت: دار القلم، د.ط، د.ت)، ج١، ص ٤١٩.

أولًا: النهي المطلق: "ووقوع فعل تطع في حيز النهي يقتضي النهي عن جنس الطاعة لهم فيعم كل إجابة لطلب منهم"[١].

ثانيًا: التكذيب: "واختير تعريفهم بوصف المكذبين دون غيره من طرق التعريف؛ لأنه بمنزلة الموصول في الإيماء إلى وجه بناء الحكم وهو حكم النهي عن طاعتهم فإن النهي عن طاعتهم لأنهم كذبوا رسالته"[٢].

"...فالمطيع لهم مقدم على ما يضره في دينه ودنياه، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب"[٣].

ثالثًا: في الآيتين بيان **منهج الطغاة البغاة في التعامل مع المسلمين:** وهو موقف مرتبط بحال انتشار الإسلام وامتداده من عدمه.

في حال الضعف: يكون النهي بشكل صريح جريء وقح، مقرونًا بالتهديد والوعيد من القوى الغاشمة.

وقد ضرب الله مثلًا للدعاة إلى سبيله بفرعون هذه الأمة أبي جهل، والذي قال: «هَلْ يعفِّر مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يُصَلِّي كَذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، ولأعفِّرن وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، ...»[٤]، فأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ فلم ينه الله رسوله ﷺ عن عدم الطاعة فحسب، بل أمره بالثبات ودوام الطاعة، فقال عز وجل: (وَاسْجُدْ) وعطف عليه (وَاقْتَرِبْ).

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٦٨.

[٢] **المرجع السابق**.

[٣] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٨٨١.

[٤] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (إن الإنسان ليطغى)، ج٤، ص ٢١٥٤، رقم الحديث (٢٧٩٧).

"والاقتراب: افتعال من القرب، عبر بصيغة الافتعال لما فيها من معنى التكلف والتطلب، أي اجتهد في القرب إلى الله بالصلاة"[١]، وخص السجود بالذكر لأن فيه غاية الخضوع الجسدي والقلبي والنفسي لله رب العالمين[٢].

قال الميداني: "هذا الإعلان الصريح فيه تثبيت لكل الدعاة إلى الله على الإيمان والطاعة لله، وعلى زيادة التقرب إليه بالسجود، لنيل فيوض عطاءات الله لهم بالاقتراب إليه بكمال الخضوع"[٣].

أما في حال امتداد الإسلام وانتشاره: يكون الأمر بشكل مبطن ملتوٍ فيه المفاوضات والمساومات والتوفيقات الكاذبات المزيفات، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ(٨) ودُّوا لو تُدهنُ فيُدهنون(٩)﴾.

وفي هاتين الآيتين بيان المنهج الرباني للنبي ﷺ ولكل داع إلى سبيله بعدم طاعة المكذبين ولو على سبيل المداهنة، فما من أمر يعرضونه إلا من شأنه الإخلال بواجبات الرسالة والدعوة، أو الإخلال بمبادئ الدين وأحكام الشريعة، أو التنازل عن الدعوة وبعض مضامينها[٤]، والدين كله حق و"لا يملك الناس فيه إلا الإيمان والاتباع"[٥].

وقمة الدعوة إلى المداهنة تتجلى فيما رُويَ عن ابن عباس– رضي الله عنه – قال: دعت قريش رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص٤٥١.

(٢) يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٧٠.

(٣) **المرجع السابق**، ص ٤٠.

(٤) ينظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢١٦– ٢١٧.

(٥) **المرجع السابق**، ص ٧١١.

النساء، ويطؤون عقبه[١]. فقالوا: هذا لك عندنا يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بشر، فإن بغضت، فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، ولك فيها صلاح، قال: «وما هي؟» قال: تعبد اللات والعزى سنة، ونعبد إلهك سنة، قال: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي»، فجاء الوحي من عند الله – عز وجل – من اللوح المحفوظ: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورة، وأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ* وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ* بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٤-٦٦][٢].

البعد الدعوي في هذا التوجيه الرباني:

أ- الحفاظ على عُرى الإسلام، "فإن أي تظاهر يعلنه حامل الرسالة وفيه ما يتناقض مع مبادئه وأحكام شريعته هو في الحقيقة إلغاء ضمني لكل دعوته، ونقض لكل رسالته"[٣].

ب-الحفاظ على نقاء وطهارة الدين، ذلك "إن عرض المشركين يتضمن مفاوضة توفيقية بين الإيمان والكفر، ... ودين الله حقٌ كله، فلا يقبل التبعيض ولا الاختلاط ولا الامتزاج بالباطل، ومتى امتزج بالباطل تنجس فلم يبق طهورًا ولا طاهرًا، ويمسي غير مقبول عند الله عز وجل"[٤].

ج- التحذير من اختلاق دين جديد أو اغتيال الدين الحق، فالمداهنة ترمي إلى "تأليف دين جديد مختلط من حق وباطل، في مزيج أو خليط متنافر، تتنافر عناصره أولًا، ثم تهدأ

---

[١] أي: يمشون خلفه والمقصود يقدمونه في المجلس ويعظمونه ويحترمونه.

[٢] عبد الجبار: صهيب، **الجامع الصحيح للسنن والمسانيد**، (د.م، د.ن، د.ط، ٢٠١٤م)، كتاب التفسير، باب تفسير القرآن سورة (قل يا أيها الكافرون)، ج٢٢، ص ٢٥٨، وحسنه الألباني في صحيح السيرة.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٥.

[٤] **المرجع السابق**، ص ٧٠٦، ويُنظر: ص ٧٠٣.

ليتألف منها باطل جديد، تضيع عناصر الحق فيه وتفسد"[١] "وأيَّة محاولة للتوفيق بين الحق والباطل، إنما هي تقوية للباطل على الحق، وتكثير لسواده، وتجميع لقواه، حتى ينقض على البقية الباقية من الحق فيغتالها"[٢].

د- في هذا التوجيه الرباني، "تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم"[٣].

هـ- حامل الرسالة إذا داهن في دين الله سقطت من أعين الناس وجاهته، وظهرت آثار مداهنته من خلال أقواله وأفعاله وفتاويه، "وبدا لخصومهم أنهم أصحاب منافع ومصالح دنيوية، لا أصحاب مبادئ حق يدعون الناس إليها، ويكافحون من أجلها، ولا يقبلون المساومة عليها"[٤].

و- عدم الاغترار بالمداهنة أو المساومة بحجة المحافظة على وحدة الصف، ودرء الفتن، وحماية المجتمع من الأعداء، فالذي يقبل المساومة من الحقوق هي الحقوق الشخصية، فللفرد أن يساوم ويصالح على حق مالي، أو منصب عالي، فيتنازل عنه أو عن جزء منه حرصًا على وحده الصف، وجمع الكلمة، واستبقاء الألفة والمحبة بين الأخوة[٥].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٧١٠.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٧١٣.

[٣] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٥٨٦.

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٧١١.

[٥] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٧١٢.

الفصل الثالث: الإعداد النفسي لحامل الرسالة

المبحث الأول: الدِّفاع الرّباني عن حامل الرسالة

المطلب الأَول: السَّفع بالنّاصية ودعوة الزّبانية.

المطلب الثاني: الصَّعود على عقبة كؤود.

المطلب الثالث: نفي الجنون عن النبي ﷺ.

المطلب الرابع: الوسم على الخرطوم.

المطلب الخامس: الهلاك والقلادة من مسد.

المطلب السادس: القسم أن الله ما ودّع النبي ﷺ وما قلاه.

المطلب السابع: شانئ النبي ﷺ هو الأبتر من كل خير.

المبحث الثاني: الوعود الرّبانية لحامل الرسالة.

المطلب الأول: وعود تتعلق بحامل الرسالة.

المطلب الثاني: وعود تتعلق بمهام الدعوة.

المبحث الثالث: الامتنان الرّباني على حامل الرسالة

المطلب الأول: أوجه المِنَّة الرّبانية في سورة الضحى.

المطلب الثاني: أوجه المِنَّة الرّبانية في سورة الشرح.

المطلب الثالث: أوجه المِنَّة الرّبانية في سورة الكوثر.

المبحث الأول: الدفاع عن حامل الرسالة

اعتصم النبي ﷺ بالمنهج الرَّباني في التعامل مع المكذبين، فبدأت سلسلة من القذائف الإعلامية الموجهة ضده ﷺ، يقابلها سلسلة من الدفاع الرباني عنه ﷺ، وقد تتبعها الميداني من بدء التنزيل حتى نزول سورة الضُّحى[١]، ثم أعاد ذكرها حتى نزول سورة الكوثر[٢]، وهي على النحو التالي[٣]:

أولًا: في سورة (العلق/١ نزول) ردّت الآيات على أبي جهل الذي نهى الرسول ﷺ عن الصلاة فقال تعالى: ﴿كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ(١٥) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ(١٧) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ(١٨)﴾.

ثانيًا: في سورة (المدثر/٢ نزول) ردّت الآيات على الوليد بن المغيرة الذي اتهم الرسول ﷺ بأنَّه ساحر، واتهم رسالته بأنها سحر يؤثر، فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ حتى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:١١-٢٦].

ثالثًا: في سورة (القلم/٤ نزول) تولَّى الله عز وجل الدفاع عن رسوله ﷺ ضد الذين اتهموه بالجنون، فقال تعالى: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤)﴾.

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٥٦.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦٥٣.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٥٧ – ٦٥٣.

حين تتبع مراحل التنزيل السابقة حتى سورة الضُّحى ذكر الدفاع الوارد في سورة العلق، وحين تتبع سلسلة القذائف الإعلامية حتى سورة الكوثر لم يذكر موضع سورة العلق، وبدأ بموضع المدثر، وقد قمت بدمج الموضعين.

رابعًا: في سورة (المسد/٦ نزول) تولَّى الله عز وجل الدفاع عن رسوله ﷺ ضد شتيمة عمه (أبي لهب) وضد إساءات امرأته (أم جميل) فأنزل الله سورة المسد ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥)﴾.

خامسًا: في سورة (التكوير/٧ نزول) واجه الله عز وجل المشركين بالدفاع عن رسوله ﷺ فقال لهم: ﴿وما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ(٢٢)﴾.

سادسًا: في سورة (الضحى/١١ نزول) تولَّى الله عز وجل الدفاع عن رسوله ﷺ ضد شائعة أن ربه قد هجره وقلاه، بسبب انقطاع الوحي عنه أيامًا معدودات، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(٣)﴾.

سابعًا: في سورة (الكوثر:١٥ نزول) استغل بعض المشركين موت ولديه الذكرين القاسم وعبد الله، فأطلقوا أنه أبتر، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ(٣)﴾.

لم يذكر الميداني موضع الدفاع ردًا على من ادَّعى أن القرآن أساطير، قال تعالى: ﴿إذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[القلم:١٥] فقال الله عز وجل بشأنه: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٦] وقد أدرجت هذا الوعيد ضمن مطالب هذا المبحث[1].

---

[1] سأعرض سلسلة الدفاع على هيئة مطالب، ثم في أغلب خطوط الدفاع يتم إيضاح سبب هذا الوعيد، ومن ثمَّ بيان دلالته وأثره على حامل الرسالة، والعمدة في هذا الأمر ما تطرق إليه الميداني، ومن ثم النظر فيما تطرق إليه غيره من المفسرين.

المطلب الأول: السفع بالنّاصية ودعوة الزّبانية

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ المَلاَئِكَةُ»[1].

توعد الله عز وجل أبا جهل الذي نهى الرسول ﷺ عن الصلاة بقوله: ﴿كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ(١٥) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ(١٧) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (١٨)﴾.

لفظ السفع لم يأت في القرآن الكريم إلا في آية العلق[2]، يقال: "سفعه على وجهه إذا لطمه براحته، وسفعه بالعصا إذا ضربه بها، وسفعه بناصيته ورجله إذا قبض عليهما قبضًا شديدًا بعُنف، وجذبه منهما وأخذه"[3].

أما النّاصية فقد وردت في موضعين إضافة إلى موضع العلق، الأول في قوله تعالى: ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦] والثاني في قوله: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١].

والمقصود بها: "مُقدم الرأس، وشعر مقدم الرأس إذا طال، وتجمع على نواص وناصيات"[4]، وقد جاء وصفها بأنها: ﴿ناصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

---

[1] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب تفسير القرآن، باب (كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة)، ج٦، ص ١٧٤. رقم الحديث (٤٦٧٥).

[2] يُنظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**، ص ٣٥٢.

[3] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٧، ويُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٨، ص ١٥٦.

[4] الميداني، **المرجع السابق**، ص ٦٨، ويُنظر: ابن منظور، **المرجع السابق**، ج١٥، ص ٣٢٧.

أما لفظ الزَّبانِية فلم يرد إلا في موضع سورة العلق وهي عند العرب الشُّرَطُ، وكل مادة زبن من الدَّفْع[١]، وسمى الله بعض ملائكته زبانية؛ لدفعهم أهل النار إليها[٢].

دلالة هذا الوعيد الرباني:

أ- الناصية لها عند العرب شأن عظيم فهي: "مكان التكريم الأعلى من الإنسان"[٣]، وهي "مصدر الغرور والكبرياء"[٤]، لذا كان معروفًا عندهم أنهم "إذا أرادوا إذلال إنسان وعقابه، سحبوه من شعر رأسه"[٥]، و"كانوا يقُصّون نواصي من يتمكنون منه من أعدائهم؛ لإذلالهم"[٦] "وفيها مع ملحظ التمكن والتسلط والاقتدار، دلالة الهوان والإذلال والعقاب للمأخوذ بنواصيهم"[٧].

لقد أراد الشقي أبو جهل إذلال النبي ﷺ بقوله: (لأطأن على عنقه)[٨] فتوعده الله بما هو "عند العرب أبلغ في الاستذلال والهوان"[٩] فقال سبحانه: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾.

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٩، وابن منظور، **لسان العرب**، ج١٣، ص ١٩٤.

[٢] الميداني، **المرجع السابق**، ويُنظر: السمرقندي: نصر بن محمد، **بحر العلوم**، (د.ن، د.م، د.ط، د.ت)، ج٣، ص ٥٩٩، والبغوي: الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ)، ج٥، ص ٢٨٢.

[٣] الميداني، **المرجع السابق**، ص ٦٨.

[٤] المراغي: أحمد بن مصطفى، **تفسير المراغي**، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م)، ج٣٠، ص ٢٠٤.

[٥] طنطاوي: محمد سيد، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، ط١، ١٩٩٨)، ج١٥، ص ٤٥٧.

[٦] جبل، **المعجم الاشتقاقي**، ج٢، ص ١٠٢٦.

[٧] بنت الشاطئ: عائشة محمد علي، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، (القاهرة: دار المعارف، ط٧، د.ت)، ج٢، ص ٣٠.

[٨] **سبق تخريجه**، ص ١١٢.

[٩] الماوردي، **النكت والعيون**، ج٦، ص ٣٠٨.

ب–السفع يدل على الضرب على الناصية، والقبض عليها قبضًا شديدًا، وأخذه منها، وجذبه إلى النار حيث ينزل به العذاب، وهذه المعاني يمكن أن تجتمع كلها في هذا الطاغي إن لم ينته عن أعمال العدوان التي يقوم بها[١].

ج–في وصف الناصية بأنها كاذبة خاطئة، بيان لحقيقة كل طاغٍ و"أنه هو في هويته الداخلية كاذب خاطئ، وهذا مجاز مرسل، وهو من إطلاق بعض الظاهر وإرادة الباطن..."[٢]، وكُرِّرت مرتين "... فذكرت الأولى للتنصيص على أنها ناصية الناهي، والثانية لتوصف بما يدل على علة السفع وشموله لكل من وجد فيه ذلك"[٣] وهذا الوصف يدل أيضًا على أنها "رأس فارغة من كل خير، حشوها الكذب والضلال، ونبتها الخطيئة والإثم، فكانت النار أولى بها، حطبًا ووقودًا"[٤].

د– إظهار التحدي الصريح في قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾ وهو أمرُ تحدٍّ بأسلوب خطاب الغائب، احتقارًا له وازدراء به، وقد ذُعر أبو جهل من هذا الوعيد الرباني، ولم يستنصر بأحد من أهل ناديه، وأعرض عن متابعة الرسول ﷺ في عبادته[٥].

هـ–نفي الظلم عن الله قال تعالى: ﴿وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[آل عمران:١١٧] فالله عز وجل وصف النّاصية بالكاذبة، والكذب هو: "الإخبار بخلاف

---

[١] ينظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٨.

[٢] **المرجع السابق**.

[٣] الخفاجي: أحمد بن محمد، **حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي**، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، (بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت)، ج٨، ص ٣٨١.

[٤] الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، ج١٦، ص ١٦٢٩.

[٥] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٩.

الواقع أو الاعتقاد"[١]، فهو يخالف ما في قرارة نفسه من العلم بأن هذا الدين حق، ويخالف كل الوقائع التي تشهد بصدقه، ولا أصدق مما اعترف هو به بلسانه حين قال: "إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً"[٢]، ووصَف سبحانه صاحبها بأنّه خاطئ[٣] وهو من تعمد فعل الخطأ[٤]، وأقبحه ما يكون في قلب الموازين، فبدل أن يطيع الرسول ﷺ ، أراد هو أن يُطيعه الرسول ﷺ.

أثر هذا الوعيد الرباني على حامل الرسالة:

أ- الخشية من الله وحده، حين يعلم العباد أن نواصيهم بيد الله وهي تحت سلطانه وقدرته، ويعلموا عن "اقتداره تعالى وقهره لكل ما يدب على الأرض"[٥]، فهذا مما يبعث الطمأنينة في القلوب، فلا يخشى حامل الرسالة إلا الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

---

[١] مجمع اللغة العربية: **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، (جمهورية مصر العربية: د.ن، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م)، ج٢، ص ٩٦٠.

[٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (إن الإنسان ليطغى)، ج٤، ص ٢١٥٤، رقم الحديث (٢٧٩٧).

[٣] الفرق بين الخاطئ والمخطئ أن الخاطئ معاقب مؤاخذ والمخطئ غير مؤاخذ، يُنظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣٢، ص ٢٢٤.

[٤] يُنظر: السمين الحلبي: أحمد بن يوسف، **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م)، ج١، ص ٥١٠.

[٥] **المرجع السابق**، ج٤، ص ١٨٥.

ب–العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وما نزل في شأن أبي جهل هو زجر وردع لصنف الطغاة، الذين يحاربون شرع الله ويحاربون أولياءه، إما بعذاب معجل في الدنيا، أو مؤجل في الآخرة[1].

المطلب الثاني: الصّعود على عقبة كؤود[2]

روى الطبري عن عكرمة، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال... فقل فيه قولًا يعلم قومك أنَّك مُنكر لما قال، وأنك كاره له؛ قال: فما أقول فيه، فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه مني، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه؛ فلما فكَّر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، ... حتى بلغ ﴿عليها تسعة عشر﴾[3][المدثر: ١١–٣٠].

---

[1] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٤.

[2] الكؤود: "المرتقى الصعب،... الكَأْداءُ الشدة والخوف والحذار، ويقال: الهول.."، ابن منظور، **لسان العرب**، ج٣، ص ٣٧٤.

[3] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٢٤.

تولَّى الله عز وجل مواجهة الوليد بن المغيرة في سورة المدثر بقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(١١)﴾[١]، وبقوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا(١٧)﴾[٢]، وبقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(٢٦)﴾[٣] وسبب هذا كُلّه ﴿كلا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا(١٦)﴾.

والعنيد: هو "الذي يجحد الحق ويرده ويخالفه مع أنه يعرف أنه حق"[٤]، أو "هو مخالفة الحق عن علم بظهور الحق.. فيخالف ما يثبته عقله بالأقوال أو بالأفعال"[٥]. وهذا ما وقع منه فعلًا، فقد "روى جمهور المفسرين أن الوليد سمع من القرآن ما أعجبه ومدحه، ثم سمع كذلك مرارًا حتى كاد أن يقارب الإسلام"[٦].

دلالة هذا الوعيد الرباني:

أ- تنوع الوعيد بتنوع الأعمال الخبيثة، "وقد وزع وعيده على ما تقتضيه أعماله فإنه لما ذكر عناده وهو من مقاصده السيئة الناشئة عن محافظته على رئاسته وعن حسده النبي ﷺ وذلك من الأغراض الدنيوية عقب بوعيده بما يشمل عذاب الدنيا ابتداء ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ ولما ذكر طعنه في القرآن بقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

---

[١] يُنظر: **الفصل الثاني**، ص ٩٧.

[٢] يقال: "أرهق فلان فلانا إذا حمله ما لا يطيق، والصَّعود: "العقبة الشَّاقة، والمشقة، والطريق الصَّاعدة" الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٠٥، وذكر هذا القول عدد من المفسرين، يُنظر: السمعاني، **تفسير القرآن**، ج٦، ص ٩٣، وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٩٤.

[٣] يقال: "صلي النار، وصلي بها، إذا احترق فيها، ولامس لهبها جسده مُحرقاً، ويقال أيضا: أصلاه في النار وأصلاه بها، أي: أدخله فيها ليحترق" الميداني، **المرجع السابق**، ص ١٠٩، ويُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٤، ص ٤٦٨.

[٤] الميداني، **المرجع السابق**، ص ١٠٤.

[٥] الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، ج١٠، ص ٣٠٨.

[٦] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٩٤.

يُؤْثَرُ﴾[المدثر:٢٤]، وأنكر أنه وحي من الله بقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[المدثر:٢٥] أردف بذكر عذاب الآخرة بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَر﴾"[١].

ب-طريق الكفر طريقٌ وعرٌ شاق، يقال: "لأرهقنك صعودًا أي لأجشمنك مشقة من الأمر"[٢] أي: "سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له منها"[٣]، "وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذي لا يطاق"[٤]، والآية فيها "تعبير مصور لحركة المشقة، وهو في الوقت ذاته تعبير عن الحقيقة، فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر

الودود، يندب في طريق وعر شاق مبتوت، ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق كأنما يصعد في السماء"[٥]، أما في الآخرة فيكون عذابه"...في جهنم ذي صفة خاصة، وهو تحميله ما لا يُطيق صاعدًا على عقبة كؤود"[٦].

ج- التفكير مهما طال لإبطال الحق وإحقاق الباطل، هو تفكير يورد صاحبه المهالك، وقد فصل القرآن تفصيلًا عجيبًا ما وقع من الوليد بن المغيرة الذي أجهد نفسه وفكره في فرض الاحتمالات، وصمَّم على تسخير ما وهبه الله من قدرات تفكير لتزيين الكفر

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص٣٠٧.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٠٦، ووجدته بلفظه في لسان العرب، يُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٣، ص ٢٥١.

[٣] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٢٢، والثعلبي، **الكشف والبيان**، ج١٠، ص ٧٢.

[٤] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٦٤٧.

[٥] قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٧٥٧.

[٦] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٠٥.

بآيات الله، وهذا النموذج يتكرر من أهل العناد والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[١].

من بلغ غاية الجحود والعناد انطبق عليه الوعيد المتمثل في قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَر﴾ وقد زاد هذا الوعيد تهويلًا بتجهيل سقر ﴿وما أدراك ما سقر﴾ [المدثر:٢٧].

قال الميداني: "هذه العبارة وأشباهها في القرآن صيغة من صيغ التعجيب القرآنية المبتكرة ضمن قواعد اللسان العربي. والمعنى: أعظم بأمر سقر إعظامًا لا تصل إليه درايتك مهما فكرت وسبحت في تصوراتك، لأنه لم يمر في خبراتك ولا في تصوراتك شيء، يجعلك تقيس هذا الأمر عليه"[٢].

المطلب الثالث: نفي الجنون عن النبي ﷺ

تولى الله عز وجل مواجهة من اتهم نبيه ﷺ بالجنون بالدفاع عنه، فقال في سورة القلم: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وقال سبحانه في سورة التكوير: ﴿وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

الجنون: (جن) الجيم والنون أصل واحد، وهو الستر[٣] يقال: "جنَّ عليه الليل أي ستره، وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه"[٤]، و"الجنون ستر العقل"[٥]. وبالإفادة من منهج الميداني يتبين أن الاتهام بالجنون هو أول اتهام وجه له ﷺ.

---

[١] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١٠٦- ١٠٧- ١٠٨- ١٠٩.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١١٠.

[٣] يُنظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج١، ص ٤٢١.

[٤] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٣، ص ٩٢.

[٥] أبو زهرة: محمد بن أحمد، **زهرة التفاسير**، (د.م، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت)، ج٥، ص ٢٥٠٣.

سبب هذا الاتهام:

أ- الدفاع عن أنفسهم، فحين دعا النبي ﷺ قومه إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، كَبُرت هذه الدعوة على سادة القوم لما فيها من تسفيه أحلامهم وبيان ضلالهم وضلال آباءهم من قبل، فرأى بعض كبراء قومه اتهامه ﷺ بالجنون ليردوا عن أنفسهم ذلك، "وكان هذا منهم إيذانًا ببدء معركة الرفض وتكذيبه في دعوى النبوة والرسالة"، ولما كان لقبه ﷺ بينهم الصادق الأمين لم يتهموه في أول الأمر بالكذب، بل اتهموه بأنَّ فيه مرض الجنون، ومن طبيعة الناس التلقائية أنهم إذا كذبوا من يدَّعي اتصالات غيبية خارجة عن مجرى العادات الحسية قالوا: فيه مس من الجن، وقالوا هو مجنون، يتوهم بجنونه أن أرواحًا غيبية تتصل به وتبلغه[1].

ب-ما كان يغشاه ﷺ من ثقل الوحي، فأجاب الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾[سبأ:٤٦]، أي: كيف تنسبونه إلى الجنون وعند الإفاقة من تلك الغشية يأتي بكلام يعجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله، كذلك من انتصب لمعاداة من لا طاقة له معه، وخاطر بجسده وروحه فذلك منه في المشاهد جنون فأجاب الله تعالى بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ:٤٦]، فأخبر سبحانه أنه ﷺ مأمور بالتبليغ والإنذار، وقد عصم الله نبيه ﷺ وأظفره عليهم ؛ فصار الوجه الذي استدلوا به على جنونه آية رسالته ودلالة نبوته[2].

---

[1] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٠٨- ٢٠٩.

[2] يُنظر: الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، ج١٠، ص ١٣٥.

ج- دافع الحسد لقوة اندهاشهم من عظمة البيان القرآني، وعجزهم عن الإتيان بمثله أو قريب منه، فما كان منهم إلا المكابرة واتهام الرسول ﷺ بالجنون على الرغم من استيقانهم بأنه الصادق الأمين[1]، "وهذا تناقض منهم واضح فاضح، كيف يحسدونه حسدًا شديدًا إعجابًا بما يتلو عليهم، ويتهمونه مع ذلك بالجنون، إن المجنون لا يحسده العاقلون"[2]، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

الدفاع جاء مقترنًا بإقامة الأدلة:

الدليل الأول: القسم بالقلم قال تعالى: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ جاء التذكير بالقلم[3] بأسلوب القسم المشعر بتمجيد العلم ووسائله، وفي هذا إلماح إلى أن المجنون لا يدعو "الناس إلى تدبر ما ينزل عليه من بيان رباني، وتفهم معانيه، وإلى استخدام القلم والكتابة في تسجيله وجعله كتابًا مسطورًا، لمتابعة تفهمه وتدبره ما بقي في الدهر دارسون متفهمون للنصوص متدبرون"[4]، وأنّى للمجنون بمثل هذه الدعوة وكلامه لا يخلو من خلل أو تناقض واضطراب ؟![5].

الدليل الثاني: نعمة النبوة والرسالة قال تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، "وهذه النعمة ذات أثر حقيقي تدرك العقول الحصيفة الرشيدة عظمته، بما اشتمل عليه من حق وخير وهدى وإعجاز بياني وعلمي وتشريعي وخبري، وهذه الأمور لا يمكن أن تصدر عن تخيل أو جنون،

---

[1] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٠٢.

[2] **المرجع السابق**، ص ٢٧٢.

[3] يُنظر: **الفصل الأول**، ص ٣٢.

[4] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢١١.

[5] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢١٠.

فكمال العلم، وكمال العقل، وكمال الحكمة، لا يمكن أن يأتي بها جنون، ...وسَيثبُتُ للجميع أنك أكمل الناس عقلًا وخلقًا"[١].

الدليل الثالث: دليل الصحبة ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ فقد لازم النبي ﷺ أهل مكة وعرفوا من رجاحة عقله، وسمو خلقه، وصدقه وأمانته، ما يجعله أبعد الناس عن الجنون[٢].

دلالة هذا الدفاع الرباني:

أ- أنَّ النبي ﷺ في ذروات الكمال العقلي، الفكري، والنفسي، بدليل نعمة النبوة والرسالة، وبدليل ما فُطر عليه من خلق عظيم، فالأعداء إلى قيام الساعة "إذا نظروا الدلائل وتوسموا الشمائل علموا أي الفريقين المفتون أهم مفتونون بالانصراف عن الحق والرشد، أم هو باختلال العقل كما اختلقوا؟"[٣] "فكيف يُدْعَى من يتلوه مجنونًا، ونظيره مما يذكرون، مع أنه من أدلة الأمور على كمال الفضل والعقل؟!"[٤].

ب-أنَّ القرآن يحمل شاهد صدقه من نفسه فهو يدعو إلى استخدام القلم والكتابة ويعرض نفسه على الباحثين أبد الدهر لتدبره والعمل به واكتشاف أسراره وكنوزه، وتفهم معانيه ودلالاته.

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢١٢، ويُنظر: ص ٤٢٦.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٢٦.

[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٦٥.

[٤] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣٠، ص ٦١٩.

المطلب الرابع: الوسم على الخرطوم

تولى الله عز وجل الدفاع عن رسوله ﷺ، بإيعاد حامل لواء العناد والاستكبار من قومه الذي ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٥)﴾[١]، بعقوبة تُذلُ أنفه المستكبر فقال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[٢].

الوسم: هو الكي بالنَّار لتمييز الموسوم بعلامة فارقة خاصة، والخرطوم: الأنف، ويختص غالبًا بخرطوم الفيل، وخرطوم الخنزير[٣] وسمى بذلك "استقباحًا له"[٤] وخص بالذكر "لأن الوسم عليه أبشع"[٥]، والسمه عليه لا يعفو أثرها[٦].

والمعنى "سنبين أمره بيانًا واضحًا حتى يعرفوه، فلا يخفى عليهم، كما لا تخفي السمة على الخرطوم"[٧].

دلالة هذا الوعيد الرَّباني:

أ- الإذلال والإهانة بعذاب معجل في الدنيا بدلالة استعمال حرف (السين)[٨]، ذلك أن "الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز

---

[١] الأساطير تأتي بمعنى: "الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها"، – ووجدته بلفظه في تاج العروس، الزبيدي، **تاج العروس**، ج١٢، ص ٢٤ – وتأتي بمعنى: "مكتوبات الأولين ومسطوراتهم" ويمكن حمل عبارته على أحد المعنيين، يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٣١.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢٠٠.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢٣٢.

[٤] الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٢٧٩.

[٥] النسفي، **مدارك التنزيل**، ج٣، ص ٥٢١.

[٦] يُنظر: السمرقندي، **بحر العلوم**، ج٣، ص ٤٨٢.

[٧] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٥٤١.

[٨] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٣٢.

والحمية،...فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة؛ لأن السمة على الوجه شين، فكيف على أكرم موضع من الوجه"[١]، أما يوم الدين فهذا الأنف المستكبر سيكوى بالنار[٢].

وقد ذكر الله تعالى من قبائح أخلاقه وصفاته ما لا يخفى به[٣]،"ولا شك أنَّ المبالغة العظيمة في ذمه بقيت على وجه الأرض، ولا يعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغ منه، فألحق به عارًا لا يفارقه في الدنيا والآخرة كالوسم على الخرطوم"[٤].

ب–من استكبر عن قبول الحق عومل بخلاف قصده، فهذا المستكبر عن الإيمان هو في حقيقة الأمر قد "أنزل نفسه بانتفاخ أنفه إلى مستوى الفيلة والخنازير ذوات الخراطيم"[٥].

ج– الجزاء من جنس العمل، أراد سبحانه وهو أعلم أن "يفرده بِسمَةٍ لمبالغته في عداوة النبي ﷺ، فيخصُّ من التشويه بما يتبين به من غيره كما كانت عداوته لرسول الله ﷺ عداوةً يُتَبَين بها من غيره"[٦].

أثر هذا الوعيد الرباني على حامل الرسالة:

الثقة بوعد الله، فمن تأمل حال الوليد بن المغيرة، وغيره من صناديد الكفر كأبي جهل، وأبي لهب، والعاص بن وائل وغيرهم، علم أنه أُلصق بهم عارًا لا يفارقهم؛ حيث سجل القرآن عليهم

---

[١] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٥٨٨، ويُنظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣٠، ص ٦٠٦.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٣٢، وذكر هذا القول عدد من المفسرين، يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٥٤١، والبغوي، **معالم التنزيل**، ج٥، ص ١٣٧.

[٣] يُنظر: **الفصل الرابع**، ص ١٩٢.

[٤] النّعماني: عمر بن علي، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩ هـ /١٩٩٨م)، ج١٩، ص ٢٨٤.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٣٢.

[٦] الزجاج، **معاني القرآن وإعرابه**، ج٥، ص ٢٠٦.

قبائح أقوالهم وأفعالهم، والخزي باقٍ ما بقي القرآن يتلى، أما الخزي الأعظم فهو في الآخرة ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٦].

المطلب الخامس: الهلاك والخسران والقلادة من مسد

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد إلى الجبل فنادى: «يَا صَبَاحَاهْ» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قالوا: نعم، قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا تبًا لك، فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] إِلَى آخِرِهَا[١].

الفعل (تبَّ) يدور حول معنى الخسران والهلاك[٢]، بل الاستمرار في الخسران[٣]، ومن معانيه القطع يقال: "وتبَّ الشيء: قطعَهُ، وتبَّ إذا قطع"[٤] أي انقطع عنه كل خير.

وشتان ما بين العبارتين فعبارة أبي لهب دعاء غير مستجاب، أما ما نزل في القرآن فهو حكم مبرم مستتبع بالتنفيذ لا محاله[٥]، والحكم عليه حكمٌ بخسارته كلَّ ذاته، وإنما خص اليدين بالذكر، من باب: "إطلاق البعض وإرادة الكل"[٦].

---

[١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب)، ج٦، ص١٧٩، رقم الحديث (٤٩٧٢).

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٨٣.

[٣] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ١٦٢.

[٤] الزبيدي، **تاج العروس**، ج٢، ص ٥٦.

[٥] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٨٢.

[٦] المرجع السابق، ص ٣٨٤.

أما الجيد: "العنق، ومقدمه، وموضع القلادة". والمَسَدُ: فهو "الليف، وحبل الليف حبل خشن، وهو لا يصلح قلادة للنساء، لكنه يستعمل حبلًا مهينًا لجر الدواب المحتقرة كالحمير، أما الجياد وكرائم الإبل فيوضع في أعناقها حبال نفيسة"[١].

دلالة هذا الوعيد الرباني:

أ- العلم بحكم الله المبرم في الخسران الكلي لكل من نصب العداء ضد دعوة الحق، قال الميداني: "لما كان أبو لهب معتزًا هذا الاعتزاز بما ملكت يداه من أموال، وبما يقدر على كسبه من أعمال كان من الحكمة أن يقول الله بشأنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ... أي خسرت يداه أمواله التي يملكها بهما، والتي بها تقوَيان على حرب الرسول ﷺ ومقاومة دعوته، وخسر هو كُلُّهُ في كل ما يكسب من أعمال بفكره وبلسانه، وبحركات جسده وتبَّ هو كُلُّهُ فيما كسب ويكسب من أولاد كفره مثله يتقوى بهم ويعتز"[٢].

ب-التحقير الزائد لامرأة أبي لهب، فهذه العبارة: ﴿في جيدها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ تصلح كناية عن كون هذه المرأة بمثابة دابة محتقرة، يكفي لقيادتها حبل خشن من ليف، إذ هي حمقاء لا عقل لها ولا رشد، ولا تعمل إلا وفق انفعالاتها، ومما يدل على لؤمها وخسَّتها ونزول مستواها إلى مستوى الدواب، ما كانت تفعله من حمل الحطب، وهو حملٌ إما على الحقيقة فتطرحه ليلًا في طريق النبي ﷺ إيذاء له ولأصحابه، أو كناية عن النميمة كوسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الرّبانية، ولا مانع أنها كانت تفعل كلتا الخسيستين[٣].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٨٩.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٣٨٥.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٣٨٩- ٣٩٠.

وتصلح كذلك بيانًا لما ستكون عليه يوم الجزاء، "إذ تطوق يومئذ بطوق إهانة وإذلال وتحقير، مع ما تعاني منه من عذاب نار الحريق في جهنم"[١]، وقيل "شهرها بهذه العلامة في جهنم، كما كانت مشهورة بعداوة النبي ﷺ"[٢].

أثر هذا الوعيد الرباني على حامل الرسالة:

أ- العلم بسنة الله الجارية في خلقه، فكل من اتخذ من النبي ﷺ، ومن الدعوة الإسلامية، هذا الموقف الأثيم الضال فسخر ماله في مقاومة الدعوة، وسخر جهده وكسبه في الصد عن سبيل الله، فقد باء بالخسران المبين والهلاك والانقطاع عن كل خير.

فهذا قائدهم أبو لهب ما نفعه ماله، ولا سائر كسبه الكيدي في إيقاف انتشار الإسلام، بل لاحقته هو ومن كفر من قومه النكبات والهزائم ونصر الله رسوله ﷺ وأعز دينه[٣]، وكل ما يقوم به الكفار من إنفاق أو كيد أو غير ذلك، ليطفئوا نور الله فسيكون حسرة عليهم ثم يغلبون ثم إلى النار يحشرون. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٩٠.

[٢] التُستري: سهل بن عبد الله، **تفسير التستري**، جمع: أبي بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (منشورات محمد علي بيضون، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣ هـ)، ج١، ص ٢٠٩.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٨٧.

ب–العلم بحكم الله المبرم في إحباط كل الأعمال الكيدية ضد الإسلام، لذكر اليد في هذا المقام؛ "لأنه باليد يقوم ويعمل؛ كقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران:١٨٢]، ... وذلك على الكناية عما كان منه من الصنيع، أي: خسرت أعماله وبطلت"[١].

ج– العلم أنَّ الوعيد يلحق كل من حارب الدعوة سرًا أو جهرًا كما فعلت حمالة الحطب في حملها إياه إما مجاهرة بالإيذاء وإلقاءه علانية في الطريق، أو سرًا فكانت تستر غرضها من التنقل بين البيوت بحمل الحطب، وقصدها من وراء ذلك إشعال نار الفتنة والعداوة ضد النبي ﷺ.

المطلب السادس: القسم أن الله ما ودع النبي ﷺ وما قلاه

روى البخاري بسنده عن جندب بن سفيان رضي الله عنه، قال: «اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين – أو ثلاثًا –»، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين – أو ثلاثة – فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(٣)﴾[٢].

ودَّع أي "فارق غير كاره للقاء، فالمودع هو من يفارق وهو متعلق بمن ودَّعه لم يكره لقاءه. ويقال: قلى فلان فلانا قِلىً، أي أبغضه وهجره، فالقالي: هو المبغض الكاره، فإذا فارق فارق عن كراهية وبغض"[٣].

---

[١] الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، ج١٠، ص ٦٣٨.

[٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب تفسير القرآن، باب (ما ودعك ربك وما قلى) ج٦، ص ١٧٢، رقم الحديث (٤٩٥٠).

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٣.

دلالة هذا الدفاع الرباني:

أ- استمرار الوحي وعدم انقطاعه، قال الميداني: "ففي قول الله عز وجل لرسوله ﷺ مقسمًا بالضحى وبالليل إذا سجى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ نفي شامل لكل صور إنهاء صلة الوحي به، وأدناها التوديع مع بقاء الرغبة في اللقاء، وأشدها المفارقة مع البغض والكراهية"[١].

ب-مقابلة المكايدة بمكايدة تغيظ الأعداء، من نفي المقولة، وذكر سوابق الإكرام والإنعام، التي رافقته ﷺ في مراحل حياته قبل النبوة، فكيف بعد الاصطفاء له ﷺ بالرسالة والنبوة، وقد أعرض سبحانه عن القائل ومواجهته استهانة به، واحتقارا له[٢].

المطلب السابع: شانئ النبي ﷺ هو الأبتر من كل خير

عن ابن عباس، قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم، وهو أول ميت من ولده بمكة، ثم مات عبد الله فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتر؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾"[٣].

يقال: "شَنَأَهُ يَشنَؤُهُ شنئًا، أي أبغضه وتجنَّبه، فهو شانئٌ له. ويقال: تشانؤوا، إذا تباغضوا.

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٣.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٥٨.

[٣] ابن كثير: إسماعيل بن عمر، **السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٥ هـ /١٩٧٦م)، ج٤، ص ٦٠٧.

الْأَبْتَرُ: هو الأقطع من كل خير، وكل أمر انقطع أثره من الخير فهو أبتر. والأبتر الذي لا عقب له، والمعدم، والخاسر، والذي ليس له ولد ذكر يبلغ مبلغ الرجال يكون معينًا له وقوةً وسندًا"[١].

دلالة هذا الوعيد الرباني:

أ- مبغض الرسول ﷺ مقطوع من كل خير، وقد استخدم القرآن اللفظ نفسه، فكان الدفاع أشد وأقوى من الهجوم، الشانئ أراد أنه ﷺ لا عقب له، والقرآن أراد أن شانئه لا عقب له من الخير عند الله تعالى[٢].

ب-كل كلمة في الوعيد الرباني لها دلالات معينة، وصفه بكونه شانئًا: "إشارة إلى وعده تعالى لرسوله ﷺ بقهر العدو كأنه تعالى يقول: هذا الذي يبغضك لا يقدر على شيء آخر سوى أنه يبغضك، فيحترق قلبه غيظًا وحسدًا"[٣] وجيء بضمير الفصل(هُوَ) ليفيد "قصر صفة الأبتر على الموصوف وهو شانئ النبي ﷺ"[٤]، أما (الْأَبْتَرُ): ف"هو من لا عقب له من الخير عند الله "[٥].

ج- جاء هذا البيان الرباني بصيغة عامة للدلالة على انقطاع الخير عنه في الدارين:

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٥٩.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**. وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٥٧٦، حيث قال:" معنى الأبتر الذي أراده العاصي بن وائل أو غيره هو لمز النبي ﷺ بأنه أبتر، أي لا عقب له. والمعنى الذي أراده الله عز وجل أنه الأبتر الذي لا خير فيه، وبهذا يستقيم المعنى لأن العاصي بن وائل له عقب، فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابن ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي الجليل ولعبد الله عقب كثير".

[٣] الجاوي: محمد بن عمر، **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**، تحقيق: محمد أمين الضنّاوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ)، ج٢، ص ٦٧١.

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٥٧٦.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٥٩.

ففي الدنيا: "نبه الله تعالى أن الذي ينقطع ذكره هو الذي يشنؤه"[1]، وإن بقي فلا يبقى إلا سيئه، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: ٨٧]، أما في الآخرة فشانئ الرسول ﷺ هو "المقطوع المبتور من رحمة الله تعالى ولو كان له بنون فهم غير نافعيه"[2] قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣] وقال سبحانه: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

هذا هو حظ شانئ النبي ﷺ ومبغضه، في كل زمان ومكان، البعد عن كل خير، الحرمان من كل طيّب، ثم العذاب الأليم في نار الجحيم.

أثر هذا الوعيد الرباني على حامل الرسالة:

أ- العلم بأنَّ محبة الرسول ﷺ واتباع هديه وتبليغ شريعته سبب عظيم في حصول واستمرار الخير له في الدنيا والآخرة، من الظفر بالسيرة الحسنة والأجر العظيم.

ب-العلم بسنة الله الماضية في خلقه، فمن نزعت نفسه أن يكون من مبغضي الرسول ﷺ فليترقب وعيد الله عز وجل.

---

[1] الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ١٠٧.

[2] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٥٣٠.

في ختام هذا المبحث يلمح المتأمل أنَّ النص القرآني الموجه للدفاع عن حامل الرسالة له سمات عدة:

الأول: ما أشار إليه الميداني من أنَّ النص الذي يحمل الدفاع عن النبي ﷺ نص مثلث أو مزدوج الهدف، فقد يكون تهديدًا للكافرين، ووعدًا للمؤمنين ومسرة لقلوبهم بتكريم الله لقائدهم، وتسلية للنبي وتطمينًا وتكريمًا له ﷺ[١].

الثاني: النص القرآني يؤثر طريقة التعريض، وذكر الصفات دون التصريح بأسماء الطغاة الذين أعلنوا العداء –باستثناء عمه أبو لهب حيث جاء التصريح بكنيته[٢]– ليكون الوعيد قابلًا لأن ينطبق على نظرائهم، فالنماذج البشرية المتشابهة في قلوبها، متشابهة في أغلب تصرفاتها[٣]. قال تعالى:﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة البقرة:١١٨].

الثالث: النص القرآني يؤثر طريقة حصر المواجهة فهذه "الإنذارات جاءت لقلة من المكذبين هم أئمة الضلال والتضليل، مع الإشعار بقلة عددهم، وانفراد كل منهم بالتصدي لدعوة الحق الربانية، فالإنذار يوجه بوصفه فردًا، لا بوصفه واحدًا من فئة مجتمعة مترابطة متكافلة متضامنة. وهذا من روائع الأساليب الحكيمة في التربية، لكي يجد أنصاره مهربًا عنه، ما دام الإنذار موجهًا له، وليقع في حِسِّهم أنهم إذا لم يلتفوا حوله وينصروه فإنهم سيظلون خارج قوس الإنذار، حتى يعملوا مثل عمله، أو يكونوا من أتباعه وأنصاره"[٤].

---

[١] يُنظر: الميداني، **قواعد التدبر**، ص ٤٥.

[٢] أبو لهب عم النبي ومن عشيرته الأقربين، وتولى الله الدفاع بالتصريح "حتى لا يتجرأ عليه أحد من غير عشيرته استخفافا به وبعشيرته"، الميداني، **معارج التفكر**، ص ٣٨٢.

[٣] يُنظر: الميداني، **قواعد التدبر**، ص ٥٥.

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٣٣، ويُنظر: ص ١٠٥.

الرابع: الدفاع كان أشد وأقوى من الهجوم، فحين قال أشقاهم الأول: (... لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا مني)[1]. قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾.

وحين قال أشقاهم الثاني:(أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا تَبًّا لَكَ)[2]. قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.

وحين قال أشقاهم الثالث: (قد انقطع نسله فهو أبتر)، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وحين استنكف من كان ذا مال وبنين عن رسالة ربه، قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.

وبهذا يستطيع كل معاند أو طاغٍ أن يلمح العقوبة التي تنتظره فهي من جنس ما توعد به صاحب الرسالة الربانية، وهذه سنة الله عز وجل في خلقه.

لذا ينبغي على حامل الرسالة "أن لا يتأثر بالأصوات الإعلامية الموجهة ضده من أعداء رسالته، ولا بأصدائها، ما دام حظه من عناية ربه به حظا وفيرًا وعظيمًا"[3]. وعليه أن يعلم أنَّ "الله جل جلاله إذا شاء إكرام عبد من عباده لم تُوقف عطاءاته مقالات المكايدين والمكايدات، ...ولا بد للصاعد من أن يتعرض في بعض درجاته لبعض العوارض التي تُربّيه على الثبات، وتمنحه العزيمة والصمود، وتشحنُه بالهمة والمقاومة والتحدي، وتزيده طموحًا، وتجعله أكثر حرصًا على الاحتفاظ بمواقعه التي بلغ إليها، لأنها ثمرات كفاح وجلاد وصبر. أما أعداؤه الحاسدون فموقعهم يظلُّ في الحضيض، وليس لهم من درجات معراج الصعود حظٌّ غير النظر إلى المحظوظين بالترقي، والتمزق غيظًا وحسدًا"[4].

---

[1] أخرجه الحاكم في **المستدرك**، كتاب التفسير، ج٢، ص ٥٣٠، رقم الحديث (٣٨٠٩) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ينظر: الألباني: محمد ناصر الدين، **صحيح السيرة النبوية**، (عمان: المكتبة الإسلامية، ط١، د.ت)، ج١، ص ١٤٤.

[2] **سبق تخريجه**، ص١٢٥.

[3] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٥.

[4] **المرجع السابق**، ص ٥٥٨ – ٥٥٩.

المبحث الثاني: الوعود الرّبانية لحامل الرسالة

يتناول هذا المبحث الحديث عن الوعود الربانيّة، سواء ما يتعلق منها بحامل الرسالة، أو ما يتعلق بمهام الدعوة ووظائفها.

المطلب الأول: وعود تتعلق بحامل الرسالة النبي ﷺ

أولًا: الوعد بالأجر العظيم

في (سورة القلم/٤ نزول) قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣)﴾.

الأجر: "هو العوض عن العمل الذي يقدمه العامل تحقيقًا لمطلوب المعمول له. و(غَيْرَ مَمْنُونٍ): غير مقطوع[١]، من قولهم: مَنَّ الشيء، إذا قطعه"[٢].

وعوض العمل يضاعفه الله إلى عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا تدخل تحت العد ولا الحصر وأعظمه ما ادَّخره الله لعباده في جنات النعيم[٣]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

البعد الدعوي في هذا الوعد الرباني:

قال الميداني: "وفي وعد الله لرسوله ﷺ بالأجر غير الممنون تشجيع له على متابعة جهاده في تبليغ رسالات ربه، دون أن يعبأ بأذى الناس له."[٤] والأمة تبع له ﷺ في ذلك، وهو ما أكدته

---

[١] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٧٧٨.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢١٣.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**.

[٤] **المرجع السابق**.

نجوم التنزيل اللاحقة، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:٨]. فما عليهم إلا الصبر والثبات طمعًا في الأجر والثواب، فالهم والغم والنصب والتعب كله إلى زوال، ويبقى الأجر في تنامٍ وكمال ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ثانيًا: الوعد بالعاقبة الحسنة

قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ(٦)﴾ [القلم].

الْمَفْتُونُ: أي "المصاب بالجنون"، وهو من التوسعات اللغوية، فالذي لا يكترث بالتحذيرات التي توجه له، فيدفع بنفسه وبمن اتَّبعه إلى مصير الشقاء ودار البوار هو المستحق لأن يوصف بالجنون[١].

لقد تضمن هذا النص وعدًا من الله لرسوله ﷺ بأنَّه سيُظفره، وينصره على متهميه بالجنون، وتَحقق هذا الوعد ليس ببعيد بدلالة حرف السين في قوله (فَسَتُبْصِرُ).

ولقد رأى النبي ﷺ ومن آمن معه، ما حل بالمشركين من الهزائم وانكسار الشوكة، ورأوا هم بأعين رؤوسهم مصائرهم التي تدل على أنَّ كل واحد منهم كان هو الذي يستحق لقب المجنون[٢].

البعد الدعوي في هذا الوعد الرباني:

أ- عناية القرآن بتصحيح المفاهيم وضبط الموازين، فالمجنون الحقيقي هو من تنكَّب عن الصراط، ولم يستجب للتحذيرات الربانية، قال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٧]. والمفتون من أوبق نفسه السعير

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢١٤.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢١٥.

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

ب-العاقبة الحسنة للإسلام وأهله، فمهما زها الباطل وكثر الخبث، فما على حامل الرسالة إلا الاتخاذ بالأسباب واليقين بوعد الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

ثالثًا: تثبيت القرآن في قلب النبي ﷺ

جاء في (سورة الأعلى/٨ نزول) قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ(٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إنه يعلم الجهر وما يخفى(٧)﴾.

الآية تشير إلى أن الأمر الذي هيمن على نفس النبي ﷺ وقلبه، هو تخوُّفُهُ ﷺ من نسيان بعض ما يُنزِّله الله عليه، وهذا التخوف بحكم طبيعته البشرية، وبحكم أنه أمي ﷺ، وبحكم أنه ما زال في أوائل ما أنزل الله عليه من قرآن[١]، فنزل هذا النجم القرآني وقد "تضمَّن وعد الله لرسوله محمد ﷺ بمتابعة إنزال القرآن عليه، وتثبيته في ذاكرته"[٢].

وخاطب الله رسوله ﷺ بضمير العظمة ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ لإشعاره بأن تثبيت القرآن في ذاكرته مهما كثر وتتابع، أمر هين عليه سبحانه، فلا يحمل هم تخوف نسيانه[٣].

"واستثنى الله عز وجل ما شاء هو أن ينسيه رسوله ﷺ ، لحكمة يشاؤها، كآية أراد نسخها، وآية أراد أن يُنسيه إياها، ليأتي بخير منها أو مثلها، وعندئذ يكون الأمر راجعًا لإرادة الله، ولا يكون الرسول ﷺ فيه مقصرًا ولا متهاونًا في الحفظ والاستذكار، ومشيئة الله في كل أمر لا

---

[١] ينظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٥٢.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٤٤١.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٥٣.

تفارق حكمته... وكل هذا الموضوع يتعلق بالنسيان الكلي، أما النسيان العارض المؤقت الذي يتبعه استذكار، فقد يقع من الرسول ﷺ في بعض الأحوال النادرة بمقتضى بشريته"[١].

وقد أشار الميداني إلى معنى انفرد به على حسب ما اطلعت عليه من آراء أهل التفسير فقال: "نلاحظ أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ إشارة إلى أن الذاكرة في الدماغ جهاز خفي لا يعلم الناس حقيقته، فتثبيت المحفوظات فيها، ومسحها منها من الأمور الخفية على الناس، ويقابل هذا المخفي المجهور به من القول ...، فهو سبحانه بعلمه لا يخفى عليه شيء، وهو بقدرته على كل شيء يثبت ما يشاء في ذاكرة الرسول ﷺ مهما كان كثيرًا وصعبًا، ويمسح منها ما يشاء مهما كان قليلًا وسهلًا."[٢]

البعد الدعوي في هذا الوعد الرباني:

أ- تحقق وعد الله تعالى "في قوله: ﴿فلا تنسى﴾ خبر مراد به الوعد والتكفل له بذلك"[٣]. وما أنسى الله نبيه شيئًا إلا ما استثنى سبحانه، "وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرّفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه، لا من قوته"[٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٥٣- ٤٥٤.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٤٥٤.

[٣] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٢٨٠.

[٤] القاسمي، **محاسن التأويل**، ج٩، ص ٤٥٨.

ب–هذا الوعد جاء في سورة الأعلى وقد افتتحها الله عز وجل بالتسبيح للإشارة إلى أن بين التسبيح وبين عدم الإنساء صلة، فمن أراد أن ينال حظًا من تثبيت العلم فليلزم التسبيح[١].

ج–لم يقتصر الوعد على حفظ القرآن في ذاكرة الرسول ﷺ، بل تكفل الله سبحانه بحفظ القرآن للناس أجمعين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، "فتمت بالعناية الربانية حفظ القرآن من التغيير والتبديل والزيادة والنقص، إذ تكفل الله عز وجل بهذا الحفظ من كل أطرافه، وفي كل مراحله"[٢].

رابعًا: الوعد بالترقي في مدارج العلى

جاء في (سورة الضحى/ ١١نزول) قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى(٤)﴾

قال الميداني: "في هذه الآية طمأن الله رسوله ﷺ عن مستقبله بالوعد الكريم، ... مبينًا له فيه أن تَرَقّيَهُ في معراجه الأبدي الصاعد مستمر إلى غايات التنعيم والتكريم والمقام المحمود في دار الخلود، فإذا كنت في الأولى الرسول ﷺ المجتبى المفضل على كل الناس، فإنك في الآخرة ستكون المفضل أيضًا، وستكون الآخرة خيرًا لك إنعامًا وإكرامًا وتفضيلًا عظيمًا، وجاء تأكيد هذا الوعد بمؤكدين: لام الابتداء والجملة الاسمية"[٣].

واللام في قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾ هي "لام الاختصاص، أي خير مختص بك وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي ﷺ في ذاته وفي دينه وفي أمته..."[٤].

---

[١] يُنظر: حوّى، **الأساس في التفسير**، ج١١، ص ٦٤٧٩.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٥٥.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٥٦٤.

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٩٧.

البعد الدعوي في هذا الوعد الرباني:

يلمح المتأمل في السيرة أن كل حالة من حالاته ﷺ كانت تجري على الانتقال من حالة إلى أحسن منها، ابتداءً من استمرار الوحي وتتابعه وعدم انقطاعه إلى المقام المحمود في الآخرة ودرجة الوسيلة في الجنة، وما وصل ﷺ إليه من الفضائل والنعم لم يصل إليه أحد من الأولين والآخرين. فإنه ﷺ "لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال"[١] "وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة"[٢].

خامسًا: الوعد بالعطاء فوق مدى الطلب والأماني

قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥].

قال الميداني: "في هذه الآية متابعة للوعد الكريم الوارد في سابقتها ببيان فيه شيء من تفصيل مجملها ...إنَّ الوعد بالعطاء مع الإطلاق يشمل عطاءً لا حدود له، ... ولما كان العطاء فوق مدى الطلب والأماني قال الله لرسوله ﷺ في الآية: ﴿فَتَرْضَى﴾ فجاء العطف بالفاء التي تدل على الترتيب مع التعقيب، ولو كانت العطاءات دون أمانيه صلوات الله عليه، لكان المناسب أن يكون التعبير (حتى ترضى) فدلَّ الأداء البياني بدقته على أن فيض العطاء الرباني له أوسع من حدود أمانيه، وقد تفرد الرسول ﷺ بهذا الوعد الكريم في بيانات القرآن. وجاء توكيد هذه الجملة بمؤكدين: (لام الابتداء) و(حرف سوف)"[٣].

---

[١] البيضاوي، **أنوار التنزيل**، ج٥، ص ٣١٩.

[٢] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٩٢٨.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٤.

"وسوف من الله تعالى واجب"[١]، وحذف المفعول الثاني ل (يُعْطِيكَ)"ليعم كل ما يرجوه ﷺ من خير لنفسه ولأمته فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة"[٢].

البعد الدعوي في هذا الوعد الرباني:

أ- تدفع كل الدعاة إلى سبيل الله أن يقولوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[الإسراء:١٠٨] فقد تحقق ما وعد الله به نبيه الكريم ﷺ من رفع الذكر والغلبة على الأعداء وإظهار الدين وغير ذلك من وجوه الكرامة.

ب-إكرام الأُمّة بوقوع الشفاعة فيها حتى يرضى ﷺ[٣]، ورُوِيَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ ... فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي»، وبكى، فقال الله عز وجل: «يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: "يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولانسوؤك"[٤].

ج- سيتحقق ما وعد الله به نبيه الكريم ﷺ في الآخرة من إعطاءه "الحوض"[٥] والمقام المحمود[٦]، وبلوغ الوسيلة، ، كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: « ...ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي

---

[١] السمرقندي، **بحر العلوم**، ج٣، ص ٥٩٢.

[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٩٨.

[٣] يُنظر: الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، ج١٠، ص ٥٥٩، والبغوي، **معالم التنزيل**، ج٥، ص ٢٦٧.

[٤] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ، ج١، ص ١٩١، رقم الحديث (٢٠٢).

[٥] السمرقندي، **بحر العلوم**، ج٣، ص ٥٩٢، وابن جزي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج٢، ص ٥١٧.

[٦] يُنظر: مجاهد، **تفسير مجاهد**، ج١، ص ٤٤١، والطبري، **جامع البيان**، ج١٧، ص ٥٣٠، والسمرقندي، **المرجع السابق**، ج٢، ص ٣٢٥.

إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو... »[1]، وسيتحقق كل إكرام له ﷺ فهو أول من تنشق عنه الأرض، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[2]، وأول من يجتاز الصراط هو وأمته ﷺ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «... وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا»[3]، وأول من يفتح له باب الجنة .عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «...وأنا أول من يقرع باب الجنة»[4]، وهو ﷺ وأمته أول الأمم دخولًا إليها، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «...وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ...»[5] فهو أعظم الناس أجرًا وأرفعهم قدرًا ﷺ.

المطلب الثاني: وعود تتعلق بمهام الدعوة

أولًا: الوعد بالتيسير لليسرى

التخوف من عدم أداء وظائف الرسالة على أكمل وجه وأتمه كان يعتري قلب النبي فطمأن الله رسوله ﷺ بهذه الآية[6] فقال تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى:٨]. "أي نُهيئك ونصنعك

---

[1] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ج١، ص ٢٨٨، رقم الحديث (٣٨٤).

[2] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، ج٤، ص ١٧٨٢، رقم الحديث (٢٢٧٨).

[3] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى:(وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) [القيامة: ٢٣]، ج٩، ص ١٢٨، رقم الحديث (٧٤٣٧).

[4] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب في قول النبي: «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً»، ج١، ص ١٨٨، رقم الحديث (١٩٦).

[5] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، ج٢، ص ٥٨٥، رقم الحديث (٨٥٥).

[6] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٥٢.

ونمدك بالقوة والعون وكل ما تحتاج إليه في حمل وظائف رسالتك، التي تُبَلِّغ بها الملة والشريعة اليسرى، دون أن تقصر بشيء منها، ودون أن تعجز عن شيء منها"[١].

والخطاب جاء بقوله: (وَنُيَسِّرُكَ) ولم يقل له: (نُيسرُ لك) "للدلالة على أمر دقيق يَنِدُّ عن الأذهان[٢]، وهو أن التيسير إما أن يكون لحامل التكليف، وإما أن يكون في التكليف نفسه"[٣].

أما التيسير بحق حامل الرسالة فيكون بما "يعطيه الله من قوى فكرية ونفسية وقلبية وجسدية" تقويه على تحمل الصعاب وكل العقبات، وأما التيسير بحق التكليف نفسه فقد دل عليه قوله: (لِلْيُسْرَىٰ) وكلمة اليسرى وصفٌ لموصوف محذوف، تقديره: الملة اليسرى، أو الشريعة اليسرى، أي ذات اليُسر الأكثر من كل ملّةٍ ربانيّةٍ سابقة[٤].

يلمح المتأمل عملًا بمنهج الميداني في تتبع النزول أن الاسم الأول لوحي السماء: هو (الذكر)، وأن الوصف الأول لهذه الملة: هي (الْيُسْرَىٰ) في قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى/٨ نزول]، وأن الوصف الثاني لها: هي (الْحُسْنَى) في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل/ ٩ نزول].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٥٥.

[٢] وجدت الباحثة هذا الكلام عند ابن عاشور حيث قال:" اشتمل الكلام على تيسيرين تيسير ما كلف به النبي ﷺ، أي جعله يسيرا مع وفائه بالمقصود منه، وتيسير النبيء ﷺ للقيام بما كلف به"، يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٢٨٢.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٥٥.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٥٦.

ومن نظر في رسالة الإسلام وما فيها من عقائد إيمانية، ووصايا ربانيَّة، وأوامر ونواهٍ إلهية من كل أنواع السلوك الظاهر والباطن، الجسدي والنفسي، ذاق حُسنها، وأذعن أنها في حُسنها فاقت كل ما يُخالفها[١].

البعد الدعوي في هذا الوعد الرباني:

أ- بشارة للناس مع بدايات التنزيل بأن رسالة الإسلام تتضمن أحكامًا وتكاليف يُسرى[٢]، فشريعته ﷺ "أيسر الشرائع وأسهلها مأخذًا"[٣]، "وأوفقها بحاجة البشر"[٤]، ولا بُدَّ أن ينعكس هذا الوعد اعتزازًا واعتصامًا وافتخارًا وتمسكًا بالشريعة اليسرى.

ب-بشرى لكل حامل لواء دعوة الحق أن الله عز وجل سيمُده بالقوى التي يحتاج إليها للقيام بوظائف رسالته، فما وعد به النبي ﷺ هو وعد لأمته ما لم يكن الأمر من خصائصه ﷺ.

ثانيًا: الوعد بتذليل الصعاب

(في سورة الشرح: ١٢ نزول) قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾.

العُسُر واليُسْر ضدان، فالعسر الشدَّة وَالصُّعُوبَةُ[٥]. من ضيق المسالك والمداخل وكثرة العقبات. واليسر: السهولة واللين بسبب انفراج المسالك والخلو من العقبات والموانع[٦].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٩٥.
[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٥٦.
[٣] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٣٩.
[٤] القاسمي، **محاسن التأويل**، ج٩، ص ٤٥٨.
[٥] يُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص ٥٦٣.
[٦] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٤.

في السورة تكليف بأداء وظائف الرسالة، وهذا التكليف قد طوي فيها وذُكر لازمه وهو مقابلة العسر باليسر الرباني، فالصعوبات والعقبات، يُذللها الله، ويُعين عليها بألطافه الخفيَّة، ومعوناته غير المنظورة[١]، وقد "وعد الله رسوله ﷺ بأنه كلما واجه عسرًا في مسيرته، قائمًا بوظائف رسالته، أحاطه الله بيسر عن يمينه وعن شماله"[٢] فعليه أن يتابع أعماله الجهادية الدعوية "مهما شاهد في المنظور عسرًا، فاليُسرُ غير المنظور مرافق لهذا العسر من جانبيه وهو كفيل بأن يضغط عليه ويجعل سبيل الرسول ﷺ ميسورًا"[٣].

"وجئ بلفظ ﴿مَعَ﴾ لغاية مقاربة اليسر العسر زيادة في التسلية ولتقوية القلوب"[٤]، "والتنكير في اليسر للتفخيم والتعظيم"[٥]، "والمراد يسر عظيم وهو يسر الدارين"[٦]، وفي تعريف العسر بالألف واللام، "الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر –وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ– فإنه في آخره التيسير ملازم له"[٧].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٨٤– ٥٩٥.

[٢] المرجع السابق، ص ٥٩٤.

[٣] المرجع السابق، ص ٥٨٤.

[٤] النسفي، **مدارك التنزيل**، ج٣، ص ٦٥٧.

[٥] الشوكاني: محمد بن علي، **فتح القدير**، (دمشق– بيروت: دار ابن كثر، دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ)، ج٥، ص ٥٦٤.

[٦] القاسمي، **محاسن التأويل**، ج٩، ص ٤٩٦.

[٧] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٩٢٩.

"وجملة: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مؤكدة لجملة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وفائدة هذا التأكيد تحقيق اطراد هذا الوعد وتعميمه لأنه خبر عجيب"[1].

البعد الدعوي في هذا الوعد الرباني:

أ- التكليف الموجه للرسول ﷺ هو موجه أيضًا لحملة رسالته من أمته[2] وفي الآية بشرى عظيمة لكل من سلك سبيل الرسول ﷺ، أن يمضي في طريقه بقوة العزم، وطمأنينة النفس، ولا يلتفت لما يحيط به من مصاعب الدعوة ومشاقها فالله عز وجل تكفل بتذليلها وتيسيرها.

ب-التفاؤل والأمل فما يصيب أصحاب الدعوة الحق من عسر، فهو عسر مؤقت، ومن استعرض أول الأمر في حياة قائد الأمة وآخره، أدرك صدق هذا الوعد الرباني الكريم فقد تبدل الخوف أمنا، والقلة كثرة، والسر في الدعوة إلى علانية في مراسلة الملوك والوفود، ومن محاصرتهم في شعب أبي طالب، إلى محاصرتهم هم لحصون وقلاع أعدائهم إلى غير ذلك.

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٤١٥.

[2] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٨٤.

المبحث الثالث: المِنَن الرّبانية لحامل الرسالة

نزلت سور في أوائل أيام التنزيل مشحونة بدلائل على عظيم عناية وامتنان الله عز وجل للنبي ﷺ، شملت ماضيه وحاضره ومستقبله، بدا ذلك جليًا في سورة الضحى، وسورة الشرح، وسورة الكوثر.

المطلب الأول: أوجه المِنَّة الرَّبانيَّة في سورة الضحى

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى(٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى(٨)﴾

ذكر الله عز وجل من صور العناية بالنبي ﷺ أهمها وأجمعها وأشملها، وهي على الإجمال تتعلق في نشأته، وهدايته، ومعاشه[١]. أما على التفصيل فهي على النحو التالي:

المنَّة الربَّانية الأولى: تتعلق في نشأته ﷺ

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾.

﴿أَلَمْ﴾ استفهام مسلط على النفي، وجوابه هنا بلى، لأن النبي كان يتيمًا فآواه ربه معتنيًا به[٢]، "والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفي على أبلغ وجه"[٣] ﴿يَجِدْكَ﴾ من الوجود الذي بمعنى العلم[٤] وفي عبارة ﴿يَجِدْكَ﴾ "تعليم من الله جل جلاله الأدب في عدم نسبة ما هو مكروه إلى الله تعالى في العبارة الكلامية، وإن كان سبحانه هو الذي قضى وقدر وخلق"[٥].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٥- ٥٩٧.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٦٦.

[٣] الشوكاني، **فتح القدير**، ج٥، ص ٥٥٨.

[٤] يُنظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٦٧، والخازن: علاء الدين علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تصحيح: محمد علي شاهين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ)، ج٤، ص ٤٣٨.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٦.

﴿يَتِيمًا﴾ اليَتِيمُ من الناس من مات أبوه، ويظل يتيمًا حتى يبلغ الحُلُم،﴿فَآوَى﴾ يقال: أَوَيتُ فلانًا إليّ، وآويته إليّ، إذا ضممته وأحطته بالعناية والرعاية، والمعنى فضمك وأحاطك بعنايته[١].

وجعل لك مأوى تأوي إليه[٢].

مظاهر هذه المنَّة تتجلى حين ولد النبي محمد ﷺ يتيم الأب، وتوفيت أمه آمنة وهو ابن ست سنين، فكفله جده عبد المطلب، وألقى الله حُبَّهُ في قلب جده فكان يخصه بالتكريم ويتفرس له بمستقبل عظيم، "ويقول: إن لبني هذا شأنًا"[٣]، ثم توفي جده وهو ابن ثماني سنين، فكفله عمه أبو طالب، وألقى الله حبه في قلب عمه، فكان يخصه بتكريم لا يخص به أحدًا من أبنائه[٤].

وهو رغم يتمه ﷺ كان سيد شباب قريش، حيث قال عمه عند خطبته خديجة لزواجه بها: «فتى لا يعادله فتى من قريش، حلمًا وعقلًا وخلقًا، إلا رجح عليه»[٥].

هكذا نشأ النبي ﷺ يتيم الأبوين، "لئلا يكون عليه حق لمخلوق"[٦]، إنما العناية الربانية التي اكتنفته في جميع مراحله. قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

المنَّة الربَّانية الثانية: تتعلق بهدايته ﷺ

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٦.

[٢] يُنظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ج٥، ص ٥٥٨.

[٣] ابن إسحاق: محمد بن يسار، **سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)**، تحقيق: سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م)، ج١، ص ٦٦.

[٤] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٦- ٥٦٧.

[٥] يُنظر: الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥ م)، ج٨، ص ٥٥٨.

[٦] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٩٤، وابن جزي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج٢، ص ٤٩٠.

﴿ضَالًّا﴾ اسم فاعل من فعل (ضلَّ) ويأتي بمعنى: (ضاع[١]، غاب، وخفي) ويستعمل متعديًا بنفسه، ومتعديًا بحرف (عن) يقال: ضَلَّ الطريق إذا بحث عنه لاشتباه السبل عليه، ويقال: ضَلَّ عن الطريق.

والمعنى المناسب لحال الرسول ﷺ هو الذي يدل على سابق جهله بطريق الهداية، وبحثِه عنهُ، واشتباه السبل عليه[٢].

﴿فَهَدَى﴾ "الهداية: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب"[٣] وقيل: "الدلالة بلطف"[٤] و "دل حرف العطف بالفاء على أنَّ هداية الله له كانت تتداركه دون تراخٍ زمني، ...فلا إشكال يقتضي صرف لفظ ﴿ضَالًّا﴾ إلى معانٍ ذكرها بعض المفسرين"[٥].

مظاهر هذه المِنَّة تتجلى حين أضاء الله للنبي ﷺ آفاق التفكير والتأمل، وألهم قلبه ونفسه حب الخير والفضيلة، فكان يرى السلوك القويم فيلتزم به، ويرى قبائح الجاهلية فيعزِفُ عنها، وظل كذلك في مراحل نشأته حتى عُرف بالصادق الأمين، ثم اصطفاه الله بالنبوة والوحي، تتنزل عليه آيات الله، وتفيض على قلبه واردات العلم والحكمة والهداية[٦] وشرفه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ

---

[١] يُنظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج٣، ص ٣٥٦، وابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص ٣٩٣.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٧.

[٣] الجرجاني: علي بن محمد، **التعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ج١، ص ٢٥٦.

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص ١٩٩.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٧، نقل الماوردي تسع تأويلات في الآية، يُنظر: الماوردي، **النكت والعيون**، ج٦، ص ٢٩٤.

[٦] يُنظر: الميداني، **المرجع السابق**، ص ٥٦٨.

عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]. واصطفى أمته لحمل رسالته من بعده وهداية الناس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢].

المنَّة الربَّانية الثالثة: تتعلق في تأمين معاشه ﷺ

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ "أي فقيرًا، يقال لغة: يقال: عَالَ فلان يعيلُ عيلًا وَعَيلةً، أي: افتَقَر، فهو (عائل وعَيِّلٌ) أي: فقير"[١].

﴿فَأَغْنَىٰ﴾ يقال: "غَنِيَ فلان يغنى غنىً، أي كثر ماله فهو غانٍ وغنيٌّ، إذ صار مكتفيًا به لسد حاجات معاشه"[٢].

اختلف المفسرون في وجه الغنى[٣] الذي منَّ الله عز وجل عليه به بعد أن كان فقيرًا، أما الميداني فذهب في معنى الآية إلى ما ذهب إليه الجمهور من أنه فقر المال وغناه[٤].

مظاهر هذه المِنَّة تتجلى في نشأة النبي ﷺ فقيرًا، وكيف كفاه الله معاشه ببعض كسبه، ثم رزقه التجارة بمال السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، فحقق الربح الوفير والخير

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٨.

[٢] **المرجع السابق**.

[٣] منها: أن الله تعالى أغناه بمال خديجة، أو بما أفاء عليه من الغنائم يُنظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص٧٦٨، هذه سورة مكية ولم يكن حينئذ غنائم أو قد تكون بشرى لما سيستقبل ﷺ من الأمر.

* وقيل: وجده فقيرا إلى عفو ربه، فأغناه بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٥٩٧.

* وقيل: أغناه بالقناعة والصبر والكفاف، يُنظر: أبو حيان: محمد بن يوسف، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٤٢٠هـ)، ج١٠، ص ٤٩٥.

* وقيل:" أغناه الله غناءين: أعظمهما غنى القلب إذ ألقى في قلبه قلة الاهتمام بالدنيا، وغنى المال حين ألهم خديجة مقارضته في تجارتها"، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٩٩.

[٤] يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٩٤.

العظيم، ثم أنعم الله عز وجل عليه بالزواج منها وهي الثرية الحسيبة فأغناه الله، وما نزلت سورة الضحى إلا وهو ﷺ في بحبوبة من العيش والغنى عن الناس[١].

البعد الدعوي في هذه المِنَّن الرّبانية:

هذه المنن تكشف لنا عن عظمة ومكانة الرسول ﷺ الكريم عند ربه جل جلاله، وقد "عدد عليه نعمه وأياديه، وأنه لم يخله منها من أول تربيه وابتداء نشئه، ترشيحًا لما أراد به، ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه، لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة"[٢] و "في الآية إشارة إلى أن الإيواء والهدى والغنى من الله، لإسنادها هنا لله تعالى"[٣]. لذا ينبغي استشعار عظمة الله ونعمه ومقابلتها بالشكر المترجم بتطبيق التوجيهات الربانية، ونشر الدين، وتبليغه للناس أجمعين.

المطلب الثاني: أوجه المِنَّة الربانية في سورة الشرح

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ(٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(٤)﴾.

ثلاث مِنَن (شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر)، وهي وإن كانت مصدرة بالاستفهام، فهو "الاستفهام الذي يراد به التقرير بالامتنان، ويؤتى به لانتزاع الإقرار بنقيض النَّفي المستفهم عنه"[٤].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦٩.

[٢] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٦٧.

[٣] الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج٨، ص ٥٦٣.

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٨٥.

مع ملحظ استعمال ضمير المتكلم العظيم " للإشعار بأنَّ المنن التي امتنَّ الله بها على رسوله ﷺ مِنَنٌ عظيمة تُناسب عظمة واهبها، وللإطماع بتحقق المِنن الموعود بها"[١].

المنَّة الربَّانية الأولى: شرح الصدر

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ "استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه"[٢].

والشَّرح في اللغة: "يأتي بمعنى قطع اللحم وشقه، فالشَّرحةُ والشريحة هي القطعة المشروحة من اللحم.

ويأتي الشَّرح بمعنى البسط والتوسعة، ومنه شرح الصدر للإسلام، وشرح الصدر يكون بانفراجه وسروره، وذهاب ضيق الهم والغم والحزن عنه.

ويأتي الشرح بمعنى الكشف والإيضاح، فالمسألة المشكلة أو الصعبة يكون شَرحُها بتوضيح وكشف ما هو غامض فيها. وهذه المعاني كلها تنطبق على حال الرسول ﷺ"[٣].

فعلى المعنى الأول يكون شرح الصدر على الحقيقة المتمثل بحادثة شق الصدر، وهو ما وقع له ﷺ بعملية جراحية ملكية، نُزع حظ الشيطان منه، فكان بإخراجه منه منشرحًا لأفعال الخير والتحلي بالفضائل والكمالات[٤]. كما رُوي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٠٠.

[٢] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٧٠.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٨٥.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**.

علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه...)[١].

والشرح على المعنى الثاني فيحمل على المجاز من التوسعة لمعرفة الحق والهدى والإسلام والإيمان، وعند البخاري عن ابن عباس: «شرح الله صدره للإسلام»[٢]. وعند الزمخشري "فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم"[٣].

وذكر ابن كثير: "أي نورناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلًا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق"[٤].

وقد أشار الميداني إلى كل ما تقدم، وأوضح سنة من سنن الله في كونه مفادها أن من آمن بقضية الدين إيمانًا صحيحًا صادقًا، اندفع إلى القيام بتكاليفها وتطبيقاتها العملية وهو منشرح الصدر، مندفعًا بما أعطاه الله من مشاعر لذة العمل الصالح، متفائلًا بتحقيق نتائجها. ومن لم يؤمن بها انقبضت نفسه، ولم ينشرح صدره للقيام بالأعمال التي تتطلبها أو تدعو إلى القيام إليها[٥].

وأما الشرح بمعنى الكشف والإيضاح فقال الميداني: "انطباقه على حال الرسول ﷺ أمر ظاهر، إذ كشف الله له وأوضح الحقائق والمعارف الكبرى المتعلقة بمسائل الدين، فهي واضحة

---

[١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ج١، ص ١٤٧، رقم الحديث (١٦٢).
[٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب تفسير القرآن، باب (ما ودعك ربك وما قلى)، ج٦، ص ١٧٢.
[٣] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٧٠.
[٤] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ)، ج٨، ص ٤١٥.
[٥] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٨٩.

جليَّة في عمق قلبه الذي في صدره وهذا من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه، إذ أن هذه الحقائق والمعارف الربانية حالَّةٌ في صدره بجلاء ووضوح"[١].

البعد الدعوي في هذه المِنَّة:

أ- شرح الصدر "نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها"[٢]، وأهم أسبابه هو ما ختمت به السورة من مواصلة الخيرات ومتابعة الأعمال الصالحات.

ب-شرح الصدر لحملة رسالة الدعوة إلى الله من المطالب المهمة المساعدة على القيام بوظائف الرسالة بثبات وحكمة ورشد، فحين كلف الله موسى عليه السلام بدعوة فرعون أول ما دعا به ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:٢٥][٣].

ج- جاءت هذه المنة بأسلوب الاستفهام التقريري "وهذا التقرير مقصود به التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عند ما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحهم وإنقاذهم من النار ورفع شأنهم بين الأمم؛ ليدوم على دعوته العظيمة نشيطًا غير ذي أسف ولا كمد"[٤].

د- فيه "توجيه لكل داعية إلى الله، أن يكون رحب الصدر، هادئ النفس، متجملًا بالصبر"[٥].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٠.

[٢] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٣٢، ص ٢٠٦.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٨٨، والشنقيطي، **أضواء البيان**، ج٨، ص ٥٧٢.

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٤٠٨.

[٥] الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج٨، ص ٥٧٥.

المنَّة الربَّانية الثانية: وضع الوزر

قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(٣)﴾.

﴿وَوَضَعْنَا﴾ أي: أزلنا وألقينا عنك، عنايةً بك وتخفيفًا[١]، لأن "الوضع يكون للحط والتخفيف، ويكون للحمل والتثقيل، فإن عُدِّي بـ (عن) كان للحط، وإن عُدِّي بـ (على) كان للحمل، في قولهم: وضعت عنك، ووضعت عليك"[٢].

﴿وِزْرَكَ﴾ الوزر: "الحمل الثقيل[٣]، ويطلق على الذنب"[٤]، لأن المذنب يحمل تبعات ذنبه يوم القيامة ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿أَنقَضَ﴾ "النقيض الصوت، وكل صوت لمفصل وإصبع، فهو نقيض. وأنقض الحمل ظهره: أثقله وجعله ينقض من ثقله أي يُصوِّتُ. أي جعله يسمع له نقيض من ثقل الحمل عليه"[٥].

طرح الميداني سؤالًا مفاده: ما هو الحمل الذي وضعه الله عز وجل عن نبيه محمد ﷺ؟

إن كان حمل الوزر على الذنب فلا دليل عقلي يؤكده، ولا دليل نقلي يثبته، فهو ﷺ لم يدعُ قبل النبوة والرسالة شيئًا من الأوثان، ولم يكن يحفل باللهو، ولم يكن لديه ﷺ تكاليف عمليةٌ ربانيةٌ حتى يخالفها بالذنوب، أما بعد النبوة والرسالة، فالعصمة تُنافي احتمال وقوع ذنوب منه تُنقض ظهره، ولا سيما أن هذه السورة نزلت وهو ﷺ ما زال في المراحل الأولى من دعوته[٦].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٠.

[٢] الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج٨، ص ٥٧٥.

[٣] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص ٢٤٣، والشنقيطي، **المرجع السابق**، ج٨، ص ٥٧٥، حيث قال:" الوزر لغة الثقل، ومنه: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤]، أي: ثقلها من سلاح ونحوه، ومنه: الوزير المتحمل ثقل أميره وشغله، وشرعا الذنب".

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٠– ٥٩١.

[٥] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص ٢٤٣.

[٦] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩١– ٥٩٢.

وما ظهر للميداني أن نفس النبي ﷺ كانت مثقلة بالهموم؛ لإصلاح قومه، وإنقاذ البشرية من خبائثها وشرورها وظلمها وفسادها العريض، وتنامت هموم الرغبة في الإصلاح العام الشامل، وأصبح يجهد ملكاته الذهنية في محاولة استخراج المبادئ والمناهج ووسائل التنفيذ التي يجب أن يقوم عليها الإصلاح، ولما لم يجد ﷺ لنفسه السامية الكبيرة إلا الخلوة بربه في غار حراء صار يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يعود إلى أهله، ثم يدفعه همه العظيم وشوقه المتوهج إلى الخلوة بربه. وظل كذلك حتى اصطفاه الله بالنبوة، وبين له أركان الإيمان وأساليب التربية والإصلاح، فتوجه لتلقي التعليمات والأوامر الربانية مهديًا بهدي ربه ملقيًا عن ظهره أعباء رسم منهاج عمله[١].

البعد الدعوي في هذه المِنَّة:

أوضح الميداني أنَّ من كان مثله ﷺ ذا فطرة عالية، ونفس كبيرة، وأخلاق كريمة، فلا بد أن تكون له همة نفسية عظيمة، تكلفه أن يحمل من هموم الإصلاح البشري ما يثقل ظهره وينقضه[٢]، و تكون له همة زكية طاهرة تتلخص "رغبة في انتشار دعوته وخشية على أمته ومحافظة على ظهور ملته وحرصًا على صفاء شرعته"[٣].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٢- ٥٩٣.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٩٢.

[٣] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص ٢٤٣.

المنَّة الربَّانية الثالثة: رفع الذكر

قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ و"رفع الشيء يكون بإعلائه حتى يراه جميع الرائين فلا يكون محجوبًا عن أحد منهم"[١]، والرفع يكون حسيًا ومعنويًا[٢].

﴿ذِكْرَكَ﴾ الذكر: الصيت الحسن بين كل ذوي الإدراك"[٣].

وقد أبان الله عز وجل مِنَّة تكريمه بمجد الذكر والصيت الحسن، في وقائع وتطبيقات كثيرة، منها ما يلي[٤]:

- اقتران اسمه باسم الله في الشهادتين[٥].
- ذكر صفاته والبشارة به في التوراة والإنجيل[٦].
- صاحب الشفاعة العظمى لجميع الخلائق، حين يتخلى عنها جميع الأنبياء والمرسلين.
- ثناء الله عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٣.

[٢] يُنظر: الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج٨، ص ٥٧٨.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٣.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٩٤.

[٥] يُنظر: الفراء، يحيى بن زياد، **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، (مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة، ط١، د.ت)، ج٣، ص ٢٧٥، والطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٤٩٤، والرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣٢، ص ٢٠٨.

[٦] يُنظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٧٠، والشوكاني، **فتح القدير**، ج٥، ص ٥٦٢، والشنقيطي، **أضواء البيان**، ج٨، ص ٥٧٨.

والذكر الذي لا ينفك أبدًا عنه، ذكره ﷺ مع فعل كل طاعة واجتناب كل معصية، فهو الهادي إلى سواء السبيل والمرشد إلى الصراط المستقيم. قال الشافعيّ: "فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت، نلنا بها حظًا في دين أو دنيا، أو رفع عنا بها مكروه فيهما أو في واحد منهما، إلا ومحمد ﷺ سببها القائدُ إلى خيرها، والهادي إلى رشدها"[١].

البعد الدعوي في هذه المِنَّة:

قال الميداني: "إن انتشار الذكر الحسن بين الخلائق من أجل عناصر المجد التي يحرص عليها كرام الناس وعظماؤهم"[٢]، وقال: "نلمح من هذا أن حامل رسالة الدعوة إلى الله بحاجة إلى شيء من الغذاء النفسي التشجيعي يتصل بالتكريم، ومجد رفع الذكر بين الخلائق"[٣].

وهذه المنة كرامة يكرم الله بها الخلص من عباده الذين يحملون هم تعليم الدين ونشره بين الناس، فيكرمهم الله بالثناء الحسن، والذكر الطيب، والدعاء الخالص.

أفرد الميداني ملحقًا بعنوان: "ما يُستفاد للدعوة والدعاة من سورتي الضحى والشرح"[٤] وأوضح أنَّ التأهيل لحمل رسالة عظمى ذات مسؤوليات كبرى، يتطلب التأهيل والإعداد بنوعين أساسين:

النوع الأول: ما يتعلق برعايته في أمور ثلاثة: (نشأته في طفولته، تربيته الفكرية، تأمين معاشه) وقد أبانت سورة الضحى ما يتعلق بهذا النوع.

---

[١] الشافعي: محمد بن إدريس، **الرسالة**، تحقيق: أحمد شاكر، (مصر: مكتبة الحلبي، ط١، ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م)، ج١، ص ١٣.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩٣.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٥٩٤.

[٤] يُنظر **المرجع السابق**، ص ٥٩٧- ٥٩٨- ٥٩٩.

النوع الثاني: ما يتعلق بإعداده النفسي، ويتطلب هذا الإعداد النفسي أربعة أمور أبانتها سورة الشرح:

الأول: أن يكون ذا صدر منشرح، وقد تولى الله عز وجل شرح صدر حامل الرسالة.

الثاني: أن لا يكون مُثقلًا بحمل طموحاته الكبرى، لإصلاح قومه والناس أجمعين، وقد وضع الله هذا الحمل الثقيل بإنزال الوحي.

الثالث: تغذية نفسه بما يُرضيها من تكريم وتشجيع، وقد منح الله حامل الرسالة مجد الذكر الحميد والشرف الرفيع.

الرابع: تهيئته لاستقبال الصعوبات التي سيتعرض لها، فأبانَّ الله عز وجل، أن مع كل عسر يسرين يُذللانه، فما عليه إلا أن يتابع العمل، وهو في ذلك ملتجئًا إلى الله بالدعاء والابتهال.

المطلب الثالث: أوجه المِنَّة الربانية في سورة الكوثر

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١].

نزلت سورة الكوثر تبين أن الله عز وجل تفضل عليه بخير كثير أعظم من إبقاء ولد ذكر له يبلغ مبلغ الرجال.

وجاءت هذه المنَّة باستعمال ضمير المتكلم العظيم ﴿**إِنَّا**﴾، "للإشعار بأنَّ ما أعطاه الله لرسوله ﷺ عظيم يناسب عظمة المتكلم العظيم جل جلاله"[١] وهذا "مشعر بالامتنان بعطاء عظيم"[٢].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٥٥.

[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٥٧٢.

﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ يقال لغة: "أعطى فلانٌ فلانًا الشيء، أي ناوله إيَّاه فتناوله[١]. وهذا الإعطاء قد يكون على سبيل الهبة والمِنّة، تمليكًا أو تمكينًا من الانتفاع، وقد يكون في الماديات، وقد يكون في المعنويات، وعطاء الله لعباده من الخير هو دائمًا هبةٌ وامتنان، وجودٌ وإحسان"[٢].

﴿الْكَوْثَرَ﴾: على وزن فوعل من الكثرة، والواو زائدة لإفادة التكثير والمبالغة، والمراد الخير الكثير، والْكَثِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[٣]، وفسره الزمخشري بالمفرط في الكثرة[٤] فيقال: تَكَوْثَرَ الشيءُ: كَثُرَ كَثْرَةً متناهية[٥].

اختلفت أقوال المفسرين في المراد بالكوثر فقيل: هو نهر في الجنة[٦]، وقيل: الحوض[٧]، وقيل: "كثرة الأصحاب والأشياع"[٨]، وقيل: "النبوة"[٩]، وقيل: "تيسير القرآن وتخفيف الشرائع"[١٠]، وقيل غير ذلك[١١].

وبمثل قولهم قال الميداني، ثم قال: "هذه الأقوال تندرج تحت عموم كل خير كثير أعطاه الله رسوله محمدًا ﷺ"[١٢].

---

[١] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٥٧٢.
[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٥٦.
[٣] يُنظر: **المرجع السابق**.
[٤] يُنظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٨٠٦.
[٥] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٧٠٣.
[٦] يُنظر: مجاهد، **تفسير ابن مجاهد**، ج١، ص ٧٥٦، والطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٦٥١.
[٧] يُنظر: الثعلبي، **الكشف والبيان**، ج١٠، ص ٣٠٩.
[٨] الثعلبي، **المرجع السابق**، ص ٣١٠، ويُنظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢٠، ص ٢١٧.
[٩] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٥٢٩.
[١٠] أبو حيان، **البحر المحيط**، ج١٠، ص ٥٥٦، والنعماني، **اللباب في علوم الكتاب**، ج٢٠، ص ٥٢١.
[١١] عرض القرطبي ستة عشر قولا، يُنظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢٠، ص ٢١٧.
[١٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٥٣- ٦٥٦.

البعد الدعوي في هذه المِنَّة:

لحامل لواء الدعوة إلى الله نصيب موفور من الخير الكثير إن حُمل المعنى على إطلاقه، ولم يكن من خصائصه ﷺ، خاصة أن هناك بعض المعاني التي أوردها القرطبي في تفسير معنى الكوثر، كالشفاعة، والإسلام، والفقه في الدين، وتيسير القرآن وتخفيف الشرائع[1]، وهذه أمور تشارك الأمة فيها نبيها ﷺ هذا من جانب، ومن جانب آخر من تأمل أول السورة وآخرها يجد أن قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢)﴾ كما هو تكليف لقائد الأمة، هو تكليف كذلك لأتباعه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

[1] يُنظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢٠، ص ٢١٧.

الفصل الرابع: وصف الإنسان في بدايات التنزيل والظواهر الأخلاقية، والسلوكية الاجتماعية للمكذّبين

المبحث الأول: وصف الإنسان في بدايات التنزيل.

المطلب الأول: العلل النفسية لإعراض الإنسان عن الرسالة الربانيّة.

المطلب الثاني: الإنسان والمال حقائق قرآنية.

المطلب الثالث: رأس مال الإنسان المكلف.

المطلب الرابع: الإنسان وجحود النِّعم.

المبحث الثاني: الظواهر الأخلاقية والسّلوكية الاجتماعية للمكذّبين.

المطلب الأول: الظواهر الأخلاقية للمكذّبين.

المطلب الثاني: الظواهر السّلوكية الاجتماعية للمكذّبين.

المطلب الثالث: العلاج القرآني للمكذّبين.

المبحث الأول: وصف الإنسان في بدايات التنزيل

تتبع الميداني وصف الإنسان من بدايات التنزيل حتى نزول سورة العاديات، وذلك على النحو التالي:

- في سورة (العلق:١ نزول) قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَنْ رَّءَاهُ اسْتَغْنَى(٧)﴾.
- وفي سورة (الفجر:١٠ نزول) قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(١٦)﴾.
- وفي سورة (العصر:١٣ نزول) قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)﴾.
- وفي سورة (العاديات:١٤ نزول) قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ(٦)﴾.

"وفي هذه الأوصاف تكامل في التعريف بالإنسان المحتاج إلى دين يهديه إلى الحق والخير والفضيلة، ويبشره ويحذره وينذره"[١].

"والحكم في هذه النصوص القرآنية حكم على الجنس، والحكم على الجنس لا يعني استغراق جميع أفراده"[٢]. لكنه استغراق عرفي مراد به الناس المشركون؛ لأنهم الغالب على الناس المتحدث عنهم في القرآن النازل بمكة[٣]، وقد "يقع بعض المؤمنين في شيء من هذا المنزع"[٤].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٤٣.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٥٧.

[٣] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٢٤.

[٤] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٧٩.

وفيه أربعة مطالب[١]:

المطلب الأول: العلل النفسية لإعراض الإنسان عن الرسالة الربانيّة.

المطلب الثاني: الإنسان والمال حقائق قرآنية.

المطلب الثالث: رأس مال الإنسان المكلف.

المطلب الرابع: الإنسان وجحود النِّعم.

المطلب الأول: العلل النفسية لإعراض الإنسان عن الرسالة الربانيّة[٢]:

أوضح الميداني العلل التي أشار إليها القرآن في بدايات التنزيل، والتي تؤثر في مداها الأقصى على سلوك الإنسان حتى تُفضي به إلى السقوط في مهاوي الكفر، وقد تؤثر على سلوك المؤمنين المسلمين حتى تُفضي بهم إلى السقوط في مهاوي المعاصي والآثام حتى الكبائر من دون دركة الكفر[٣].

العلة الأولى: الطغيان

قال تعالى في سورة العلق: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَنْ رَّءَاهُ اسْتَغْنَى(٧)﴾.

قال الميداني: "العلة النفسية لدى الذين يرفضون دعوة الرب الخالق، هي الطغيان بسبب مشاعر الاستغناء"[٤].

---

[١] اقتباس هذه المطالب من الآيات الأربع السابقة، والتي فيها وصف الإنسان.

[٢] السبب في استخدام لفظ علل دون أسباب تحريًا للفظ ذاته الذي استخدمه الميداني.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٦٥.

[٤] **المرجع السابق**، ص ٧١، وينظر في الصفحة نفسها حيث قال: "أنَّ رفض الدعوة الربانية طغيان نفسي يولده الشعور بالاستغناء عما تشتمل عليه هذه الدعوة الربانية، أما من كان لديه الشعور بالحاجة لما تشتمل عليه فإنه يستجيب ولا يرفض".

وهذه حقيقة نفسية عظيمة، نبَّه القرآن على الحذر من تغلغلها في النفس[١].

﴿لَيَطْغَى﴾ يقال لغة: "طغى البحر إذا هاجت أمواجه، وطغى الماء إذا ارتفع وعلا عن حده النافع فأغرق وأتلف، وطغى فرعون أي ظلم وعتا وتجبر، وطغى الكافر أي أمعن في جحوده لخالقه ومعصيته أوامره ونواهيه"[٢]. "وكل شيء جاوز القدر فقد طغى"[٣].

﴿رَّءَاهُ﴾ أي: "رأى من ذاته أنه استغنى، وهذا من أفعال القلوب التي يصحُ فيها أن يكون ضميرا الفاعل والمفعول به واحدًا"[٤].

﴿اسْتَغْنَى﴾ "الغين والنون والحرف المعتل يدل على الكفاية"[٥] ويدل على عدم الحاجة، وليس ذلك إلا لله [٦] واستغنى الرجل: "أصاب غِنى"[٧] وقد يكون "شدة الغنى، فالسين والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل"[٨].

والاستغناء يكون بامتلاك الأشياء التي تجعل مالكها غنيًّا بها عن غيره، غير محتاج إلى أحد، (كالمال، القوة والسلطان، الصحة والعافية، الأتباع والأنصار، وكل ما يحتاج إليه) ويكون بالاستغناء عن الشيء لعدم الحاجة إليه أصلًا.

والاستغناء يكون حقيقيًا إن كان في جنب الله، فالله تعالى وحده هو الغني في ذاته عن كل شيء دونه، ويكون شعورًا نفسيًا كاذبًا إن كان في جنب الإنسان، الذي يرى نفسه مستغنٍ عن

---

[١] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص٤٤٢.
[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧.
[٣] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٥، ص ٧.
[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٦.
[٥] ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج٤، ص ٣٩٧.
[٦] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٦١٥.
[٧] الفراهيدي، **العين**، ج٤، ص ٤٥٠.
[٨] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٤٤٤.

ربه، وهو في حقيقة حاله غارق في الفقر إليه، محتاج إليه في كل مطلب من مطالبه، وهو يعلم أن الله وحده هو الذي يخلقها ويثبتها له[١].

سبب الطغيان

القرآن يعرض ظاهرة من ظواهر السلوك الإنساني وهي أن الإنسان متى شعر باستغنائه بأسبابه التي أتاحها الله له طغى، فغطى طغيانه على بصيرته، فكفر بربه، وجحد الحق، وهذه الصفة في الإنسان صفة شرطية، إذ ليس كل إنسان طاغيًا بالفعل، ولكن من رأى أنه استغنى طغى، ولزوم الطغيان للشعور بالاستغناء في مركب هذا الإنسان يكاد يكون قاعدة مطردة[٢].

لذا قيل: "رؤية الغنى تورث الاستغناء، والاستغناء يورث الطغيان"[٣] وقيل: "الغنى مطغ إلا من عصم الله"[٤].

وهذا ما دفع الميداني أن يخاطب الإنسان بقوله: "أتدري أيها الإنسان المستنكف عن الاستجابة لدعوة ربك لك، ما هي علة دائك وداء أمثالك في استكبارك وطغيانك؟ إن توافر نعم الله عليك في حياتك وتوافر أسبابها، جعلك تشعر بأنك غنيٌّ، مستغنٍ بوسائلك التي جعلها ربك بين يديك ليمتحنك في ظروف هذه الحياة. إنَّ طول ممارستك للأسباب التي تأتيك مسبَّباتها بخلق الله، جعلك تزعم أنها متاحة لك دوامًا، وجعلك تنسى الرب الخالق الذي سخرها لك ليبلوك، وتنسى

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٦- ٥٨.

[٣] التستري، **تفسير التستري**، ج١، ص ٢٠٠.

[٤] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٥٠٢.

أنه متى سلبها بأسباب خفية أو ظاهرة لا تملك دفعها ولا رفعها، فإنك لا تستطيع استعادتها، ... وهذا الاستغناء نفخ فيك الكبر، ... فطغيت في فكرك ونفسك وعملك"[١].

من صور الطغيان

تتعدد صور الطغيان بأشكال وألوان شتى، منها ما يكون ضرره على الفرد نفسه مترجمًا بالكبر وعدم الإيمان باليوم الآخر وإيثار الحياة الدنيا، والإلتهاء بالتكاثر من متاعها[٢]، ومنها ما يكون ضرره على الآخرين بالسفك والقتل والبغي والظلم وغيرها من الجرائم، وقد ضرب القرآن في (سورة الفجر/١٠ نزول) أنموذجًا ل ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ(١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(١٢)﴾ فكانت النتيجة ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(١٣)﴾.

وأعظم صور الطغيان جرمًا، وأشدها ضررًا هو التدخل في عقيدة أهل الحق، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾[العلق:٩-١٠] والطغاة في كل زمان ومكان لا يألون جهدًا في الصد عن الدين، ومحاربة الموحدين، باستخدام كافة الوسائل والقوى المادية أو المعنوية، سواء كان اضطهادهم لأن الهدى متمكن منهم عقيدة وعبادة، أو كان اضطهادهم لأجل أنهم دعاة إلى سبيل الحق واتباع الشرع[٣].

والأصل أن تكون حرية الاعتقاد والعبادة مصونة في المجتمع البشري، ولا يصح أن تكون عرضة للإكراه فعلًا ولا تركًا[٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٩- ٦٠.

[٢] سيأتي الحديث عن هذه الصور في نقاط مستقلة.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٧.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦٤.

العلاج القرآني

أ- التذكير بالرجوع إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق:٨] والخطاب "واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان، تهديدًا له وتحذيرًا من عاقبة الطغيان"[١]، فأمواله وما ملكت يمينه من أسباب لا تدفع عنه الموت، والموت رجوع إلى الله وبعده الجزاء على ما وقع منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا(٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا(٢٢)﴾ [النبأ][٢] وهذا الخبر فيه "وعيد للطاغين من الناس"[٣].

ب-التخويف بالوعيد والتصريح به، فقال الله تعالى بأسلوب الخطاب الإفرادي: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥][٤].

وقد صرحت سورة الفجر بطريقة الهلاك المصحوبة بآلام العذاب النازل على الطغاة فقال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ واستعارة فعل (فَصَبّ) للدلالة على إنزال العذاب بتتابع وعنف، واستعارة لفظ (سَوْطَ) للأدوات الربانية التي أهلك الله بها الأقوام وإضافته غلى كلمة (عَذَابٍ) للدلالة أن إهلاكهم لم يكن مجرد إماتة لم تقترن بعذاب، بل كان مقرونًا بإذاقتهم العذاب الشديد المتتابع[٥]. وهذه الأخبار قصها القرآن للاعتبار.

ج- أوصى القرآن بعدم الاكتراث لتهديد الطواغيت، وأوصى بالثبات والتزام التوجيهات الربانية، قال تعالى:﴿ كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[العلق:١٩] "وهذا الخطاب موجه لكل مؤمن يعبد ربه، ويجد من ينهاه عن إيمانه وعبادته، ويضطهده من أجل

---

[١] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٧٧، ويُنظر: النسفي، **مدارك التنزيل**، ج٣، ص ٦٦٣.

[٢] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٤٤٦.

[٣] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٥٠١.

[٤] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٧٤، ويُنظر: مبحث الدفاع عن الرسول ﷺ، ص ١٠٣.

[٥] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٢٩.

ذلك" ، وقد أمر الله بما يدل على غاية الخضوع الجسدي والنفسي والقلبي له جل جلاله وهو السجود[١]، وأمر كذلك بالقراءة التي تعمق الصلة بالله ومعرفة مراده من خلقه؛ لذا أشار القرآن إلى ضرورة استخدام الدواء الناجع الذي ورد في أول سورة العلق وآخرها لمواجهة دعوات الطغاة في كل العصور[٢].

العلة الثانية والثالثة: الكبر وعدم الإيمان باليوم الآخر

قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً(٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآَخِرَةَ (٥٣)﴾ [المدثر].

قال الميداني: "في هاتين الآيتين بيان لعلتهم النفسية التي جعلتهم ينفرون من تذكرة القرآن وبياناته، فجرتهم إلى الكفر الذي هم فيه، وهي تتلخص بأمرين: ١. الكبر. ٢. عدم الإيمان بالآخرة الذي جعلهم لا يخافون من عقاب الله فيها"[٣].

العلة الثانية: الكبر

الكبر: هو حالة تحدث من إعجاب الإنسان بنفسه، فيرى نفسه أكبر من غيره[٤]. وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ "بيان لعلة الكبر في نفوسهم، الذي جعلهم يتطاولون إلى أن يكون كل امرئٍ منهم ذا مكانة، فيهم نبيًّا يؤتى من قبل ربه صحفًا تنزل عليه، وهذه الصحف ينبغي أن تكون منشرة غير مطوية، رغبة منهم في أن يكون لها مظهر معلن

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٧٠.

[٢] يُنظر: حوّى، **الأساس في التفسير**، ج١١، ص ٦٦١٠.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٤٢.

[٤] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٦٩٧.

يراه الناس، فيكون لهم به مجد الشهرة بأن الله نزل عليهم هذه الصحف مُكرمًا لهم بها، وهذا من فرط الكبر في نفوسهم"[١].

أسباب الكبر

قال الغزالي: "الكبر الظاهر أسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما، أما السبب الذي في المتكبر فهو العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة العجب والحقد والحسد والرياء"[٢] وهذه الأسباب كلها مجتمعة في وليّهم الشيطان، واتبعوه في ذلك.

أعظم صور الكبر

أ- أن يرى نفسه أكبر من أن يخضع للحق فيُترجم "التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة"[٣]، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٨)﴾ [الجاثية].

ب-أن يرى نفسه أكبر من الناس فيُترجم بغمطهم أي "احتقارُهم وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم، دفع حقوقهم وجحدها، واستهان بها"[٤]. وقد دل عليهما حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٤٢.

[٢] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص ٣٥٣.

[٣] الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٦٩٧.

[٤] ابن القيم، **مدارج السالكين**، ج٢، ص ٣١٨.

مِنْ كِبْرٍ»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»"[1].

العلاج القرآني

أ- القرآن يذكر الإنسان في آيات كثيرة بأصل خلقته قال تعالى:(كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ) [المعارج:٣٩].

ب-التصريح بالوعيد ودخول الجحيم، وقد ورد ذلك في نجوم التنزيل المكي والمدني قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢].

العلة الثالثة: عدم الإيمان باليوم الآخر

قال ابن القيم: "الأصول الثلاثة التي اتفق عليها جميع الملل وجاءت بها جميع الرسل وهي الإيمان بالله واليوم الآخر والأعمال الصالحة"[2]، لذا نجد في آيات كثيرة الارتباط الوثيق بين ركني الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين الإيمان والعمل الصالح.

---

[1] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ج١، ص ٩٣، رقم الحديث (٩١).

[2] ابن القيم، **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية**، تحقيق: علي الدخيل الله، (الرياض: دار العاصمة، ط١، ١٤٠٨)، ج٣، ص ١٠٩٦.

وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ "بيان لعلتهم النفسية"[١] "... فكني عن عدم الإيمان بالآخرة بعدم الخوف منها، لأنهم لو آمنوا بها لخافوها.."[٢].

وقد سلط القرآن الحديث عن المكذبين وما ينتج عن هذا التكذيب من ظواهر أخلاقية وسلوكية اجتماعية، وكيف عالج القرآن الكريم هذه العلة، وهو ما سيأتي الحديث عنه بإذن الله تعالى في المبحث الثاني من هذا الفصل.

العلة الرابعة: إيثار الحياة الدنيا

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٧)﴾ [الأعلى].

الآية بينت "علة نفوسهم في الإعراض عن دين الله، وعن المذكرات به، وهي أنهم يؤثرون الحياة الدنيا العاجلة، على السعادة الخالدة"[٣].

﴿تُؤْثِرُونَ﴾ (أثر) الهمزة والثاء والراء، له ثلاثة أصول، ومنها تقديم الشيء[٤]، "وأثر أن يفعل كذا أثرًا وأثر وآثر، كله: فضل وقدم"[٥] "والإيثار: اختيار شيء من بين متعدد"[٦].

قرأ أبو عمرو ﴿يُؤْثِرُونَ﴾ بياء الغائبين، وقرأ باقي القراء العشرة ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بتاء المخاطبين[٧].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٤٣، ويُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٠٠، حيث قال: "هذه العلة والسبب في إعراضهم، فكان جهلهم بالآخرة سبب امتناعهم للهدى حتى هلكوا".

[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٣٣١.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٤٢.

[٤] يُنظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج١، ص ٥٤.

[٥] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص ٧.

[٦] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٢٨٩.

[٧] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٣٥، ويُنظر: ابن الجزري، **النشر في القراءات العشر**، ج٢، ص ٤٠٠.

"وبين القراءتين تكامل بياني، فالذين يلائم حالتهم النفسية الخطاب يقال لهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ والمعرضون والمتولون يلائم حالتهم النفسية أن يقال بشأنهم: ﴿بَلْ يُؤْثِرُونَ﴾"[١].

سبب إيثار الحياة الدنيا على الآخرة

قال الميداني: ".. وهذا من الناس تعجل وقصر نظر، أو جهل وعدم إيمان بيوم الدين، ولا بما جاء عن الله في ذلك من خبر يقين، وعدم الالتفات إلى حكمة الله في الخلق التي تقتضي حتمًا حياةً أخرى للحساب والجزاء"[٢].

صور إيثار الحياة الدنيا

"الكافر يؤثرها إيثار كفر يرى أن لا آخرة، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله"[٣]، أو يؤثرها بـ"التوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتمامًا زائدًا على اهتمامه بالطاعات"[٤]، أو تحصيل متاعها حتى لو جرَّه ذلك إلى تبعات يحاسب عليها يوم القيامة، وقد ضع ابن عاشور ضابطًا حسنًا فقال: "... فأما الاستكثار من منافع الدنيا مع عدم إهمال أسباب النجاة في الآخرة فذلك ميدان للهمم وليس ذلك بمحل ذم. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ [القصص: ٧٧]"[٥].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٦٤.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٤٦٥.

[٣] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٧٠.

[٤] الشوكاني، **فتح القدير**، ج٥، ص ٥١٧.

[٥] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٢٩٠، والميداني يرى ألا يأخذ الإنسان إلا قدر حاجته منها، وما زاد عن الحاجة فهو من اللهو الذي يشغل عن الآخرة وتحصيل الدرجات الرفيعة فيها.

وما وقع به بعض أهل الإسلام من تكالب على الدنيا وجمع لحطامها والإخلاد إلى الأرض والركون إلى أعداء الدين، ما هو إلا للإصابة بهذه العلة وهذا الداء، "فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة"[1].

العلاج القرآني

العلم بحقيقة الآخرة قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أشار الميداني إلى أن الآخرة وما فيها من نعيم خير من متاع الدنيا، كمًّا وكيفًا وأبقى في مدى الإحساس باللذات، مع الخلود الذي لا آخر له.

فاللذة التي يصيبها المستمتع بلذات الحياة الدنيا قصيرة الزمن، قليلة الكم، ضعيفة الكيف. أما اللذات التي يصيبها المنعم في نعيم الجنة فهي مديدة الزمن، كثيفة الحجم، عميقة التأثير، كثيرة الكم، قوية الكيف، فهي خير وأبقى من كل وجه، فمن آمن بهذه الحقيقة، ثم آثر العمل والكدح للحصول على لذات الحياة الدنيا، فإنه يعلن بإيثاره هذا عن قله عقله، وضعف إرادته[2].

وقد جاء في أحاديث الرسول ﷺ ما يوضح الفرق الكبير الذي لا يدركه التصور بين نعيم الجنة، ومتاع الحياة الدنيا ومنها ما روي عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟

---

[1] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٩٢١.

[2] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٦٥- ٤٦٦.

فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»[١] ومن أدرك حقيقة الآخرة وآمن بها، سعى لها سعيها، وآثر اتباع كل ما فيه مرضاة الله، مهما بذل من جهد، أو تحمَّل من مكاره[٢].

وطالما أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، ولا يرجون لقاء الله فهذا يدفعهم إلى علة أخرى من العلل النفسية وهي علة التلهي بالتكاثر.

العلة الخامسة: التلهي بالتكاثر

قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] وفي الآية "بيان العلة النفسية التي جعلت الكافرين يستبعدون عن أجهزة التفكُّرِ فيهم التَّفكُّرَ بيوم الدين، ... إنها علة التلهي بالتكاثر من الأموال ومن لذات الحياة الدنيا.."[٣].

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ اللهو: هو "الاشتغال بأمرٍ غير ذي شأن والانصراف به عمَّا يجب توجيه الجهد والعمل له، كالاشتغال بما لا حاجة له من زينة الحياة الدنيا عن العمل للآخرة"[٤].

و﴿التَّكَاثُرُ﴾: "التباري في كثرة المال والعز"[٥] "بتتابع متدرج دون توقف عند حدّ"[٦]. وقد ألهاهم حب الدنيا والتكاثر منها حتى جحدوا توحيد الله تعالى، والتفكر في حجج رسول الله ﷺ، وذكر البعث[٧].

---

[١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة، ج٤، ص ٢١٦٢، رقم الحديث (٢٨٠٧).

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٦٦.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٦٦٤.

[٤] **المرجع السابق**، ص ٦٦٧.

[٥] الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٧٠٣.

[٦] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٦٧.

[٧] يُنظر: الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، ج١٠، ص ٦٠٧.

يرى الميداني أن العمل بدافع التكاثر دون الحاجة الى الزيادة هو من اللهو[١]، "فكم من كادٍّ كادحٍ مستكثر من جمع الأموال، واقتناء تحف الدنيا، محروم من الاستمتاع بما يجمع في حياته، ومحروم من حظ الآخرة عند الله في جنات النعيم، ومُضيّعٌ عمره في التلهي بما لا خير له منه، هذا إذا استطاع في جمعه واقتنائه واستكثاره أن يسلم مما يحمل به إثمًا، أو يجني به جُرمًا، أو يغرم به غُرمًا، أو يظلم به ظلمًا، أو يُعذِّبَ به نفسَهُ همًّا وغمًّا"[٢].

ثم أشار إلى الترابط بين سورة (العصر/١٣ نزول) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)﴾ وسورة (العاديات/ ١٤ نزول) في قوله تعالى:﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٨)﴾ وسورة (التكاثر/ ١٦ نزول) في قوله تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(١)﴾ فقال: "ومن هذه السور الثلاث نستخلص أن دافع حبَّ المال حبًّا شديدًا مع رغبة التكاثر منه ومن سائر الأولاد وسائر زينة الحياة الدنيا، ومع توجيه الجهد والطاقة خلال مرور ساعات العمر، للجمع من الدنيويَّات الفانيات من أعظم أسباب وقوع الإنسان في الخسر، ما تتابع عليه مرور العصر، الذي هو الزمن السّيَال، وعُمُر الإنسان مقطع سيَّال منه. وهكذا يتكامل بناء الأفكار المعرفية في القرآن، مع مراحل التنزيل، لبنةً فلبنةً، وضمن هذا المنهج التدرجي تتكامل الموضوعات القرآنية جامعة كل عناصرها"[٣].

العلاج القرآني

أ- تكرير الردع والزجر بكلمة (كلا) ثلاث مرات، قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)﴾[التكاثر]، وقد أشار الميداني:

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٦٨.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٦٦٩.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٦٧١.

أن تصحيح مسيرة الإنسان في حياته الدنيا حتى يُلجمُ دافعه إلى التكاثر ينبغي أن يبدأ بأن يعلم علم اليقين الغاية من رحلة الحياة الدنيا، والمصير الذي هو صائر إليه بعدها، وهذا العلم سيتحقق في واقع لا يستطيع رده[١] في ثلاث مراحل، وكل مرحلة منها تقع في مرتبة من مراتب العلم[٢]:

المرتبة الدنيا: مرتبة تحقق العلم النفسي، وهذا العلم يكون منذ ملامستهم عتبة الموت، ويرافقهم طوال مدة البرزخ، ويسمى هذا العلم علم اليقين، لأن أدلته في نفوسهم تفيد اليقين.

المرتبة الوسطى: مرتبة العلم القائم على الشهود والمعاينة، وهذا العلم يكون في موقف الحشر بعد البعث للحياة الأخرى، إذ يحشرون إلى قرب النار فيشاهدونها، ويسمى هذا العلم عين اليقين لمعاينته.

المرتبة العليا: مرتبة العلم القائم على الإحساس الجسدي الكامل حين يذوقون عذاب النار في الجحيم، فتشترك كل حواسهم في إدراك هذه الحقيقة العلمية، ويسمى هذا العلم حق اليقين، لتحققه في الواقع تحققًا تامًا لا يحتمل دخول التوهم فيه[٣].

ب–ما ينبغي معرفته أنَّه مهما ملك الإنسان من ثروات، وحاز من كنوز وأموال، فلا يعدو ماله الحقيقي إلا إحدى ثلاث وهو ما رُوي عن مطرف، عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك، يا

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٨٣.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٦٧٤، ويُنظر: ص ٦٨٣– ٦٨٤.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦٧٣– ٦٧٤– ٦٨٣، وجدت الباحثة هذا المعنى عند السعدي في تفسير قوله تعالى في سورة الحاقة (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) فقال: واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:
أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.
ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.
ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة، السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص ٨٨٤.

ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»[١]، وما عدا ذلك هو لورثته من بعده.

القرآن يشير إلى هذه العلل في بدايات التنزيل من (الطغيان، الكبر، عدم الإيمان بالآخرة، إيثار الحياة الدنيا، والتكاثر منها بلا حد) باعتبارها العلل الأم والتي يتولد عنها ومنها سائر العلل والآفات[٢].

المطلب الثاني: الإنسان والمال حقائق قرآنية

العناية الرَّبانيّة بقضية المال، والتكافل الاجتماعي تأتي في المراحل المبكرة من تنزيلات القرآن، وما ذلك إلا للدَّلالة على السلوك الإنساني الإسلامي المطلوب مع أوائل التنزيل، وللدلالة على ضرورة سد حاجات الضعفاء والمحتاجين في المجتمع[٣].

وقد تتبع الميداني سلسلة الحديث عن المال في سورة (العلق، المدثر، الأعلى، الليل) وعدَّ ما نزل في سورة الفجر "خطوة مضافة إلى الخطوات التي جاءت حول هذا الموضوع في السُّور السابقة نزولًا، ضمن سنة البناء المتدرج في التعليم والتربية والتوجيه والنصح والإرشاد"[٤].

- جاء في (سورة العلق/١ نزول) تمهيد لقضية بذل المال، ببيان أن مشاعر الاستغناء من أسباب طغيان الإنسان، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى(٧)﴾.

---

[١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الزهد والرقائق، ج٤، ص ٢٢٧٣، رقم الحديث (٢٩٥٨).

[٢] إضافة إلى علة العناد والحسد جاء ذكرهما مع أوائل التنزيل في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ وقد سبق الإشارة إليهما في مبحث الدفاع عن حامل الرسالة.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٩٣.

[٤] **المرجع السابق**، ص ٥١٦.

- بعدها جاء في (سورة المدثر/٢ نزول) بيان أن من أسباب التعذيب في سقر عدم إطعام المسكين، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤)﴾.
- ثم جاء في (سورة الأعلى/٨ نزول) إلماح ضمني إلى حرص الناس على المال وشحهم به، ضمن قضية عامة، وهي بيان أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، فقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٦)﴾.
- في (سورة الليل/٩ نزول) برز التوجيه بقوة للعطاء المالي، المبني على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والتحذير من البخل وإمساك المال عن مستحقيه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠)﴾[١].
- في (سورة الفجر/١٠ نزول) جاء بيان واجب الإنسان الممتحن تجاه المال، ومنه الحث على إكرام اليتيم وإطعام المسكين، وفيه التخفيف من تعلق النفوس به، والذي يجعل المتعلق به يبخل ويمنع ما يجب بذله. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(١٦) كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨)﴾[٢].
- في (سورة الضحى/١١ نزول) قال الميداني: "جاء فيما سبق من تنزيل القرآن التوجيه للعطاء والأمر به، إذ أمر الله فيه رسوله ﷺ بأن يمُنَّ غير مستكثر، وذم الكافرين بأنهم

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٩٣- ٤٩٤- ٥٣٢.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥١٤-٥٣٢.

لا يحضون على إطعام المسكين، أي فمن خلائق المؤمنين أنهم يطعمون المسكين، ويحضون على إطعامه. إذن فالخصلة الحميدة التي يحسن التوجيه لها، بعد هذه السوابق حول موضوع العطاء هي عدم نهر السائل ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠)﴾"[١].

- (سورة العاديات/١٤ نزولا) تُبين أن الحب الشديد للمال مغروس في فطرة البشر، وهو الذي ولَّد قبيحة غزو الناس بعضهم لبعض، بُغية سلب الأموال ونهبها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٨)﴾[٢].
- (سورة التكاثر/١٦ نزولًا) تُبين العلة النفسية التي جعلت الكافرين يستبعدون عن أجهزة التَّفكُّرِ فيهم التَّفكُّرَ بيوم الدين، وهي علة التكاثر خاصة بالمال[٣].

إنَّ المتأمل في نجوم التنزيل، يجد أن الخطوط الجلية البارزة مع أوائل مراحل التنزيل، بعد الاهتمام بأسس العقيدة، وفضائل الأخلاق، تأتي في محاسن التعامل الاجتماعي، وقد أوضح الميداني الحكمة من ذلك فقال: "العطف على ضعفاء المجتمع وبائسيه، من الوسائل التي تملك القلوب، وتأسر النفوس، فينبغي أن تكون مُقَدَّمةً على الدعوة إلى دين الله والهداية إلى الصراط المستقيم، وهذه الدعوة تتضمن الحث على مخالفة التقاليد والعادات وأهواء النفوس وشهواتها، فلا بد لها من وسائل تسبقها، من شأنها أن تستعطف القلوب والنفوس، وتُلين ما تصلب فيها ضد الحق والخير والفضيلة، وهذا إنما يكون عن طريق محاب النفوس، ومُرضيات حاجاتها، وضروريات

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧٢.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦٢٨- ٦٢٩.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦٦٤.

حياتها، وإشعارها بما في هذا الدين من خدمات اجتماعية جليلة، وعواطف إنسانية نبيلة"[١]، والأمر الآخر في تتابع التوجيه للعطاء كونه علاجاً للتخفيف من تعلق النفوس بالمال وبالتالي يحصل تكافل الأفراد وتضامنهم[٢].

حقائق قرآنية تتعلق بالمال:

الحقيقة الأولى: الاستغناء يورث الطغيان، والطغيان يورث سائر العلل[٣].

الحقيقة الثانية: القاعدة العريضة في قضية بسط الرزق وتقتيره هي الابتلاء.

الحقيقة الثالثة: شره الإنسان في حيازة الأموال.

الحقيقة الرابعة: حب الإنسان الشديد للمال.

الحقيقة الخامسة: البخل والترهيب منه.

الحقيقة الثانية: القاعدة العريضة في قضية بسط الرزق وتقتيره هي الابتلاء[٤]

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(١٦)﴾.

القرآن يُصحح ويُصوب مفاهيم الناس حول قضية الرزق، ويبين أن الامتحان ببسط الأرزاق، أو بتضييقها هو من أكثر الامتحانات كشفا لكوامن النفوس[٥]، "لكنَّ الإنسان أخطأ الفهم

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧٦.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥١٥.

[٣] يُنظر: المطلب الأول: العلل النفسية لإعراض الإنسان عن الرسالة الربانيّة، ص ١٦٢.

[٤] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٤.

[٥] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٣٢.

عن الله، وأخطأ في تعليل تصاريفه في خلقه، ... فزعم أن بسط الرزق تكريم من الله لعبده، وأن تضييقه إهانة من الله له. وكلا التوهُّمين باطل يستحق صاحبه عليه الزجر والردع"[١].

وهذه نظره قاصرة "فإن الإقتار قد يؤدي إلى سعادة الدارين، والتوسعة قد تؤدي إلى شقاوتهما"[٢]، وكان "الأولى لهم أن يتطلبوا الحقائق من دلائلها العقلية، وأن يعرفوا مراد الله من وحيه إلى رسله"[٣]، ومعرفة "أن المطلوب في هذا الابتلاء الرباني من الذين وسع الله لهم في الرزق أن يبذلوا من أموالهم لرفع البؤس عن الذين ضيق الله عليهم أرزاقهم"[٤].

الحقيقة الثالثة: شره الإنسان في حيازة الأموال

قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر:١٩].

تُرَاثٌ أصله وُرَاثٌ، أبدلت واوه تاء[٥]، وهو "ما يُورَثُ مما كان للميت من مال تركه، أو مجد أو غير ذلك من أمور مادية أو معنوية"[٦].

(اللَّمُ) "الجمع المستغرق، يقال لغة: لَمَّ الشيءَ يَلُمُّهُ لَمًّا، إذا جمعه جمعًا شديدًا. وجاء وصف (أكلًا) بالمصدر (لَمًّا) للدلالة على زيادة الشَّره في حيازة الميراث وامتلاكه"[٧].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٣.

[٢] البقاعي: إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ط، د.ت)، ج٢٢، ص ٣٣.

[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٢٤.

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٦.

[٥] يُنظر: الاصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٨٦٣.

[٦] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٨.

[٧] المرجع السابق.

واستعير فعل الأكل لأنه من "أكثر الأعمال الدَّالة على الحيازة والامتلاك والانتفاع"[١] و"هذه الاستعارة من مبتكرات القرآن"[٢].

وقد اتفقت أغلب أقوال أهل التفسير أن هذه الآية تعبير عن أنهم يأكلون بحق نصيبهم، وبغير حق نصيب غيرهم، ممن لا يستطيع الذب عن نفسه من النساء والصبيان ويسفونه سفا ولا يتركون منه شيئًا[٣].

غير أن ابن عاشور قصر هذا الأكل على "الذي لا حق لهم فيه، ومنه يظهر وجه إيثار لفظ التراث، ...لأن التراث مال مات صاحبه، وأكله يقتضي أن يستحق ذلك المال عاجز عن الذب عن ماله لصغر أو أنوثة"[٤].

أما الميداني فقد درس هذه الآية من جانب ما هو سائد وغالب على الطبيعة البشرية فقال: "هذه الآية تدل على أن الناس بوجه عام، لديهم شَرَهٌ شديدٌ لامتلاك الأموال دون بذل جهد أو عمل مكافئٍ رغبة في تحصيل الثروات والاستكثار منها دون كسب ذاتي، ونموذجه الظاهر للجميع أكل الميراث أكلا لَمًّا جامعًا كل صغير وكبير فيه"[٥]، ثم قال: "وهذا التعلق النفسي الشديد بالأموال يُبلد حِسَّ الإنسان تُجاه الآخرين من ذوي الحاجات والضرورات"[٦].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٨.

[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٢٤.

[٣] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٤١٢، والزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٥٠، وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٤٧٩.

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٢٤.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٨.

[٦] **المرجع السابق**، ص ٥٣٩.

الحقيقة الرابعة: حب الإنسان الشديد للمال

قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

"الجَمُّ: هو الكثير من كل شيء، أي تحبون المال حبًا كثيرًا"[١].

والحب لا يوصف بالكثرة؛ لأنه من المعاني النفسية، فالجم مستعار لمعنى القوي الشديد، أي حبًا مفرطًا، وفي هذا ذم حب المال؛ لأنه يوقع صاحبه في الحرص على اكتسابه ولو بالطرق غير المشروعة[٢]. ويوقع في النَّهم للجمع والاستزادة منه ولو كان ما يجمعه يزيد عن حاجته مهما طال عمره في الحياة[٣].

قال الميداني: "... وفي هذا البيان كناية عن أن بخلهم بأموالهم، وإمساكهم لها وحرمان ذوي الحقوق من حقوقهم سببه أنهم يحبون المال حبًا جمًا، حتى يكون داءُ حبهم للمال غير مرتبط بحاجتهم إليه لقضاء مطالبهم من الحياة الدنيا وزينتها"[٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٩.

[٢] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٢٤.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٩.

[٤] المرجع السابق.

وجاءت سورة العاديات تؤكد هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ جاء الخير في القرآن على عشرة أوجه[١] وهو هنا المال[٢] وكانت العرب تسميه خيرًا، مع أنه وسيلة تستعمل في الخير والشر[٣].

والمراد بقوله: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ قولان[٤]:

أحدهما: وإنه لقوي المحبة للمال. والثاني: وإنه لحريص بخيل من محبة المال. يقال للبخيل: شديد ومتشدد.

يرى الميداني أن الإنسان لأجل حبه الشديد للمال "قويٌ في البغي والظلم والعدوان والجرأة على الحق بالباطل، والجرأة على ربه بالكنود والعصيان، وحذف معمول شديد ليشمل كل قبائح الجاهلية التي تفرزها رغبات غزو الناس بعضهم لبعض طمعًا بالاستيلاء على أموالهم"[٥]، وهذا واقع ملموس على مستوى الأفراد والجماعات والدول.

الحقيقة الخامسة: البخل والترهيب منه

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠)﴾[الليل].

---

[١] أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل، **الوجوه والنظائر**، تحقيق: محمد عثمان، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م)، ج١، ص ٢١٣.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٣٧، ويُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٥٦٧، والزجاج، **معاني القرآن وإعرابه**، ج٥، ص ٣٥٤، والقرطبي، **جامع أحكام القرآن**، ج٢٠، ص ١٦٢.

[٣] الميداني، **المرجع السابق**، ص ٦٣٦- ٦٣٧.

[٤] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٥٦٧، والزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٨٦، والقرطبي، **جامع أحكام القرآن**، ج٢٠، ص ١٦٢، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٨، ص ٤٦٥.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٣٧.

البخل هو إمساك المقتنيات عمّا لا يحق حبسها عنه، وهو ضربان: بخل بقنيات نفسه، وبخل بقنيات غيره، وهو أكثرها ذمّا، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧][١]، وهو من أرذل الأخلاق، والبخيل: هو "الذي يمنع في موضع العطاء"[٢].

وهذا الصنف من الناس "بخل بما يملك من مال على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وشعر بأنَّه استغنى بأمواله عن ربه، متوهمًا أن أمواله تقضي له كل حاجاته ومطالبه من الحياة، فطغى، وكفر بأنعم الله عليه وكذب بالرسالة التي يبلغها الرسول ﷺ عن ربه، فلم يؤمن بها، مع أنها الحسنى، وتفوقها في الحسن على كل ما يخالفها شاهد دائم على أنها رسالة ربانية حقًا وصدقًا"[٣].

توعدَّه الله عز وجل بقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أي: فسنُهيئه في نفسه وجسده وقدراته المختلفة، لاختيار الأسباب والوسائل ولسلوك ما يشاء من مسالك وسبل، حتى تنتهي به مسيرته في حياته للأمور العسرى، في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة[٤].

فهو لا يوفق لطاعة بل يخذل وتمنع عنه الألطاف الإلهية[٥]، ويعمل بما لا يرضي الله، فيستوجب بذلك النار[٦].

هكذا القرآن يبين فطرة الإنسان وطبعه مع المال القائم على الحب الجم والشح والحرص، وهذا أمر لا يمكن تغيره ما لم يخالط الإيمان الصادق بشاشة قلبه، فالإيمان يُحيل أثرته

---

[١] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ١٠٩.
[٢] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢٠، ص ٨٤.
[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٤٩٧.
[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٤٩٨.
[٥] يُنظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٦٢.
[٦] يُنظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج٥، ص ٢٦٢.

وشحّه إيثارًا ورحمة، ويريه القيم الحقيقية التي تستحق التنافس والكدح. وهي قيم أعلى من المال وأعراض الحياة الدنيا[١].

المطلب الثالث: رأس مال الإنسان المكلف

في سورة (العصر:١٣ نزول) وصف الله الإنسان بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ(١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)﴾.

و"القسم بالعصر إشارة إلى أن الإنسان هو الإنسان مهما اختلفت عليه الأزمنة، في خصائصه النفسية التي تدفعه إلى أن يعبر عنها بأنواع من السلوك تؤدي به إلى الخسر في أكثر أحواله منذ عهد آدم إلى أن تقوم الساعة"[٢].

البناء الفكري التدرجي في سوابق التنزيل حتى نزول سورة العصر

قال الميداني: "سبق في السور التي نزلت قبل سورة (العصر) الاهتمام ببيان القضايا التالية[٣]:

القضية الأولى: التوجيه للقراءة والتَّعلّم واكتساب العلم.

القضية الثانية: بيان حاجة الإنسان حتى لا يطغى إلى الدين، الشامل للبيان الرَّباني للناس، وبيان الرّسول ﷺ المبلغ عن ربه، وقانون الجزاء، ويوم الدين.

القضية الثالثة: الحث على عبادة الله بالصلاة والدعاء، وعلى البذل والعطاء للمساكين وذوي الحاجات.

وبعدها جاء في سورة العصر بيان قيمة الوقت بالنسبة إلى الإنسان المكلف".

---

[١] يُنظر: قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٩٥٨.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦١١.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٦٠٦– ٦٠٧.

اختلفت أقوال أهل التفسير في معنى العصر فمنهم من قال إنه "اسم للدهر، وهو العشيّ والليل والنهار"[١]، وقيل هو: "ما بعد زوال الشمس إلى غروبها"[٢]، وقيل: الصلاة المؤقتة بوقت العصر وهي صلاة العصر[٣]، وقيل: "عصر الرسول ﷺ لفضله بتجديد النبوة فيه"[٤].

الميداني يرى أن العصر هو الوقت والذي عبر عنه بالنهر السّيال الذي لا ثبات له، و"لا يملك أحد من الخلق إمهَالَهُ، أو تطويعَهُ للانتظار، وإنما يملك أن يغترف فيه نفعًا، أو يَصيدَ من كل موجه مارّه منه صيدًا ثمينًا"[٥].

والخسر مصدر وهو ضد الربح في التجارة[٦] والخَسر والخُسران: النقص، وأخسرته أنقصته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٣][٧] وقد فصل الميداني في أوجهه فقال هو: "النقص مما يملك المالك من ماله أو جسمه أو عمره، أو لذته وسعادته، أو نحوها، والنقص أيضًا مما يستطيع أن يَغنمه ففاته بإهماله وتقصيره"[٨].

وهو محيط بالإنسان إحاطة الظرف بالمظروف، وهذا سر التعبير بـ (في) التي تفيد الظرفية المجازية فكانت أبلغ من أن يقال: إن الإنسان لخاسر[٩]، أو كما قال الميداني: "لهو محاط بخسر، كالغريق في وحل حيَواناته تأكل منه باستمرار"[١٠]، وجاء تأكيد هذه القضية بالقسم، وحرف

---

[١] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٥٨٩.
[٢] الثعلبي، **الكشف والبيان**، ج١٠، ص ٢٨٣.
[٣] يُنظر: السمرقندي، **بحر العلوم**، ج٣، ص ٦١٥، والكشاف، **الزمخشري**، ج٤، ص ٧٩٣.
[٤] الماوردي، **النكت والعيون**، ج٦، ص ٣٣٣.
[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦١٧.
[٦] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٥٣١.
[٧] يُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص ٢٣٩.
[٨] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٠٨.
[٩] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٥٣١.
[١٠] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٠٨.

التوكيد (إنّ)، واللام المزحلقة إلى الخبر، والجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام[١]، والتنكير في(خُسْر) يجوز أن يكون للتعظيم والتهويل[٢]، ويجوز أن يكون للتنويع أي نوع من الخسران غير ما يعرفه الإنسان[٣].

رأس مال الإنسان في حياته الدنيا أمران:

"الأمر الأول: لحظات عمره التي تنتهي بانتهائها حياته في رحله امتحانه.

الأمر الثاني: ما وهبه الله من طاقات مادية ومعنوية يستطيع أن يعمل بها خيرًا أو شرًا، أو يُعطلها ويُضيعها ويُتلفها بلا فائدة يجنيها منها".

وهذه اللحظات الممتزجة بها طاقاته مخبأة في خزان المستقبل، كماءٍ سيال، وما في هذا الخزان يجري من ثقب لا يُمكن إقفاله، ولا يمكن الانتفاع به إلا لحظة فلحظة، إذ ما يجري من هذا الثقب المفتوح يبتلعه الماضي فلا يمكن استرجاعه، وما ينتفع به الإنسان من موجه الحاضر هو المقدار الذي لا يكون خاسرا له من رأس ماله، فإذا حوله وثبته في نفع خالد، كان كمن استطاع أن يجمد الوقت الحاضر ويجعله شيئًا متزايدًا متناميًا بلا انقطاع، إذ يدخره الله له ويُربيه له، حتى تكون الذرة منه كجبل عظيم في بعض الحالات المرضيات للرب جل جلاله[٤]. "ولما كان الإنسان في معظم أحواله ما بين مستهلك أوقات عُمره في نفع قليل ضئيل، أو فيما لا نفع فيه مطلقًا، أو فيما يحمل به أوزارًا، كان في وضع دائم من الخُسر"[٥]، "وحامل الأوزار في لحظات عُمره خاسر

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٠٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٥٢٨.

[٢] يُنظر: ابن عاشور، **المرجع السابق**.

[٣] يُنظر: الألوسي، **روح المعاني**، ج١٥، ص ٤٥٩.

[٤] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٠٨- ٦٠٩.

[٥] **المرجع السابق**، ص ٦١١.

ومدين، إذ يخسر رأس ماله من جهة، ويحمل ديونًا وتبعات من جهة أخرى، وهذه لا يجد لها تسديدًا إلا من عذاب في الحياة الأخرى"[١].

الوقت من جهة الطول والعرض والعمق

مقدار الانتفاع بموجة الحاضر تختلف بين المنتفعين اختلافًا عظيمًا، فهي من جهة الطول واحدة، إلا أنها ذات عرض وعمق مختلفين اختلافًا كبيرًا، "فلحظة سلطان عادل محب للخير، يُوَقِّع فيها على أمر يعم نفعه شعبًا بأكمله، ويجري خيره ما بقي نفاذ هذا الأمر، هي من جهة الطول تُساوي اللحظة التي انتفع فيها إنسانٌ بحك رأسه، لكن عرضها وعمقها بمثابة بحر عريض وعميق"[٢].

إنَّ العرض "يأتي من شمول الخير وكثرته، أما العمق فيأتي من بقاء جريان الخير في المستقبل، ولهذا كانت الصدقة الجارية والعلم الذي ينتفع به من الأعمال التي يعملها المؤمن في وقت عريض عميق. أما طوله فهو يساوي طول أي وقت آخر جرى فيه عمل ضئيل النفع قليل القيمة..."[٣].

شرط النجاة من الخسر

ليس للنجاة إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج، هو ذلك المنهج الذي تصف السورة معالمه، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار[٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦١٨.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٦٠٩.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٦١٠.

[٤] يُنظر: قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٩٦٤.

إنَّ "شرط النجاة من الخسر المطارد للإنسان مع لحظات عمره، كمال الإيمان، وكمال العمل الصالح في دائرة ذاته، وكمال التوصية بالحق والتوصية بالصبر في دائرته مع دوائر غيره من الناس على قدر استطاعته"[١].

سؤال وجوابه[٢]

طرح الميداني سؤالًا: هل الاستثناء يخرج كل من آمن وعمل صالحًا وأوصى بالحق وأوصى بالصبر من كل خسر؟ الجواب:

أولًا: إن كان من المؤمنين المسرفين على أنفسهم في ارتكاب المعاصي دون الكفر، فإنه يخرج نفسه بعض إخراج من محيط الخسر، فلا يكون من مستحقي الخلود في نار جهنم، وخسارته تكون في حدود ما تعرض له من عذاب، وما تعرض له من خسارة منازل الجنة كان باستطاعته أن يرقى إليها لو كان من المتقين المقتصدين أو المحسنين السابقين.

ثانيًا: إن كان من المقتصدين الذين يقتصرون على فعل الواجبات وترك المحرمات دون الاستزادة من النوافل والطاعات، يكون قد نجى نفسه من الخسر الذي يستحق به العذاب، فيستحق النعيم ودخول الجنات لكنه يكون خاسرًا منازل عالية في الجنة كان باستطاعته أن يرتقي إليها بفضل الله لو استزاد من نوافل الخيرات.

ثالثًا: إن كان من السابقين المقربين فهذا لا يخسر شيئًا مما كان باستطاعته أن يغنمه من منازل في جنات النعيم؛ لأنه من أهل الفردوس الأعلى.

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦١٨.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦١٥- ٦١٦.

رابعًا: وبين من هم في الفردوس الأعلى، ومن هم في أدنى مراتب الجنة ودرجاتها خاسرون بمقدار نزول درجة كل منهم عن مرتبة الفردوس الأعلى، إذ قصروا فلم يقوموا بأعمال صالحة كان بمقدورهم أن يعملوها، وكان تقصيرهم ناتجًا عن تهاون أو كسل أو إيثار لمتاع الحياة الدنيا.

المطلب الرابع: الإنسان وجحود النِّعم

في سورة (العاديات:١٤ نزول) وصف الله تبارك وتعالى الإنسان بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات٦].

لفظة "الكنود وحيدة في القرآن صيغة ومادة"[١] وهي تدل على القطع، يقال كند الحبل يكنده كندا. والكنود: الكفور للنعمة، ... لأنه يكند الشكر، أي يقطعه، والأرض الكنود، هي التي لا تنبت شيئًا[٢]. "فهي عاصية، وهي بخيلة، وهي كفور"[٣] ويُقال: كند ربه، أي جحد نعمته عليه، وكفر بها، وهي من صيغ التكثير والمبالغة[٤].

وعند أهل التفسير وردت عدة أقوال و"هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود"[٥]، فقيل هو: "الكفور"[٦]، وقيل: "اللوام لربه يعد المصائب وينسى النعم"[٧]، وقيل: "العاصي، البخيل"[٨]، وقيل هو: "الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة ويعامل الله على عقد

---

[١] بنت الشاطئ، **التفسير البياني**، ج١، ص ١١٠.
[٢] يُنظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج٥، ص ١٤٠.
[٣] بنت الشاطئ، **التفسير البياني**، ج١، ص ١١١.
[٤] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٣٥.
[٥] القرطبي، **جامع أحكام القرآن**، ج٢٠، ص ١٦٢.
[٦] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٥٦٧، والزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٨٦، والقرطبي، **المرجع السابق**، ج٢٠، ص ١٦٢.
[٧] الطبري، **المرجع السابق**، ج٢٤، ص ٥٦٧.
[٨] يُنظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٧٨٦، القرطبي، **جامع أحكام القرآن**، ج٢٠، ص ١٦٢.

عوض"[١]، وقيل: "هو الذي يكفر باليسير ولا يشكر الكثير"[٢]، وقيل هو: "الذي ينفق نعم الله في معاصي الله"[٣]، وهذا المعنى هو الذي اختاره الميداني فقال في تدبره للآية: "أقسم بنعمتي عليك أيها الإنسان إذ سخرت لك الخيل بكل ما فيها من صفات ملائمات لنشر ديني وإعلاء كلمتي، على أنك كنود كفور بنعمتي، تستعمل ما سخرت لك في معصيتي بالبغي والطغيان، والإثم والظلم والعدوان"[٤]، "ويُقاس على نعمة الخيل كلُّ نعم الله"[٥]، وبهذا يتبين أن كل نعمة "لا يستعملها فيما ينبغي ليتوصل بها إليه"[٦] يكون صاحبها كنودًا.

هذا حال الإنسان الكنود يقطع شكر النّعم، وشكرها بالاعتراف بأنها من فضل الله ومنته، وباستخدامها في طاعته وخدمة دينه، وهو بهذه الصفة الخبيثة لا ينبت شيئا من الأعمال الصالحات والأقوال المرضيات، بل الموبقات والمنكرات والجحود والعصيان.

وهذه الصفة السلبية "هي حقيقة في نفس الإنسان، حين يخوي قلبه من دوافع الإيمان ينبهه القرآن عليها، ليجند إرادته لكفاحها مُذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه، وثقل وقعها في كيانه"[٧].

---

[١] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٥١٣.

[٢] القرطبي، **جامع أحكام القرآن**، ج٢٠، ص ١٦٢.

[٣] الثعلبي، **الكشف والبيان**، ج٣٠، ص ١٨٥، ويُنظر: القرطبي، **المرجع السابق**، ج٢٠، ص ١٦٢. والنعماني، **اللباب في علوم الكتاب**، ج٢٠، ص ٤٦٥.

[٤] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٣٥.

[٥] **المرجع السابق**، ص ٦٢٩.

[٦] القاسمي، **محاسن التأويل**، ج٩، ص ٥٣٠.

[٧] قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٩٥٨.

المبحث الثاني: الظواهر الأخلاقية والسلوكية الاجتماعية للمكذبين والعلاج القرآني

المطلب الأول: الظواهر الأخلاقية للمكذبين.

المطلب الثاني: الظواهر السلوكية الاجتماعية للمكذبين.

المطلب الثالث: العلاج القرآني للمكذبين.

المطلب الأول: الظواهر الأخلاقية للمكذبين

تصف الآيات في بدايات التنزيل بعض ظواهر صفات المكذبين باعتبارها علامات دالة عليهم لا تنفك عنهم مهما تطاولت العصور والأزمان[١] وهذا الصنف من الناس "بهذه القبائح يواجه داعي الله"[٢].

قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ(١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ(١٣)﴾ [القلم].

الصفة الأولى: كثرة الحلف

﴿حَلاَّفٍ﴾ أي: "كثير حلف الأيمان المغلظة، لتوثيق أقواله الكواذب"[٣].

وقد ذم الله من أنزل فيه ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾ بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها لأن الحلاف مجترئ على الله، غير معظم له[٤].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٦.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٢٣٠.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٢٢٧.

[٤] يُنظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص ٢٦٨.

قال الميداني: "هذه الصفة نلاحظها لدى كثير من المضلين، إذ يسرفون في صناعة الأكاذيب، ... ويقدمون لمن ينافقونه ويتظاهرون بوده والرغبه في نصحه ما يزعمون أنهم ينصحونه به، ويخادعونه بسيل من الأيمان، ليستروا بذلك رغبتهم في توريطه، أو صرفه عن عمل خير هو فيه، أو هو عازم على القيام به"[١].

الصفة الثانية: المهانة

﴿مَّهِينٍ﴾ أي: "حقير في ذات نفسه، وإن كان منتفخًا في ظاهره، يتصنع التعاظم"[٢] فهو "حقير عند الله"[٣] "حقير عند الناس"[٤]، وهو ذو قلة في الرأي والتمييز[٥].

ومن مهانته دناءته في سلوكه الذي يُخفيه ولا يُعلنه، إذ تملكه شهوة حقيرة، وتُذلُّه رشوة صغيره، والباحث عن خباياه يجد لديه من الدناءات والمهانات ما يترفع عنه أكثر الناس[٦].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٧.

[٢] الميداني، **المرجع السابق**.

[٣] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٨، ص ٢٣١.

[٤] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣٠، ص ٦٠٣.

[٥] يُنظر: الزجاج، **معاني القرآن وإعرابه**، ج٥، ص ٢٠٥، والزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٥٨٦، والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٨، ص ٢٣١.

[٦] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٨.

الصفة الثالثة: الغيبة

﴿هَمَّازٍ﴾ هَمْزُ الإنسان اغتيابه[١] والهامز والهمّاز العياب[٢]، وأصل الهمز الضرب طعنا باليد أو بالعصا أو نحوه، ثم استعير للذي ينال بلسانه، وبعينه وإشارته[٣]، وقيل "للمغتاب: هماز؛ لأنه يطعن في أعراض الناس بما يكرهون"[٤].

وجاء اللفظ بصيغة المبالغة ليدل على أن "ديدنه ودأبه تعيير الناس وتنقيصهم وغيبتهم، والطعن فيهم من وراء ظهورهم، وأكل لحومهم،... وهدفهم من أعمالهم هذه الحط من مكانة ذوي المكانات في مجتمعهم؛ ليستعلوا عليهم، وليكون لهم وحدهم البروز والظهور"[٥].

الصفة الرابعة: النميمة

﴿مَّشَّاء بِنَمِيمٍ﴾ النّميم، والنَّميمةُ: "الوشاية بالسوء لإفساد بعض الناس على بعض، وأصلهما الصوت الخفي من حركة شيء، أو من وطء قدم، ويقال لصوت الكتابة: نميم ونميمة ومعلوم أن النمام يُقدم وشايته باستخفاء، وبصوت خفي"[٦].

هذا الصنف" كثير المشي بالنميمة، لتقطيع أواصر المحبة والمودة بين الناس، تصورًا منه أنه بهذا التقطيع يمنع تجمعهم، فتكون له وحده القوة الجماعية بالأعوان والأنصار، وهذا من دناءته ومهانته وسوء طويته"[٧].

---

[١] يُنظر: الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٨٤٦.
[٢] يُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٥، ص ٤٢٦.
[٣] يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٤٥.
[٤] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٥٣٤.
[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٨.
[٦] **المرجع السابق**. ويُنظر: الفراهيدي، **العين**، ج٨، ص ٣٧٣، وابن منظور، **لسان العرب**، ج١٢، ص ٥٩٢.
[٧] الميداني، **المرجع السابق**، ص ٢٢٨.

الصفة الخامسة: مناع للخير

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ "مَنَعْتُه أَمْنَعُه مَنْعاً فامْتَنَعَ، أي: حُلتُ بينه وبين إرادته"[١]، والمنع "ضدّ العطيّة، يقال: رجل مانع ومنّاع. أي: بخيل"[٢] ووصف بالشح باعتبار أن الخير هنا هو المال، وقيل بل هو على عمومه في المال والأعمال الصالحة، ومن يمنع الإيمان بالله والطاعة له فقد منع الخير[٣].

في زمن النبوة كان من صناديد الكفر من يقول لولده وعشيرته من يدخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا[٤]، وديدن الكثير في هذا الزمان يمنع الخير عمن أراد الإسلام أو أراد الاعتصام بحبل الله وهذه صفة ذم الله بها المكذبين، لا من ينتسبون للإسلام وأهله.

فيكون هذا الوسم القرآني ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ "أي كثير المنع للخير، فهو في ذاته لا يفعل الخير؛ لأنه مسرف في أنانيته، ثم هو لا يريد من غيره أن يفعل الخير؛ لأن فاعل الخير في الناس محبوب محترم ذو مكانة، والمناع للخير الذي يطلب الزعامة لنفسه بغير ثمن، يكره أن يفعل أحد خيرًا، لئلا يكون له بذلك مكانة اجتماعية حقيقية، منافسة لزعامته الكاذبة المصطنعة بالانتفاخ الفارغ، والتمويه والتضليل، أو بوسائل التسلط العدواني، فيتقيه الناس مخافة شره، وقد يمنع انتشار الخير بأعماله العدوانية"[٥].

---

[١] الفراهيدي، **العين**، ج٢، ص ١٦٣، ويُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٨، ص ٣٤٣.

[٢] الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٧٧٩.

[٣] يُنظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٤٧.

[٤] يُنظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٨، ص ٢٣١.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٩.

الصفة السادسة: الاعتداء على الناس

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: "ظالم ذو عدوان على الناس بغير حق، يقال: اعتدى فلان على فلان: أي ظلمه. واعتدى الحق، أي جاوزه إلى الباطل"[١]، "ويمكن حمله على جميع الأخلاق الذميمة يعني أنه نهاية في جميع القبائح والفضائح"[٢].

قال الميداني: "إن الواحد من هذا الصنف من الناس يسخر ما لديه من قوة مال وبنين وأنصار وأعوان في الاعتداء على الناس ليرهبوهم، بغية أن يأخذ مكانته بينهم بالإرهاب والعدوان، لا بالعطاء وفعل الخير وخدمة الناس وإصلاح ذات البين. وأعدى أعداء هذا الصنف من الناس الدعاة إلى الله وأنصارهم ومؤيدوهم والتابعون لهم. وكم نلاحظ طُلَّاب زعامات يفرضونها على الناس بعدوانهم عليهم وظلمهم والسطوة عليهم، لا بامتلاك قلوبهم بالمحبة"[٣].

الصفة السابعة: الإسراف في المعاصي

﴿أَثِيمٍ﴾ "أي كثير الإثم، مسرف في ارتكاب المعاصي والجرائم، وممارسات الأعمال غير الأخلاقية، فمهما تحركت لديه شهوة أو هوى، أو مطلب من مطالب نفسه لم يتورع عن ارتكاب أي إثم لتحقيق شهوته أو هواه أو مطلبه، وكم يُلاحظ الناس أئمة ضلال وتضليل هم في أنواع سلوكهم أثيمون، ويجابهون الحق والخير والفضيلة والدعاة إلى الله بالإثم والعدوان"[٤].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٩.

[٢] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٣٠، ص ٦٠٣.

[٣] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٩.

[٤] المرجع السابق.

الصفة الثامنة: الغلظة والجلافة

﴿عُتُلٍّ﴾ "هذه الكلمة تطلق على الجافي الفظ اللئيم، ذي الخلق السيئ، الظلوم للناس، الذي لا رحمة في قلبه ولا عاطفة، الشّديد الأَشَرِ والكِبرِ، الأكول الشّروب القاسي"[١]، وقيل: "إنه الذي يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب. مأخوذ من العتل وهو الجر، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧]"[٢]، وقد نقل الماوردي تسعة أوجه في معنى (عتل)[٣].

الصفة التاسعة: المشهور في الشر

﴿زَنِيمٍ﴾ "الزاء والنون والميم أصل يدل على تعليق شيء بشيء"[٤]، و"الزنمة ما يقطع من أذن البعير أو الشاة فيترك معلقا"[٥]، والزنيم: "الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها"[٦]، وهو ما رجحه الميداني فقال: "والزنيم: المعروف بلؤمه وشره"[٧].

﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي وهو بعد كل الصفات السيئة التي سبق ذكرها، فهو ذو علامة بارزة فيه تدل دوامًا على أنه إنسان شرير، تظهر علامة الشر فيه، كظهور زنمة الشاة أو البعير في أذنه، فيتقيه الناس لشره، ويتحاشونه مخافة أن ينالهم منه ضر أو أذى[٨].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٣٠، ويُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٥٣٥- ٥٣٦- ٥٣٧.
[٢] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٨، ص ٢٣١.
[٣] يُنظر: الماوردي، **النكت والعيون**، ج٦، ص ٦٤.
[٤] ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج٣، ص ٢٩.
[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٣٠، ويُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٢، ص ٢٧٥.
[٦] الشوكاني، **فتح القدير**، ج٥، ص ٣٢٣.
[٧] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٣٠.
[٨] يُنظر: **المرجع السابق**.

الصفة العاشرة: والصفة الكبيرة منها هي التكذيب بالقرآن التي ختم بها قوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥]، "وختمت الأوصاف المحذر عن إطاعة أصحابها بوصف التكذيب ليرجع إلى صفة التكذيب التي انتقل الأسلوب منها من قوله: ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾" [القلم:٨][1].

قال الميداني: "هذه الطائفة التي تعمل لصد الداعي إلى الله عن دعوته، والوقوف في طريق مسيرته الدعوية، تملك القدرة على تقديم نصائحها برفق، مقرونة بالأيمان المغلظة، مع التظاهر بالود والحرص على مصلحة من تُوَجّه له نصائحها، وتملك القدرة مع ذلك في الوقت نفسه على الهمز ضد الداعي إلى الله ؛ لإشعار غير المؤمنين بأنها تكيده بنصائحها وأيمانها المغلظة، فإذا فارقت مجلس الداعي إلى سبيل ربه، انطلق كل واحد منها مشاء بالنميمة كالحية الرقطاء، ليفسد قلوب الناس تُجاه الداعي، وليقطعهم عنه ويصدهم عن صراط الله المستقيم، ويظل حريصًا على أن يمنع انتشار الخير والهدى؛ لأن انتشار الخير والهدى في الناس يضر بمصالحه، ويحول عنه المجاري التي يَعُبُّ منها ثراءه ومكانته الاجتماعية وسلطانه ومجده، إذ يبصر الناس حقيقة جرائمه التي كان يسترها بمكره وكيده، بتأثير انتشار الخير، فهو مناع للخير بكل وسيلة مكر وكيد تتاح له. فإذا ألجأه الأمر إلى استخدام سلطته العدوانية، إذ لم تُجدِه وسائل المكر، كان معتديًا مرتكبًا لأقبح الآثام وأشنعها، وحين يصل به الأمر إلى استخدام سلطته العدوانية تنقلب سحنَتُهُ الخلقية، فيصير عُتُلًا جافيًا فظًا غليظًا لئيمًا فاحش الخلق لا رحمة في قلبه ولا عاطفة في نفسه، وعندئذ يظهر لدى الناس جميعًا بعلامة (شرير) فيتقيه الناس ويتحاشونه مخافة شره، إذ

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٧٦.

يصير زعيم شر وإجرام. هذا الصنف من الناس هو عدوً لدود للحق والخير والدعاة إلى سبيل الله"[١].

و"هذه الأوصاف هي أجناس لم يرد بها رجل بعينه،... وظاهر اللفظ عموم من هذه صفته، والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقي الزمن، لا سيما لولاة الأمور"[٢].

المطلب الثاني: الظواهر السلوكية الاجتماعية للمكذبين

وصف الحق تبارك وتعالى المكذبين بأوصاف تدل على جفاف عاطفة الرحمة وأن قلوبهم لا تتحرك نحو الضعفاء بعاطفة إنسانية، ولا تندى برحمة كريمة، وهي من أقبح الظواهر السلوكية الاجتماعية للذين يكذبون بالرسالة، وقد تتناول بعض المؤمنين الذين يغيب عن تصورهم الجزاء الرباني المعجل في الدنيا والمؤجل في الآخرة[٣].

الظاهرة الأولى: دفع اليتيم وقهره وإذلاله.

الظاهرة الثانية: عدم الحض على إطعام المسكين.

الظاهرة الثالثة: المراءاة.

الظاهرة الرابعة: منع إعارة الماعون.

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٢٦- ٢٢٧.

[٢] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٥، ص ٣٤٧.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٨٧.

الظاهرة الأولى: دفع اليتيم وقهره وإذلاله

قال الميداني: "... في سورة (الفجر/١٠ نزول) زجر الذين لا يكرمون اليتيم، فكان من المناسب في سورة (الضحى/١١ نزول) التصريح بالنهي عن قهره، ولو مع معونته والإنعام عليه"[١]، وفي سورة (الماعون/١٧ نزول) جعل دعّ اليتيم علامة من علامات التكذيب بيوم الدين.

والتوجيه لإكرام اليتامى والنهي عن قهرهم ذلك "إن اليتيم تزدحم في نفسه تصورات أنه مغلوب مقهور، إذ هو محروم من أبيه الذي لو كان حيًا لكان به معززًا كريمًا مكفيًا، ومحبوبًا مدللًا، وأن من يحسن إليه يفعل ذلك شفقة عليه، لا حبًا له. فكيف بمن يذله ويطرده ويدُعُهُ دعًّا، ويستولي على ماله، ويكلفه من الأعمال فوق تكليف أترابه ونظرائه من غير اليتامى"[٢].

- في سورة الفجر زجر وتوبيخ للذين لا يكرمون اليتامى، قال تعالى: ﴿كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧)﴾.

يقال: أكرم فلانٌ فلانًا "أي رفع من قدره وأعطاه ما يحب من مكانة، ولم يجعله يشعر بانتقاص ولا مهانة"[٣]، وإكرام اليتيم يكون بـ "سد خلته، وحسن معاملته؛ لأنه مظنة الحاجة لفقد عائله"[٤].

ومجيء هذه الآية بأداة الردع والزجر ﴿كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فيقول ربي أهانن﴾ ليدل على أن الإكرام والإهانة ليس في قلة المال وكثرته، بل الإكرام في التوفيق للطاعة، والإهانة في الحرمان منها والخذلان[٥]، وأعظم التوفيق نفع العباد خاصة المستضعفين

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧١.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٥٧١.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٥٣٧.

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٢٤.

[٥] يُنظر: النسفي، **مدارك التنزيل**، ج٣، ص ٦٤٠.

فكأنه جل تناؤه يقول: "بل إنما أهنت من أهَنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، فأخرج الكلام على الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم، فلذلك أهنتكم"[١]. جميل هذا المعنى فالإهانة والإكرام من قبل الله عز وجل مرتبطة بكيفية التعامل مع ضعفاء المجتمع من اليتامى والمساكين.

وقد أشار الميداني أن واقع حال الجمهور الأعظم من ذوي اليسار والسعة، أنهم قُساةُ القلوب والنفوس، فلا تحركهم نحو البؤساء عاطفة نبيلة، ولا يؤدون ما يحثهم عليه الواجب الإنساني، وما يأمرهم به التكليف الرباني، ولا يقتصر الأمر على عدم البذل، بل هم لا يكرمون اليتيم حتى مجرد إكرام معنوي، وهذا الإكرام لا يكلفهم مالًا يبذلونه، إذ يشعرون بالترفع عن إكرامهم، ومن كان منهم وليًا عليه وعلى ماله، أكل ماله بغير حق، واستغله وأذله وأهانه، وهضم حقوقه[٢].

- في سورة الضحى جاء النهي عن قهر اليتيم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩)﴾ والقهر: هو "الغلبة والأخذ من فوق، والمقهور هو المأخوذ من غير رضاه"[٣].

وقد أثار الميداني في هذا الموضع تساؤلًا طيبًا: ما الحكمة من التوجيه بالنهي عن قهر اليتيم بدل الأمر بإكرامه؟ فقال: "لما كان المتبادر من معنى الإكرام الإعطاء والبذل، وهذا قد يكون مع التعالي والإشعار بالتفضل، وفي هذين نوع من الغلبة التي لا تُرضي آخذ العطاء حينما يأخذه اضطرارًا أو عن حاجة، كان من المناسب التصريح بالنهي عن قهره، وفي هذا إعلام ضمني لغير الرسول ﷺ بأن لا يقهر اليتيم ولو كان يُعطيه ويبذل له مالاً أو معونةً أو خدمةً ما"[٤].

---

[١] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٣٧٨.

[٢] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٦- ٥٣٧.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٥٧١، ويُنظر: الفراهيدي، **العين**، ج٣، ص ٣٦٥.

[٤] الميداني، **المرجع السابق**.

- في سورة الماعون قال تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين(١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(٢)﴾

الدَّعُّ: أي الدفع العنيف بجفاء وغلظة[١]، وقيل: يدفعه عن حقه ويظلمه ويقهره[٢].

دعُّ اليتيم من الأمراض النفسية الخبيثة التي يولدها التكذيب بقانون الجزاء الرباني، وهذا المرض النفسي يولد جفاف عاطفة الرحمة وموتها في قلبه تُجاه أضعف الضعفاء في المجتمع البشري، إذ هو لا يرقب ثوابًا فيطمع به، ولا عذابًا فيخشى منه، فتنموا في نفسه الأنانيَّة المقيتة، حتى تقطعه عن النظر إلى الآخرين، وعن الشعور بمشاعرهم[٣]، وهذه المعصية "جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين"[٤].

وقد يكون قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور/ ١٣]، جزاءً وفاقًا لما انطوت عليه نفوسهم من الغلظة والشدة والقسوة، والتي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].

الظاهرة الثانية: عدم الحض على إطعام المسكين

المسكين "هو من كان ظاهره يدل على أنه ذو حاجة، إما بما يبدي من حالٍ تشعر بأنه فقير محتاج، أو بتصريحه بأنه ذو حاجة وبسؤاله صدقات الناس وزكوات أموالهم، وربما يكون في واقع حاله على خلاف ما يظهر بأقواله وأفعاله"[٥].

- جاء في (سورة المدثر/٢ نزول) بيان أن نزلاء سقر يعترفون بأنهم كانوا في علاقاتهم الاجتماعية وواجباتهم الإنسانية تجاه الجائعين المساكين أشحاء بخلاء، لا تتحرك قلوبهم

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٩٠.

[٢] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٦٣٠، والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢٠، ص ٢١١.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٩٢.

[٤] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٨٠٤.

[٥] الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص ٣٣٦، ويُنظر: **معارج التفكر**، ص ١٣٤- ٥٣٨- ٦٩١.

نحوهم بعاطفة إنسانية، ولا تندى برحمةٍ بدليل قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤)﴾، واختير الإطعام؛ لأنه من أشد حاجات الناس الضرورية، واختير الجائع المسكين لأنه كاشف نفسه، متعرض لمن يطعمه، يستضعف قلوب الرحماء، ومن لا يرحم الضعفاء فهو يستحق أن يُعامل بالمثل فلا يرحمه ربه يوم الدين[١]. ثم هو لا يُطعم، ولا يحض على الإطعام كما صرّح القرآن في سورة الفجر.

(سورة الفجر/١٠ نزول) تبين أن الشح لم يقتصر على عدم الإطعام، بل تجاوزه إلى عدم الحض عليه أيضًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨)﴾ و"الحض على الأمر الحث عليه، وهو طلبه بشدة وإلحاح"[٢]. "وتحاض الرجلان على أمرٍ إذا حض كل منهما صاحبه عليه"[٣]، واختير هذا اللفظ "لأن من يحض على فعل شيء يكون راغبا في التلبس به"[٤]، وهو فعل إنساني عظيم، وقد ورد بثلاث قراءات، وبأيُّها قرأ القارئ فمصيب[٥].

قُرئ: ﴿يَحُضُّون﴾ بياء الغائبين[٦]. وقُرئ: ﴿تَحُضُّون﴾[٧] كما قُرئ: ﴿تَحاضُّون﴾[٨].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ١٣٤.

[٢] **المرجع السابق**، ص ٥٣٧.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٦٩١.

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٣٢.

[٥] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٤، ص ٤١٢.

[٦] وهي قراءة أبي عمرو، ويعقوب، يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥١٢.

[٧] وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، يُنظر: **المرجع السابق**.

[٨] وهي قراءة باقي القراء العشرة، يُنظر: **المرجع السابق**، ويُنظر: ابن الجزري: **النشر في القراءات العشر**، ج٢، ص ٤٠٠.

وبين ﴿تَحضُّون﴾ و﴿تَحاضُّون﴾ تكامل في المعنى، "ف﴿تَحضُّون﴾ ليس فيه معنى المشاركة في الحض، وهذا يناسب حال أصحاب القيادة الفكرية في مجتمعهم الذين ينصحون العامة، و﴿تَحاضُّون﴾ فيه معنى المشاركة، وهذا يناسب أحوال الناس بشكل عام. وبين القراءتين التي بتاء الخطاب وبياء الغائب تكامل بياني، إذ الخطاب يلائم فريقا من الناس، والحديث عن الغائب يلائم فريقاً آخر من الناس، وهم المعرضون والمدبرون"[١]. وقيل: تاء الخطاب لقصد مواجهتهم بالتوبيخ، وعلى الغيبة لتعريف النبي ﷺ والمسلمين بذلك فضحًا لدخائلهم، أما توبيخهم فلأنهم؛ "لا ينفعونهم ولو نفع وساطة، بله أن ينفعوهم بالبذل من أموالهم"[٢].

وهذا الفعل قبيح مستنكر، يتنافى مع سمة الإسلام الذي دعا إلى ضرورة التكافل في الجماعة نحو الواجب ونحو الخير العام[٣] فينهض الجميع متعاونين مع القادرين، فيحض بعضهم بعضًا لسد الضرورات، حتى الضرورة إلى الطعام الذي تتوقف عليه الحياة[٤].

- ثم جاءت سورة الضحى بالنهى عن نهر المسكين ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ(١٠)﴾.

يقال لغة: نهر فلان فلانًا إذا زجره وأغضبه، فالنَّهر الزجر المثير للغضب.

أوضح الميداني السبب في عدم نهر السائل، ذلك " أن السائلين لأنفسهم في أغلب الأحوال إنما يسألون للاستكثار من الأموال وعن غير حاجة، إذ غدت المسألة لديهم بمثابة مهنة امتهنوها، ... وحينما يغلب في تصور الناس هذا المعنى، فإن الحريص على بذل العطاء لمستحقيه يضيق بالسائل تلقائيًا فينهره ويزجره. لكن هذا الظن قد لا يوافق حال السائل، فيكون نهره إيذاءً

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٦.

[٢] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٣٢٤.

[٣] يُنظر: قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٩٠٥.

[٤] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٣٨.

بالغًا لقلبه، وطعنًا في مكان جراحته التي تؤلمه، فكان من الحكمة لصيانة السائلين ذوي الحاجة الحقيقية المجهولين، وإن كانوا قليلين، توجيه النهي عن نهر كل سائل، حتى لا يمس النَّهرُ سائلًا صادقًا"[١].

أما سورة الماعون فبدأت بالاستفهام، والاستفهام للإعلام ببعض صفات المكذبين، أي: انظر تر من صفاته أنه لا يَحُضُّ على طعام المسكين[٢]، "ومن أشنع مظاهر موت الرحمة وانتزاعها من قلب الإنسان، أن تكِزّ نفسه شُحًا، فلا ينفع بنافعةٍ ذا حاجةٍ أو صاحب ضرورة، لا من نفسه، ولا بكلمة حض لغيره على نفعه، وأشنع هذا الأشنع أن لا يطعم الجائع المسكين، ولا يحض غيره على إطعامه، فهو في أحط دركات الشح"[٣]؛ "لأنه يبخل بماله وبمال غيره بالإطعام"[٤]. فهم "لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا"[٥].

وقيل: إن الوليد بن المغيرة الذي أعطاه الله مالًا ممدودًا كان ينفق في عام الحج عشرين ألفًا يطعم أهل منى، ولا يعطي المسكين درهمًا واحدًا[٦].

ومما لا ريب فيه أن إكرام اليتيم والحض على طعام المسكين، "عملان إن لم يكونا إسلاميين فهما إنسانيان قبل كل شيء، ... وجبلت النفوس على ألا تبذل إلا بعوض، ولا تكف إلا عن

خوف، فالخوف مأمون من جانبي اليتيم والمسكين، والجزاء غير مأمول منهما، فلم يبق دافع

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٥٧٢- ٥٧٣.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦٩٠.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٦٩٣.

[٤] الخازن، **تفسير الخازن**، ج٤، ص ٤٧٨.

[٥] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٢٠، ص ٢١١.

[٦] يُنظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص ٧٣.

للإحسان إليهما، ولا رادع عن الإساءة لهما إلا الإيمان بيوم الدين والجزاء، الذي يحاسب الإنسان فيه على مثقال الذرة من الخير"[١].

الظاهرة الثالثة: المراءاة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون:٦].

يقال لغة: "رَاءى الرجل يُرائي مراءاةً، ورِءَاءً، ورياءً، أي: أرى من نفسه أنه متصف بالخير والصلاح، على خلاف ما هو عليه في واقع الأمر"[٢].

يرى الميداني أن المراءاة كانت تقع من المكذبين بالمحافظة على ما ورثوا من دين إسماعيل عليه السلام كالصلاة والطواف حول البيت، والسعي بين الصفا والمروة، والسدانة والسقاية وغيرها من الأعمال، والتي يؤدونها للمحافظة على مكانتهم المتميزة بين العرب، وقيامهم بها يعطيهم أمجادًا دنيويّة ومنافع، لكنَّهم ساهون عما تقتضيه عبادة الله جل جلاله، من الإيمان بحكمته وعدله وما يلزم عنهما من إقامة اليوم الآخر للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء[٣].

إضافة إلى ذلك كانت المراءاة بإنفاق الأموال فقد "كان العرب يعيرون بالبخل وهم مع ذلك يبخلون في الجاهلية بمواساة الفقراء والضعفاء ويأكلون أموال اليتامى، ولكنهم يسرفون في الإنفاق في مظان السمعة ومجالس الشرب وفي الميسر"[٤].

وأوضح الميداني أن هذه الآية وإن كانت تكشف صفة من صفات المكذبين بقانون الجزاء الرباني، إلا أن قدرًا ما من مضامينها يُلقى ظلاله على المرائين من المؤمنين الذين يعملون أعمالهم

---

[١] الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج٩، ص ١١٤.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٩٥.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦٩٤.

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص ٥٠٦.

الصالحة ابتغاء الدنيا بما فيها من شهرة ومكانة ومنزلة عند الناس، لا ابتغاء الأجر والرضوان والنعيم الخالد في جنات النعيم[١].

الظاهرة الرابعة: منع إعارة الماعون

الماعون اسم جامع لمنافع البيت وأمتعته، كالقدر والفأس ونحوهما، ويطلق الماعون في الجاهلية على كل منفعة وعطية لا تكلف باذلها إلا يسيرًا من غير تكلُّف ولا منّة[٢]، و "مع أنه لا خسارة في إعارتها، إلا أن التكذيب بالدين يزيد في شح النفوس، وجفاف عواطفها الاجتماعية"[٣].

فالمكذب شحيح كز النفس يمنع أية معونة ومنفعة وعطية، حتى الأمتعة التي يتساهل البخلاء بإعارتها، يمنعها إذا لم يكن له في إعارتها منفعة دنيوية[٤].

قال الميداني: "ودلَّ تأخير بيان صفة منعهم للماعون إلى آخر آية في السورة، للإشعار بأنَّ المراد بالمصلين الساهين عن صلاتهم هم المكذبون بالدين أنفسهم، وهم الكفرة المشركون"[٥].

المطلب الثالث: العلاج القرآني للمكذبين

الغاية من خلق الإنسان هي الابتلاء، وهذا يستدعي باللزوم العقلي المحاسبة وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، وبما أن الصورة المثلى لهذه الأمور لا تتحقق في الحياة الدنيا، فلا بد من وجود حياة أخرى تتحقق فيها[٦]، وقد أقام القرآن "الدليل العقلي الذي يهديهم إلى الإيمان بيوم الدين، وأتبع الله هذا الدليل العقلي المقنع بمناظرة تشتمل على حصار فكري، يسقط كل احتمال يمكن أن

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٩٧.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٦٩٦، ولا يزال مدلول الماعون مستخدم من أيام الجاهلية إلى عصرنا هذا.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٦٨٨.

[٤] يُنظر: الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص ٥٣٢.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٩٦.

[٦] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٥٨.

يكون شبهةً للمكذبين بيوم الدين، أو ذريعة تجعلهم لا يخافون الآخرة وعقاب الله فيها على كفرهم، وتكذيب رسول ربهم ﷺ"[1].

الدليل الأول: الدليل العقلي

"كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا"[2]، فقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦)﴾ [القلم].

وقد سماهم الله ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ والإسلام في الشرع على ضربين[3]:

أحدهما: دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل، وإياه قصد بقوله: ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا﴾ [الحجرات/ ١٤].

والثاني: فوق الإيمان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾[البقرة/ ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ﴾[آل عمران/ ١٩].

والتعبير بلفظ المسلمين في أوائل التنزيل للدلالة على أن من دخل الإسلام في هذه المرحلة دخل بفطرة سليمة ونفس مطهرة من رجس الجاهلية، فلم يكن إسلام من أسلم عن رهبة أو طمع

---

[1] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٥٠.

[2] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٥٩٢.

[3] الأصفهاني، **المفردات**، ج١، ص ٤٢٣.

في شيء من متاع الدنيا أو نفاق، "فإن كلمة المسلمين فيها معنى السلام، والسلامة، وخلوّ الإنسان مما يؤاخذ عليه"[١].

وأما التعبير بلفظ المجرمين، فهو وصف يلبسهم مع الشرك، لباس المجرمين، الذين يساقون إلى المحاكمة، متلبسين بجرمهم وهو جرم الصد والإعراض وتكذيب الرسول ﷺ[٢].

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾: أي شيء هو لكم من حق أو فكر أو رأي مقبول يجعلكم تحكمون بأن يسوي الرب، بين المستسلمين المطيعين له، وبين المذنبين المجرمين؟ وقوله: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: على أيَّة كيفية تقبلها العقول تحكمون بهذه التسوية.

وكل من هذين الاستفهامين استفهام تعجِيبي إنكاري واجه الله عز وجل به المكذبين[٣].

والمعنى "إنه إذا لم يكن في خطة الخلق يوم آخر يُحاسبُ الناس فيه، ويجازون على أعمالهم في الحياة الدنيا، مع وجود مسلمين ومجرمين فيها يتصرفون بإرادتهم الحرة التي وهبهم الله إياها، فيظلم منهم من يظلم، ويحسن منهم من يحسن، ويكون فيهم ظالمون ومظلومون، ومصلحون ومفسدون، فإنَّ خلقًا هذه صفته تعوزه الحكمة ويلزم منه أن يكون خلقًا عبثًا، أو عملًا عشوائيًّا، أو عملَ ظالم لا يعبأ بآلام من يخلقهم، فيسلط بعضهم على بعض دون أن يتابع مجرميهم بحساب ولا عقاب عادل، ودون أن يتابع مسلميهم وصالحيهم بتكريم وتفضيل وثواب حسن. تعالى الرَّبُّ الخالق العليم الحكيم العدل البر الرحيم عن ذلك علوًا كبيرًا. إذن فلا بد أن يكون في خطة خلقه يوم

---

[١] الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، ج ١٥، ص ١١٠٥ –١١٠٦.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ١١٠٣.

[٣] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٤٨– ٢٤٩.

آخر، غير يوم هذه الحياة الدنيا، يجري الله فيه فضله فيمنحه محسنيهم ومسلميهم، ويجري فيه عدله على مسيئهم ومجرميهم"[١].

وجاءت الآيات تترًا تؤكد هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

إن العقل السويّ لا يسوي بين من خضع لله بالطاعة، وذل له بالعبودية، وخشع لأمره ونهيه، وبين المجرم الذي اكتسب الآثام وركب المعاصي وخالف الأمر والنهي، بل ما يحكم به أصحاب العقول السَّوية أن المطيع له الكرامة الدائمة، والعاصي له الهوان الباقي[٢].

ونفي التسوية بين الفريقين حكم عام سواء في الدنيا، أو في البرزخ، أو في الآخرة. كما قال ابن القيم: "ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(١٤)﴾ [سورة الانفطار] مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة"[٣] "وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو في الدار الآخرة"[٤].

الدليل الثاني: المناظرة الفكرية

ساق النص القرآني خمسة احتمالات يُمكن أن تكون شبهة أو ذريعة للمكذبين، والتي بإسقاطها تتم المناظرة التي فيها حصار فكري كامل[٥].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٤٩- ٢٥٠، بتصرف بسيط.

[٢] يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، ج٢٣، ص ٥٥٢.

[٣] ابن القيم، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء**، (المغرب: دار المعرفة، ط١، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م)، ج١، ص ١٢١.

[٤] ابن القيم، **مدارج السالكين**، ج١، ص٤٢٣.

[٥] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٥٠.

الاحتمال الأول: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ(٣٨)﴾ [القلم].

﴿تَدْرُسُونَ﴾ أي "تقرأون"[١]، و﴿تَخَيَّرُونَ﴾:"أصلها تتخيرون، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً"[٢].

هذا الاحتمال مفاده أن يتوهموا أن الله –عز وجل– أباح لهم أن يفعلوا كل ما يتخيرون لأنفسهم من خير وشر، دون أن يكونوا عرضة للمؤاخذه والعقاب على ما يقع منهم من ظلم أو فساد، وهذه الإباحة على الرغم من منافاتها لمقتضيات الحق والعدل، لا يمكن أن تُعلم إلا عن طريق كتاب رباني، توجد فيه نصوص صريحة تدل على تلك الإباحة، وأي كتاب رباني صحيح غير محرف لا يوجد فيه ما توهموه، فسقط هذا الاحتمال الذي يمكن أن يتعلل به المكذبون[٣].

الاحتمال الثاني: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ(٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ(٤٠)﴾ [القلم].

﴿أَيْمَانٌ﴾ جمع يمين وهو القسم. ﴿عَلَيْنَا﴾ أي: أيمان توجب علينا، والمتحدث هو الله عز وجل. ﴿بالِغَةٌ﴾ أي: متناهية في التوكيد ومستمرة الأثر إلى يوم القيامة ﴿زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل[٤] "والزعيم فِي كلام العرب: الضامن والمتكلم عَنْهُمْ، والقائم بأمرهم"[٥].

هذا الاحتمال مفاده أن يدَّعوا أن الله عز وجل أعطاهم عهدًا على نفسه موثقًا بأيمان بالغة التأكيد، ومستمرة الأثر إلى يوم القيامة، أن لهم أن يحكموا على أنفسهم بما يشاؤون من حكم، وبمقتضى هذا التفويض الرباني يستطيعون أن يسقطوا عن أنفسهم المؤاخذة والمحاسبة على

---

[١] المراغي، **تفسير المراغي**، ج٢٩، ص ٣٩.

[٢] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٥١.

[٣] يُنظر: **المرجع السابق**.

[٤] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢٥٢– ٢٥٣.

[٥] الفراء، **معاني القرآن**، ج٣، ص ١٧٧.

ما قدموا من شر وسوء عمل، وأن يمنحوا أنفسهم السعادة والنجاة، لكن هذه الأيمان لا وجود لها ولا يستطيع أحد أن يكون كفيلًا بإثبات وجودها إذا ادّعاها[١].

الاحتمال الثالث: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [القلم:٤١].

هو أن يتوهموا أن شركاءهم الذين يعبدونهم من دون الله، ستحميهم من عقاب الله وإقامة عدله فيهم. فمن ادَّعوهم شركاء لله في ربوبيته تعالى الله عما يقولونه علوًا كبيرًا، لم ينصروهم في المعارك التي جرت بين الفريقين بعد هجرة الرسول ﷺ والتي انتهت بفتح مكة، فكيف يحمونهم من العذاب ويحققون لهم النجاة والفوز والفلاح في الآخرة[٢].

الاحتمال الرابع: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [القلم: ٤٦].

﴿**مَغْرَمٍ**﴾ "غَرِمَ يَغرَمُ غُرمًا وغَرامةً ومَغرمًا، أي: لزمه بذل شيء لا يجب عليه بذله. ﴿**مُثْقَلُونَ**﴾ مُحملون بسبب المغرم حملًا ثقيلًا لا يريدون حمله"[٣]. والمعنى أنك "لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجرًا فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان"[٤].

أو كما قال الميداني: "أنت لم تسألهم أجرًا حتى يتهربوا من الاستجابة لدعوتك، فإن كان تكذيبهم لك يا محمد مدفوعًا بدافع التهرب من تكليف كلفتهم إياه لمصلحة شخصك، أجرًا على تبليغهم رسالة ربك لهم، أو تخوفًا من أن تكون دعوتك وسيلة لتحقيق هذا الأجر من مال أو ملك أو شهوات من متاع الحياة الدنيا، فبين لهم أنك لا تسألهم أجرا"[٥].

---

[١] يُنظر: الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٥١-٢٥٢- ٢٥٣.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢٥٣- ٢٥٤.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٢٦٢.

[٤] الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص ٥٩٦.

[٥] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٦٢.

وهذا الاحتمال دلَّ على "أنَّ من العقبات الصادات عن الاستجابة لدعوة الداعي إلى الله اتهامه بالمصلحة الشخصية، ولهذا علم الله رسله جميعًا أن يقول كل واحد منهم لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٤٢]"[١].

وبهذا سقط هذا الاحتمال الذي من الممكن أن يتعذر به المكذبون؛ لأنه لو سألهم أجرًا فأثقلهم غرم ذلك لكان لهم بعض العذر في إعراضهم وقرارهم.

الاحتمال الخامس: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم:٤٧].

حمل الميداني هذا الاحتمال على تكذيبهم بالقرآن، وادعائهم أنه مأخوذ من أساطير الأولين، وهذه الأساطير إما أن تكون من كتب أهل الكتاب كاليهود والنصارى، وهم لا يلجؤون إلى مثل هذا الادّعاء لأنَّه بأدنى مقارنة بينها وبين الآيات المنزلة من القرآن يسقط هذا الادّعاء، وإما أن تكون من كتب الأمم الغابرة كقوم نوح وعاد وثمود، وإسقاط هذا الادّعاء ببيان أن هذه الأساطير قد صارت بالنسبة إلى جميع الناس من أمور الغيب، فكيف يقيم المكذبون دعوى احتجاجية مستندين فيها إلى غيب لا يعلمون منه شيئا؟ إضافة إلى بيان واقع حالهم في الأُميّة، فهم لا يكتبون حتى يكون لديهم تراث علمي مدون في الكتب، والرسول محمد ﷺ واحد منهم في الأمية[٢].

ثم قال الميداني: "وهكذا تمت المحاصرة الفكرية في هذه المناظرة القرآنية للمكذبين، من كل الجوانب التي يمكن أن يُقدِّموا منها تعلّات ومعاذير، تستر جحودهم للحق الذي جاء به رسول الله محمد ﷺ"[٣].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٢٦٣، أشار الميداني أن الله عز وجل أنزل حول هذا الموضوع اثني عشر نصا تكامل فيها عقد الموضوع بكل ما يتطلبه من حركة اقناعية تربوية، ينظر الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص ٩١.

[٢] يُنظر: **المرجع السابق**، ص ٢٦٣- ٢٦٤.

[٣] **المرجع السابق**.

ذكر الميداني سوابق الحديث عن الجزاء الرباني في نجوم التنزيل فقال: "ولدى تتبع ما نزل قبل سورة الماعون التي تدور حول بيان بعض آثار التكذيب بالدين في سلوك الناس، نجد بدء الحديث ومتابعته حول موضوع الجزاء الرباني في السور التالية:

(١)في سورة (المدثر/٧٤ مصحف /٢ نزول).

(٢)وفي سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/٣ نزول).

(٣) وفي سورة (القلم/٦٨ مصحف/٤ نزول).

(٤) وفي سورة (المسد/١١١ مصحف/ ٦ نزول).

(٥) وفي سورة (التكوير/٨١ مصحف/٧نزول).

(٦) وفي سورة (الأعلى/٨٧ مصحف/٨ نزول).

(٧) وفي سورة (الليل/٩٢ مصحف/٩ نزول).

(٨) وفي سورة (الفجر/٨٩ مصحف/١٠ نزول).

(٩) وفي سورة (الضحى/٩٣ مصحف/١١ نزول).

(١٠) وفي سورة (العاديات/١٠٠مصحف/١٤ نزول).

(١١) وفي سورة (التكاثر/١٠٢مصحف/١٦ نزول).

"هذه العناية بقانون الجزاء الرباني وأعظمه ما ادَّخره الله إلى يوم الدين، في الآخرة دار الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، يدُلُّ على الأهمية البالغة لركن الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان الستة، وأنه المحرض والرادع الأكبر في حياة الإنسان المكلف؛ لالتزام سلوك صراط الله المستقيم، واجتناب سلوك سبل الضلالة"[١].

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦٨٩.

الخاتمة

أولاً: الخلاصة وأبرز النتائج

١- يُعد تفسير الميداني من أجود كتب التفسير، فالقارئ فيه والمتدبر له يجد تغذية إيمانية لغوية فكرية، فقد هضم الميداني معاجم اللغة، وكتب التفسير بالمأثور والرأي، وكتب القراءات القرآنية، والتطبيق العملي لمنهجه كشف عن كثير من الحقائق والمفاهيم التشريعية والتربوية التي لم تظهر تحت كثافة الجوانب التفسيرية في كتب التفسير الأخرى.

٢- وقفت الباحثة على جوانب بارزة اعتنى القرآن بها في المراحل المبكرة من تنزيله، وهي كالتالي:

أ- أسس العقيدة بترسيخ اسم (الرَّب)، وما يوجبه من إفراده سبحانه وتعالى بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ب-أسس الأخلاق فالآيات في أوائل التنزيل تصف حامل الرسالة (جبريل عليه السلام) بخُلُقه، وتصف المنزلة عليه (محمد ﷺ) بخلقه، وتصف المعرضين عنها بأخلاقهم.

ج- اعتنت الآيات بوصف رسالة الإسلام بما يدل على تكريمها للناس أجمعين، ابتداءً بما تسمى به كتابها (الذكر)، مرورا بوصفها اليسرى، وانتهاءً بوصفها الحسنى.

د- الخط الواضح الذي يبين كيف تكون علاقة حامل الرسالة بربه، وجاء بيان ذلك في صدر سورة العلق، المدثر، المزمل، الأعلى، وأواخر سورتي الضحى والشرح.

هـ- خط يبين منهاج الدعوة، وكيفية التعامل مع المكذبين، إن كانوا في مرحلة مماثلة للمرحلة التي نزلت فيها الآيات بمكة، والقائم على ترك المواجهة، والصبر، والهجر الجميل والإمهال، وعدم المداهنة.

و- خط واضح جلي يحمل الدفاع عن حامل الرسالة ﷺ، وما صحبه من وعود ومِنَن رَبانيّة، فيها مسرة لقلوب أتباعه وأنهم تبعٌ له في ذلك ما لم يكن الأمر من خصائصه ﷺ.

ز- خط يُركز على وصف الإنسان، فهو بحاجه إلى دين يحميه وشريعة تهديه.

ح- خط يُبين علل النفوس في الإعراض عن الدعوة الربانيّة، وهي بمثابة العلل الأم التي يتفرع عنها سائر العلل.

ط- خط يُبين فطرة الإنسان تُجاهَ المال، وما صحبه من تشريعات للتخفيف من تعلق النفوس به.

٣- الميداني وإن خالف منهج كثير من العلماء في التفسير على حسب ترتيب المصحف، إلا أن له وجهة نظر معتبرة وهي جديرة بالدراسة.

٤- الميداني لا يحشد الأقوال، ولا يجمعها في الموضع الواحد إلا قليلًا، بل يذهب إلى ما ذهب إليه جمهور المفسرين، فهو يقصد الكشف عن تسلسل البناء المعرفي لأمور الدين.

ثانياً: أهم التوصيات:

١- توصي الباحثة المختصين في الدراسات القرآنية بإكمال التفسير التدبري للقرآن الكريم (معارج التفكر ودقائق التدبر)، فلم يُقدر الله عز وجل للميداني أن يُتمه، وقال في السبعينات

من عمره المبارك: " ...فإنَّ من المفيد جداً أن أقدم ما يفتح الله الوهاب لي فيه، عسى أن يُتِمَّ العمل متدبرون لاحقون، مُحتذين أو مُضيفين أو مُعدلين"[١].

٢- توصي الباحثة طلاب الدراسات العليا الاهتمام بدراسة (معارج التفكر ودقائق التدبر) فقد احتوى على كنوز عظيمة ونفائس ثمينة ولفتات تربوية رائعة مع محاولة جادة لمعرفة حركة البناء المعرفي لأمور الدين، فمثلاً دراسة أول صفات الرب في بدايات التنزيل كصفة [الأكرم، الرحمن الرحيم، الملك المالك، الأعلى] ما دلالتها في بدايات التنزيل، ولمَ اختيرت دون غيرها من الأسماء والصفات، ودراسة التوجيهات الربانية الأولى في إعداد النفس والسلوك، فكأن البدايات هي اللبنات التي يُبنى عليها لاكتشاف وفهم ما جاء في نجوم التنزيل اللاحقة.

٣- توصي الباحثة بضرورة وجود دراسات وبحوث علمية لدراسة الخطوط البارزة في أوائل التنزيل، ولا سيما من طلاب العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية، للاستفادة منها في بناء الشخصية الإسلامية للفرد والأمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[١] الميداني، **معارج التفكر**، ص ٦.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأثير: المبارك بن محمد بن محمد، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي، (بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م).

ابن إسحاق: محمد بن يسار، **سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)**، تحقيق: سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م).

الألباني: محمد ناصر الدين، **صحيح السيرة النبوية** (عمان: المكتبة الإسلامية، ط١، د.ت).

الألوسي: محمود بن عبد الله، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ).

البخاري: محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح المسند من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (د.م، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ).

البغوي: الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ).

البقاعي: إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ط، د.ت).

أبو البقاء: أيوب بن موسى، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت).

البيضاوي: عبد الله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ).

التُستري: سهل بن عبد الله، **تفسير التستري**، جمع: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (منشورات محمد علي بيضون، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣ هـ).

ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (المدينة النبوية: مجمع الملك فهد، د.ط، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨ هـ).

الثعلبي: أحمد بن محمد، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م).

الجاوي: محمد بن عمر، **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**، تحقيق: محمد أمين الضنّاوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ).

جبل: محمد حسن، **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط١، ٢٠١٠ م).

الجراح: عائدة راغب، **عبد الرحمن حبنَّكة الميداني العالم المفكر المفسر زوجي كما عرفته**، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

الجرجاني: علي بن محمد، **التعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

ابن الجزري: محمد بن محمد، **النشر في القراءات العشر**، تحقيق: علي محمد الضباع (د.م المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، د.ط، د.ت).

ابن جزي، محمد بن أحمد، **التسهيل لعلوم التنزيل** تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، ١٤١٦ هـ).

الجوهري: إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م).

الحاكم: محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).

حوّى: سعيد، **الأساس في التفسير** (القاهرة: دار السلام، ط٦، ١٤٢٤هـ).

أبو حيان: محمد بن يوسف، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل (بيروت، دار الفكر، د.ط، ١٤٢٠هـ).

الخازن: علاء الدين علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تصحيح: محمد علي شاهين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ).

الخطابي: حمد بن محمد، **شأن الدعاء**، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، (د.م، دار الثقافة العربية، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ط٣، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢م).

الخطيب: عبد الكريم يونس، **التفسير القرآني للقرآن**، (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ط، د.ت).

الخفاجي: أحمد بن محمد، **حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي**، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القاضي وكِفَايةُ الراضي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، (بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت).

دروزة: محمد عزت، **التفسير الحديث**، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية – د.ط، ١٣٨٣هـ).

الرازي: محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠ هـ).

الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي (دمشق- بيروت: دار القلم- الدار الشامية، ط١، ١٤١٢هـ).

الزَّبيدي: محمد بن محمد، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين (د.م: دار الهداية، د.ط، د.ت).

الزجاج: إبراهيم بن السري، **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو

أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م).

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤٠٧ هـ).

أبو زهرة: محمد بن أحمد، **زهرة التفاسير**، (د.م، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت).

السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، (د.م، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠ م).

أبو السعود، محمد بن محمد، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).

ابن سليمان: مقاتل بن سليمان، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، (بيروت: دار إحياء التراث، ط١، ١٤٢٣هـ).

السمرقندي: نصر بن محمد، **بحر العلوم**، (د.ن، د.م، د.ط، د.ت).

السمين الحلبي: أحمد بن يوسف، **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م).

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت).

بنت الشاطئ: عائشة محمد، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، (القاهرة: دار المعارف، ط٧، د.ت).

الشافعي: محمد بن إدريس، **الرسالة**، تحقيق: أحمد شاكر، (مصر: مكتبة الحلبي، ط١، ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م).

الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥ م).

الشوكاني: محمد بن علي، **فتح القدير** (دمشق- بيروت: دار ابن كثر، دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ).

الطبري، محمد بن جرير

جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م).

جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر عبد السند حسن يمامة، (د.م، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م).

طنطاوي: محمد سيد، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، ط١، ١٩٩٨).

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»** (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط، ١٩٨٤م).

عبد الباقي: محمد فؤاد، **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، (بيروت: دار القلم، د.ط، د.ت).

عبد الجبار: صهيب، **الجامع الصحيح للسنن والمسانيد**، (د.م، د.ن، د.ط، ٢٠١٤م).

ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢ هـ).

الغزالي: محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت).

ابن فارس: أحمد بن زكريا، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (د.م، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

الفراء، يحيى بن زياد، **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، (مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة، ط١، د.ت).

الفراهيدي: الخليل بن أحمد، **العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي (د.م، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت).

ابن فورك: محمد بن الحسن، **تفسير ابن فورك – من أول سورة نوح – إلى آخر سورة الناس**، دراسة وتحقيق: سهيمة بنت محمد سعيد محمد أحمد بخاري (ماجيستير) (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩ م).

القاسمي: محمد جمال الدين، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨ هـ).

القرطبي: محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

قطب: سيد إبراهيم، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ط٢٤ ،١٤١٥هـ).

ابن القيم: محمد بن أبي بكر الجوزية

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، (المغرب: دار المعرفة، ط١، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م).

الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية، تحقيق: علي الدخيل الله (الرياض: دار العاصمة، ط١، ١٤٠٨).

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م).

ابن كثير: إسماعيل بن عمر

تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ).

السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، (بيروت: دار المعرفة،١٣٩٥ هـ /١٩٧٦م).

الماتريدي: محمد بن محمد، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، تحقيق: مجدي باسلوم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

الماوردي، علي بن محمد، **النكت والعيون**، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت).

مجاهد: مجاهد بن جبر، **تفسير مجاهد**، تحقيق: محمد عبد السلام، (مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط١، ١٤١٠/١٩٨٩م).

ابن مجاهد: أحمد بن موسى، **السبعة في القراءات**، تحقيق: شوقي ضيف (مصر: دار المعارف، ط٢، ١٤٠٠هـ).

مجمع اللغة العربية: **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، (جمهورية مصر العربية: د.ن، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

المراغي: أحمد بن مصطفى، **تفسير المراغي**، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م).

مسلم: أبو الحسين بن الحجاج النيسابوري: **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).

مصطفى: إبراهيم وآخرون: **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية (القاهرة: دار الدعوة، د.ط، د.ت).

ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ).

الميداني: عبد الرحمن حسن حبنّكة

الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع، (د.م، مؤلف الكتاب، د.ط، د.ت).

فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٤١٧/١٩٩٦م).

قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجل تأمّلات، (دمشق، دار القلم، ط٥، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م).

معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل" (دمشق: دار القلم، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م).

النسفي: عبد الله بن أحمد بن محمود، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، (بيروت: دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م).

النعماني: عمر بن علي، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩ هـ /١٩٩٨م).

أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل، **الوجوه والنظائر**، حققه وعلق عليه: محمد عثمان، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م).

الواحدي: علي بن أحمد، **التفسير البسيط**، تحقيق: محمد الفوزان، أشرف على طباعته وإخراجه عبد العزيز آل سعود، وتركي العتيبي، (المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤٣٠ هـ).

مراجع شبكة الإنترنت:

مكّي: مجد بن أحمد بن سعيد

مقال بعنوان: "**الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني – من أعلام المفسرين في العصر الحاضر**"، رابطة العلماء السُّوريين، ٢٠١٣/٥/٥،

https://islamsyria.com/site/show_cvs/14، استعرض بتاريخ

٢٠١٩/١١/١٤م.

مقال بعنوان: "**لمحات من كتاب معارج التفكر ودقائق التدبر للعلامة عبد الرحمن حبنكة الميداني**" (مركز المقاصد للدراسات والبحوث، ١٣/٨/ ٢٠١٨م)،

http://maqassed.ma/article/detail/353، استعرض بتاريخ ٢٠١٩/١٢/١م.